موسوعة
عالم علم النفس

NOBILIS

المعجم الموسوعي للتحليل النفسي

3

إسم الموسوعة	:	موسوعة عالم عِلم النفس
إسم المؤلّف	:	الدكتور عبد المنعم الحفني
إعــداد	:	قسم الدراسات في دار نوبِليس بـإشراف الأستــاذ غسّان شديـد
قياس الكتاب	:	27.5 × 19.5 سم
عدد صفحات الجزء	:	224
عدد صفحات المجموعة	:	6436
إسم الكتاب	:	المعجم الموسوعي للتحليل النفسي - مجلد (3)
مكان النشر	:	بيروت – لبنان
دار النشر والتوزيع	:	دار نوبِليس
تلفاكس	:	961 1 583475
تلفون	:	961 1 581121 961 3 581121
الطبعة الأولى	:	2005

عالم عِلم النفس

24

الدكتور عبد المنعم الحفني

المعجم الموسوعي للتحليل النفسي

«عربي - إنجليزي - فرنسي - ألماني»

المجلّد الثالث

NOBILIS
MAISON D'EDITION

- ك -

حرف الكاف

– الكاريكاتير...

- **Caricature (E.: F.);...**
- **Karikatur (D.);...**

هو إبراز صفة من صفات الموضوع بشكل مبالغ فيه ابتغاء السخرية منه والحطّ من شأنه في شكل رسم أو كلام. ويشابه كريس بين فن الكاريكاتير وفن التورية اللفظية، وكلاهما له قوة استثارة الخيال وإظهار التناقض. وقد يكون الكاريكاتير وسيلة من الوسائل التي يلجأ إليها الأنا ويستخدمها في المقاومة- ضد الأنا الأعلى. وتتأتى السخرية من الموضوع نتيجة تشويهه، وربما كان ذلك نوعاً من الإعلاء بالرغبات التدميرية، أو حتى كوسيلة لتفريغها والتخلّص منها بطريقة تُضحك المستمع أو المشاهد ولا تصادم فنان الكاريكاتير بالموضوع الذي يسخر منه. ويستلزم ذلك أن لا يُظهر الفنان عواطفه الحقيقية، وأن يمهر في إخفائها تحت مظهرية مضحكة يوافق عليها الحضور وينال بها الاستحسان لفنه. ومن الطبيعي أن يتهم تصريف المكبوت لدى الفنان والمشاهدين أو المستمعين من خلال الضحك. والضحك يخلّص من الطاقة الزائدة عن حاجة عملية الكبت.

مراجع

- Kris, E.: The Psychology of Caricature. (1952)

❖ ❖ ❖

– الكبت...

- **Repression (E.);...**
- **-Répression (F.);...**
- **Verdrängung (D.);...**

جوهر الكبت هو عجز نزعة معيّنة عن الإفلات من النظام اللاشعوري والدخول في النظام قبل الشعوري، وبذلك تظل النزعة لاشعورية وتوصف بأنها كُبِتت.

والكبت يحدث عن صراع النزعات المتعارضة، وهو استبعاد للنزعات غير

المرغوبة. والقوة التي تعمل على استمرار الكبت تظهر أثناء التحليل في شكل مقاومة. ومصدر الكبت هو الأنا الذي يقوم بالكبت بناءً على أوامر الأنا الأعلى وفي خدمته. ومفهوم اللاشعور مستمد من نظرية الكبت، وهي النظرية الأساس في التحليل النفسي. ويعتبر فرويد المكمبوت كنموذج للاشعور، واللاشعور نفسه نوعان: اللاشعور الكامن الذي يمكن أن يستحيل شعورياً، واللاشعور المكبوت الذي لا يمكن أن يصبح شعورياً إلا بعناء وبمساعدة من المحلل النفسي، ويطلق فرويد على ما هو كامن ولاشعوري فقط بالمعنى الوصفي لا الدينامي إسم قبل الشعوري Preconscious، وأما لفظ اللاشعور Unconscious فيستبقيه للمكبوت اللاشعوري.

وتظهر النزعات المكبوتة أثناء التحليل في تعارض مع الأنا، ويصبح من مهمة التحليل إزالة مقاومات الأنا لها. ويتوقف التداعي لأفكار المريض كلما اقترب ذهنه من الأفكار والذكريات المكبوتة، ويقال حينئذ إنها صادفت مقاومة. ولا يتنبه الأنا للمقاومة، وحتى إذا تبين له من حالة الضيق التي يمر بها أن هناك مقاومة منه لظهور المكبوت فإنه لا يعرف ما هي ولا كيف يصفها، الأمر الذي يثبت أن الأنا ذاته به شيء لا شعوري أيضاً، وأن هذا الشيء يشبه في تصرفاته المكبوت، أي له آثاره البالغة بدون أن يكون نفسه ظاهراً في الشعور، وأنه يحتاج إلى مجهود خاص قبل أن يتحقق ظهوره فيه. ويقول فرويد إن ذلك نفسه هو سبب تخليه عن نظريته السابقة التي كان فيها يردّ الأعراض العصابية إلى الصراع بين الشعور واللاشعور، وأنه لهذا السبب استبدل بالتقابل بين الشعور واللاشعور تقابلاً آخر بين الأنا المنظِّم وبين ما هو مكبوت ومنفصل عن الأنا. وينبّه فرويد بشدة إلى أن اللاشعور لا يتطابق مع المكبوت لهذا السبب، فمع أن كل ما هو مكبوت لاشعوري، إلا أن كل ما هو لاشعوري ليس مكبوتاً، وذلك لأن جزءاً من الأنا هو لاشعوري أيضاً.

ويقول فرويد إن المكبوت من الأنا يندمج في الهو وليس من سبيل لأن يتصل بالأنا ثانية، إلا عن طريق الهو، فكأننا في الهو لدينا مادتان، إحداهما لاشعورية

أصلية في الهو، والأخرى قادمة من الأنا. وقد لا يكون من السهل التمييز الدقيق بينهما، إلا أنهما يطابقان على وجه التقريب ما يكون بين الشيء الموجود أصلاً والشيء المكتسب. وتعطينا دراسة الأحلام مثلاً للطريقة التي بها تتوجه المادة اللاشعورية من الهو نحو الأنا. سواء كانت في الأصل لاشعورية أو أصبحت لاشعورية بالكبت، وتصب قبل شعورية وتستحدث بها التعديلات التي يقال لها التحريفات الحلمية. وغالباً ما تستعيد الذاكرة أثناء الأحلام حوادث جرت في الطفولة الأولى وكانت منسية وأصبحت لاشعورية نتيجة الكبت، ويفيد تذكرها في تصوّر الحياة التي كانت للحالم في الطفولة. ويعمل التحليل النفسي على تحويل المادة اللاشعورية إلى مادة موجودة قبل الشعور، وبذلك نعيدها إلى سلطة الأنا. ويعوق نجاح التحليل مقاومة الأنا للمادة المكبوتة بالنظر إلى ما يلحقه من الكدر كلما نجح استدعاؤها.

ولا يوجد إنسان يخلو من الكبت، وتسهّل التربية، وسلطة الوالدين - وهي الأنا الأعلى - حدوث الكبت. وقد تبدو الرغبة في الحصول على أنا قوي غير مكبوت شيئاً غير حضاري، إلا أن الإنسانية مدينة للكبت بميراثها الثقافي، فلولا الكبت لاستمر الناس على البداوة، ولكن في مقابل الحضارة دفع الإنسان ثمناً باهظاً هو الأمراض العصابية التي أصابت المتحضرين خاصة. ومن الواجب أن نضع في الاعتبار الخاصة البيولوجية للجنس البشري، وهي اعتماد الطفل على الأسرة لمدة طويلة، ومن ثم تشكل التربية بالإضافة إلى مطالب الحضارة عبئاً ثقيلاً على الإنسان العصري وتستقضيه الكثير من الكبت لنوازعه الغريزية. وتثبت شواهد الأمراض العصابية أن هذه الأمراض إنما تصدر عن كبت مجموعة الغرائز التي تكوّن الحياة الجنسية، فإما أن تكون الأعراض العصابية إشباعاً بديلاً للدوافع الجنسية، وإما أن تكون وسائل لمنع هذا الإشباع، وهي عادة خليط من الإثنين ومحاولة للتوفيق بينهما.

وفي مرحلة الطفولة يكون أنا الطفل ضعيفاً لا يقوى على مغالبة المطالب

الغريزية، ويستحدث العصاب في هذه المرحلة نتيجة تأخر نمو الأنا عن نمو الطاقة الجنسية، وتتعرض التجربة الأوديبية للطفل للكبت الشديد، غير أن جميع دوافعها والاستجابات التالية المتصارعة والتي تثيرها تظل في اللاشعور وتستحدث الاضطرابات في نمو الأنا عند البلوغ. ويقول فرويد إن لم يكن للتحليل النفسي من فضل سوى اكتشاف عقدة أوديب المكبوتة فإن هذا الفضل وحده يكفيه فخراً ليجعله إحدى المعارف الإنسانية الكبرى ذات القيمة.

والكبت شرط ضروري سابق لتكوين الأعراض في الأمراض النفسية. والأعراض إشباع بديل للرغبات التي كبتت ولم يتيسر لها الإشباع في حياة الواقع، وتمثّل الأعراض ما هو مكبوت وكذلك ما كان السبب في الكبت وأدّى إلى ظهور الأعراض.

ويقسم فرويد الكبت إلى نوعين: كبت أوّلي Primal r. يحول دون المادة اللاشعورية الكامنة وأن تظهر في الشعور، وكبت ثانوي Secondary r. باستبعاد الرغبات والأفكار التي ظهرت في الشعور. وأغلب حالات الكبت التي تصادف المحلّل النفسي أثناء العلاج من نوع الكبت الثانوي.

ومن العناصر الهامة في نظرية الكبت أن عملية الكبت عملية مستمرة تقتضي استهلاكاً مستمراً بالتبعية للطاقة. ولو توقف الكبت لانتهز الدافع المكبوت الفرصة للإفلات ولأخفق الكبت، ويضطر الأنا إلى تأمين دفاعه باستهلاك طاقته بصفة مستمرّة، ويشاهد هذا النشاط من أجل وقاية الكبت في العلاج النفسي في صورة المقاومة، وتتضمن وجود شحنات نفسيّة مضادة، ومن ذلك تكوين رد الفعل بتقوية الاتجاه المضاد للميل الغريزي الذي يجب أن يكبت. فالكراهية لشخص يمكن أن تكبت عن طريق المغالاة في الخوف عليه وإظهار المحبة له. وتأتي المقاومة التي يجب التغلّب عليها في التحليل النفسي من الأنا وشحناته النفسية المضادة، ويقوم المحلّل بجعل المقاومة اللاشعورية شعورية، وغالباً ما تكون لاشعورية لصلتها بالمادة المكبوتة، وإذا كانت المقاومة شعورية أو أصبحت شعورية وَعَد المحلل المريض بمكافآت

وفوائد لو تخلى عنها وقدّم ما يثبت بطلان الأساس الذي تقوم عليه. ومع ذلك فإن الكبت قد يستمر بعد زوال المقاومة، لأن الأنا سيجد صعوبة في التخلي عن الكبت وسيشقّ طريقه Working through نحو هذا الهدف بصعوبة، لأن المكبوت رغم كشفه ما يزال منجذباً له ويشكّل جزءاً منه ويقاوم لهذا السبب.

ومن الخطأ الإفراط في تقدير الدور الذي يلعبه الأنا الأعلى في الكبت، وليس من سبيل إلى الجزم بأن ظهور الأنا الأعلى هو الذي سيرافقه ممارسة الكبت الثانوي.

ومع أن عملية الكبت تدلّ على قوة الأنا، إلا أنها تبيّن أيضاً ضعفه باعتبار أن ما يتم كبته يظل خارج تنظيم الأنا ومستقلاً عنه هو ومشتقاته، فتزيد رقعة المكبوت على حساب الأنا.

ومن الخطأ أن يُظَن أن الأنا كلما أراد أن يكبت جزءاً من الهو أسرع الجزء الباقي من الهو لإنقاذ الجزء المهدّد واشترك في صراع مع الأنا، وربما يكون ذلك هو ما يحدث فعلاً، ولكنه لا يحدث على الأقل في أول حالة كبت للأنا بسبب العزلة التي يكون عليها الدافع الغريزي المكبوت.

وتدلّ الأعراض على مواضع المادة المكبوتة والأماكن التي أغارت منها المادة المكبوتة على منظمة الأنا. وتقوم الأعراض باعتبارها بديلاً للدافع المكبوت ومشتقة منه بدور هذا الدافع، وتطالب بالإشباع مثله، وتسبّب للأنا الكدر فيتخذ منها موقفاً دفاعياً.

وليس الكبت وسيلة الأنا الوحيدة للدفاع عن الدوافع غير المرغوبة، ومن المفيد التمييز بين الدفاع كمعنى عام وبين الكبت، إذ أن الكبت ليس إلا أحد ميكانيزمات الدفاع.

والإلغاء Undoing والعزل مثلان للكبت . وفي الإلغاء قد يقرر الشخص السوي اعتبار حادث ما كأن لم يحدث، وأما الشخص العصابي فيحاول أن يلغي الماضي ذاته ويكبته بوسائل حركية، ويفسّر ذلك إجبار التكرار المشاهد في العصاب القهري، فالذي لا يمكن إلغاؤه بالطريقة المرغوبة يتم إلغاؤه بتكراره بطريقة مختلفة. وأما العزل فهو استبعاد

الخبرة المراد كبتها بحيث لا تظهر في التفكير العادي وتُقمع علاقاتها الارتباطية وتجرّد من كيفيتها الوجدانية بحيث تصبح كأنها معزولة، ونتيجة العزل في هذه الحالة كنتيجة الكبت.

وكما يقتضي الكبت وجود عامل يقوم بالكبت هو إما الأنا أو الأنا الأعلى، فإنه يقتضي أيضاً وجود منبّه وهو القلق المرضي الذي نطلق عليه إسم الحَصَر. ويطلق فرويد على الظهور اللاإرادي في الشعور للمشتقات غير المقبولة أو غير المرغوب فيها للدوافع الأوّلية إسم عودة المكبوت The return of the repressed، ويقول إن الدافع الغريزي الذي يُكبت قد يفلح في الظهور مرة ثانية في شكل دافع غريزي جديد يشق طريقه تحت تأثير إجبار التكرار ويتبع المسلك الذي أتبعه الدافع الغريزي السابق كبته. وأيضاً فإن التحليل النفسي يساعد الأنا على إزالة حواجز الكبت التي استحدثها ليستعيد الأنا سلطته على المكبوت ويستعيده من الهو ويسمح للدوافع الغريزية بأن تشق طريقها كما لو أن الخطر القديم لم يعد له وجود. وأيضاً فإن الدافع الغريزي المكبوت من الممكن أن يُستثار ويُشحن من جديد من الداخل عن طريق تدعيم مصادره الداخلية للإثارة، ومن الخارج عن طريق إدراك أحد الموضوعات التي يرغب فيها ويطلبها.

والكبت خلاف الكف Inhibition حيث يُقال مثلاً الخوف يكف الرغبة الجنسية، والخوف إستجابة تكفّ إستجابة أخرى، وقد يكف الدافع الغريزي دافعاً غريزياً آخر ليفسح لنفسه المجال. وأما الكبت فيكون للدافع الغريزي دونما أن يكون هناك دافع غريزي آخر. والفرق بين الكبت والنبذ Rejection أن الكبت لا يكون إلا في الطفولة غالباً، وأما النبذ فهو عملية واعية لا تتوفر إلا من بعد بلوغ النضج وتكون لنا القدرة على التمييز والاختيار واطّراح غير المقبول. وأيضاً هناك فرق بين الكبت والقمع، فالقمع Suppression، هو السيطرة الشعورية على الدوافع والمشاعر غير المقبولة، وأما الكبت فهو دفع ما ليس مقبولاً إلى اللاشعور.

ولم يكن فرويد أول من استخدم الكبت فقد سبقه إلى ذلك هيربارت، ويبدو أن

فرويد عرف به من هيربارت من خلال مينرت كما يقول المؤرّخون. وكان فرويد يقول إن الكبت بتأثير القلق، ثم عدل عن ذلك إلى القول بأن القلق يكون بسبب الكبت أكثر منه نتيجة له. وميّز بين الكبت الفاشل الذي يؤدي إلى الإصابة بالعصاب، وبين الكبت الناجح الذي يظلّ به المكبوت لاشعورياً وربما يتحقق ذلك في التسامي.

مراجع

- Freud: Repression. (195)

: The Unconscious. (1915)

: The Ego and the Id. (1923)

❖ ❖ ❖

– كريتشمر، إرنست...

- Kretschmer, Ernest...

(١٨٨٨ – ١٩٦٤) صاحب النظرية التيبولوجية المشهورة في علم النفس البنيوي أو الجبلّي، ويهمنا هنا باعتبار علاقته بفرويد وبحركة التحليل النفسي، فقد تراوح موقفه منهما بين الإنكار والتأييد. وفي الاجتماع السنوي لعلماء طب الأعصاب والطب العقلي في ألمانيا والنمسا في السنوات ١٩١٩ و١٩٢٠ و١٩٢١ حمل بعنف على فرويد ووصف بحوثه بأنها غامضة، ولهجته فيها غير علمية ونتائجه لا يمكن التعويل عليها، ولكنه غيّر موقفه في المؤتمر الدولي السادس للطب النفسي الذي عقد في درسدن سنة ١٩٣١. فنوّه بجهود فرويد في مجال سيكولوجية الحلم، وانتهز بلوغ فرويد سن الخامسة والسبعين (وُلِد فرويد في السادس من مايو) فحيّا جهوده في هذا المجال (المؤتمر عقد في ١٤ مايو)، وكريتشمر يهودي، ولمّا أحسّ باضطهاد النازي لفرويد بالذات (سنة ١٩٣٣) إستقال من منصبه كرئيس للجمية الدولية للطب النفسي، وكان جورينج وزير الإعلام في حكومة النازي قد طلب من الأعضاء الألمان أن يدرسوا كتاب هتلر «كفاحي» دراسة متأنية، وأن يتخذوه أساساً يوجههم في بحوثهم ونظرياتهم. وقد تولّى كارل يونج رئاسة

الجمعية بعد كريتشمر، وأصبح رئيساً لتحرير مجلة الطب النفسي لسان حال الجمعية، وانضم إليه جورينج كمساعد لرئيس التحرير، واستقال يونج سنة١٩٤٠ لما طلبوا إليه أن يتحرّى في اختياراته للمقالات والبحوث التي تنشر أن يميّز بين ما يسمّى علم النفس الآري وعلم النفس اليهودي، وأن يقتصر نشره على ما يخص علم النفس الآري. ولما كان يونج نفسه متزوجاً من يهودية، وبدأ النازي اضطهاده لهذا السبب فقد استقال كما ذكرنا، ورفض أن يكتب شيئاً في هذه الفترة ناقداً فرويد وأعماله، على أساس أن العلم يقوم على الحياد وليس فيه هذه العصبية. وقد تولّى جورينج من بعده رئاسة الجمعية ووجّه أهدافها وجهة نازية، وحرّم استخدام مصطلحات التحليل النفسي، وبيّن بجلاء الأصل اليهودي لهذا الفرع من علم النفس، وأصدر أوامره بألا يُمارَس التحليل النفسي البتة في الأراضي الألمانية.

مراجع

- Jones, E.: The Life and Work of Sigmund Freud. (1953)

❖ ❖ ❖

- كريس، إرنست...

- Kris, Ernest...

(١٩٠٠ - ١٩٥٧) يُعتبر أفضل من كتب في الفن من وجهة نظر التحليل النفسي، وكان قد تعرّف إلى فرويد من خلال والد زوجته طبيب أطفال فرويد، فلزمه وتلقى عنه، وصار من البارزين في حركة التحليل النفسي، وناط به فرويد تمحيص رسائله إلى فليس التي كانت ماري بونابرت قد عثرت عليها، وشاركته في هذا العمل أنّا ابنة فرويد، واختارا من هذه الرسائل ما يمكن نشره وله فائدة علية، ونشراها بمقدمة إضافية من كريس وشروح على الهوامش كان فيها أستاذاً بمعنى الكلمة، ودلّل على علم غزير بنظريات فرويد وتاريخ حركة

التحليل النفسي، وظهر ذلك بجلاء في مؤلفاته التي يؤرّخ فيها للتحليل النفسي، ويفسّر فيها مقالات فرويد في الأحلام. وكانت أكبر إسهاماته في التحليل النفسي بحوثه في مجال الطفولة، والعوامل الدينية التي تؤثر في نمو الطفل في الصحة والمرض، ودراساته في سيكولوجية الإعلام، وفي الحرب السيكولوجية الإذاعية، وفي تحليل الأعمال الفنية والخيال الإبداعي، وشارك في تحرير الكثير من منشورات حركة التحليل النفسي، وعهد إلى فرويد مع آخرين بإصدار مجلة إيماجو، وكان ضمن النخبة التي أشرفت على إصدار مؤلفات فرويد، ودعا إلى إصدار دورية سنوية في الدراسات التحليلية النفسية للأطفال.

مراجع

- Kris: The Psychology of Caricature. (1937)

: On Preconscious Mental Processes. (1950)

: Ego Psychology and Interpretation in Psychoanalytic Therapy. (1951)

: Some Comments and Observations on Early Autoerotic Activities. (1951)

: Psychoanalytic Explorations in Art. (1952)

: Psychoanalytic and the Study of Creative Imagination. (1953)

: New Contributions to the Study of Freud's «The Interpretation of Dreams»: A Critical Study. (1954)

: The Origins of Psychoanalysis: (1954)

: Neutralization and Sublimation: Observation on Young Children. (1955)

:The Personal Myth. (1956)

❖ ❖ ❖

- الكف...

- **Inhibition (E.; F.)**

- **Hemmung (D.)...**

يتناول الكفّ وظائف الأنا، والضعف البسيط في إحدى الوظائف نوع من الكف أيضاً إلا أنه كفّ بسيط، فإذا صار الخلل الوظيفي كبيراً تحوّل الكف إلى عَرَض. ومن الوظائف التي يشملها الكف الوظيفة الجنسية، والوظيفة الغذائية، ومن ذلك أن كف الوظيفة الجنسية قد يكون مجرد عزوف بسيط أو ممارسة غير كاملة للعملية الجنسية، وقد يتطوّر الكف الحركة في بعض الاضطرابات العصابية، بانعدام الرغبة في المشي مثلاً، وفي الحالات الهيستيرية قد تتعطّل الحركة ويُصاب الجسم بالشلل. وقد يظهر الكف في الأعمال المهنية في شكل التواني عن الأداء، أو في الإنجاز السيء، أو السأم والملل وانخفاض مستوى الإنتاج، أو الكلل والتعب، وقد تتعطل الأعضاء المتصلة بالعمل كما في عُقال الكاتب أو الخيّاطة أو عازف الموسيقى، فكلما هَمّ بالعمل لم تسعفه يده، في حين أنها في الشؤون غير العمل تقوم بوظائفها. وهناك الكثير من الوظائف التي قد يتناولها الكف وتتباين الميكانيزمات التي تستخدم لاستحداثه، وتتباين أهدافها. ومن ظواهر الكف العصبي مثلاً أن بعض الأعضاء كالأصابع أو القدم، قد تزيد بها الحساسية الجنسية نتيجة زيادة غير متوائمة لحصتها من الطاقة الجنسية فتضطرب وظائفها، ويشبه حالها حال الخادمة التي يستثيرهامخدوما جنسياً ويعقد معها علاقة من نوع ما، فتستنكف لذلك أن تقوم بعملها الأول، فحين تأخذ الكتابة - وقوامها إدرار سائل من القلم على صحيفة من الورق - حين تأخذ شكل الجماع وتصبح رمزاً له، أو حين يصبح المشي على الأرض رمزاً للوطء، ويعمق طابعه الشهوي وتتنامى دلالته الجنسية وكأنه وطء لجسد الأرض الأم، يتدخل الأنا فوراً فيكفّ المشي أو الكتابة، لأنهما تجاوزا الهدف منهما وصارا وسيلة لإشباعات محرّمة، وتعدّل بهما الأداء الوظيفي لأداء جنسي محظور، وينشّط

الأنا للقيام بوظيفة الكف حتى لا يضطر للدخول في صراع مع الهو، بأن يبذل جهداً إضافياً في كبت النوازع والدفعات اللاشعورية، وبالمثل قد يحدث أن يمارس الأنا الكف ليتجنّب أية صراعات مع الأنا الأعلى.

وهناك حالات من الكف يستخدم فيها الأنا ميكانيزمات مغايرة وأكثر بساطة من السابقة، ويبدو فيها كالمضارب الذي جمد رساميله في عدد من الاستثمارات، فلم يعد لديه ما ينفقه أكثر من ذلك، ففي حالات الحزن مثلاً، أو القمع الشديد للحالات الوجدانية، أو كبح التخيلات الجنسية الجامحة، قد يبدو الأنا وكأن الطاقة تعوزه ويعاني من الإفقار فيها بسبب توزّع استهلاكها، ويبدو الكف وكأنه نتيجة لهذا العوز، ومن ذلك حالة شاب مريض بالعصاب القهري، فكلما واجهته مشاكل كان يمكن أن تستثير هياجه وغضبه، فإنه يصاب بتعب شديد يلحقه منه شلل يدوم به لمدة يوم أو بضعة أيام. واختصاراً فإن الكف من شأنه أن يحدّ من وظائف الأنا، إما بسبب ضعف طاقة الأنا، أو من باب الاحتياط والاحتراز.

(أنظر أيضاً كفّ الهدف).

مراجع

- Freud: Inhibition, Symptom and Anxiety. (1929)

❖ ❖ ❖

– الكف والعرض والقلق...

- Inhibition, Syptom and Anxiety (E.);...

-Inhibition, Symptôme et Angoisse (F.);...

- Hemmung, Symptom und Angst (D.)...

نشر فرويد كتابه «الكفّ والعَرَض والقلق» في فبراير سنة ١٩٢٦، ويتناول فيه الموضوعات التي يتضمنها عنوانه باستفاضة، ويراجع فيه نفسه ويكتب من وجهة نظر جديدة تماماً عن القلق بالذات، ويطرح بشأنه نظرية تناقش

نظريته السابقة فيه. ويرى النقاد في الكتاب إنه إسهام كلينيكي هام، ويعدّه بعضهم أهم إسهامات فرويد التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى. وأسلوب فرويد فيه إستطرادي، ويبدو فيه كما لو كان يناقش نفسه ويستوضحها أموراً، ولا يميل فيه إلى العرض، وما يطرحه لا يبدو أنه قد اقتنع إزاءه تماماً، ويعتذر عن التعديل الكثير والتغيير لآرائه بسبب جدة التحليل النفسي، وبالنظر إلى ما تقضيه البحوث والملاحظات والبيانات التي تتوفر له بين كل آن وآخر. وإذا كانت بعض هذه التعديلات لا يعدو في الحقيقة أن يكون إضافات، إلا أن البعض كان بمثابة التغيير الكامل، ومنه نظريته في القلق والتي يعرضها في كتابه هذا. وفي نظريته القديمة لم يستطع أن يدرك العلاقة بين القلق العصابي والقلق الموضوعي، وبدا قوله فيهما متناقضاً، وفي نظريته الجديدة، توصل إلى حلّ ذلك الإشكال وردّهما معاً إلى الخطر الذي يستشعره الأنا، خطراً خارجياً في حالة القلق الموضوعي، وخطراً داخلياً غريزياً في حالة القلق العصابي. وفي النظرية القديمة يذكر فرويد أن الكبت يحدِث القلق، وفي النظرية الجديدة يبرهن على أن القلق هو الذي يُحدِث الكبت،ويكون للقلق من ثم الدور الرئيسي في الإصابة بالاضطرابات العصابية، ويتحول الكبت إلى مجرد وسيلة دفاع.

مراجع

- Eidelberg, L.: An Outline of a Comparative Pathology of the Neuroses. (1954)

❖ ❖ ❖

–كفّ الهدف...

- **Aim -inhibition (E.);...**
- **Inhibition du but (F.);...**
- **Zielshemmung (D.)...**

يُقال إن علاقة ما قد كُفّ هدفها إذا لم يكن لصاحبها أي إهتمام شهوي في الطرف الآخر من العلاقة،كما في

علاقات الصداقة والحب الأفلاطوني المفنزّه عن الغرض الجنسي، والعواطف العائلية التي فيها التراحم والتواد. ويفترض هذا المفهوم أنه في غياب الكفّ، فإن الصداقة تنقلب إلى جنسية مثلية مكشوفة، ويصبح الحب الأفلاطوني حباً جنسياً، ويتحول حب الأقارب إلى شبق أنوي للمحارم.

وكما يقول فرويد فإن كل دافع غريزي يتطلّب الإشباع، إلا أن الأنا والأنا الأعلى يسمحان بهذا الإشباع إلى ما قبل تحقيق الهدف النهائي. ويفرّق بعض المحلّلين بين إفراغ الطاقة الشهوية (مثلاً الأكل) وبين الموضوع الخارجي (الطعام). وبرغم أن مشاعر الحنان والأخلاق الاجتماعية الكريمة لها طابع جنسي وتشتق من الدافع الجنسي، إلا أنها لا تتوقف بالضرورة في إشباعها على الحاجة الأصلية. والدوافع المكفوفة الهدف لا تتبع النمط الذي للدوافع الجنسية من حيث بنائها وتصريفها، فالدوافع المكفوفة الهدف تنبني ببطء ولا تتطلب التصريف السريع، وإنما تنشد الاستمرارية وطول الأمد، فالحنان ليس مسألة تُقضَى وتنتهي ولكنه أمر يستمر أبداً. وليس في الدوافع المكبوتة الهدف تراوحات سريعة في التوتر. وحتى الغرائز التدميرية قد يتناولها الكفّ، فمثلاً السخرية قد تكون تعبيراً عن رغبات عدوانية، وقد تكون من مخلفات الطور الفموي من الأطوار النفسية الجنسية، وقد تتمثل مادياً في الرغبة في العض والقضم والنهش والبلع، إلا أنها تُكَفّ هدفياً وتصبح مجرّد سخرية كلامية.

والكفّ من هذا النوع ليس تسامياً بالدوافع، لأنه في التسامي تتخلّى الدوافع الجنسية مثلاً عن أهدافها، أما في الكفّ فإن المقاومات الداخلية تحول بين الدافع والهدف الذي يسعي إليه، ويكفي في ذلك الاقتراب المحدود من الهدف. ويقول فرويد إن الكف عن الهدف قد يكون بداية للتسامي ولكنه ليس التسامي. (أنظر التسامي).

مراجع

- Freud: Psychoanalysis and the theory of the Libido. (1923)

❖ ❖ ❖

- كلاين، ميلاني...

- Klein, Melanie...

(١٨٨٢ - ١٩٦٠) مارست التحليل النفسي ضمن الفئة التي كان يُطلق عليها إسم «المحلّلين العلمانيين Lay analysts»، أي غير المؤهلين طبياً. وربما كانت ميلاني أشهر من مارس التحليل النفسي من هذه الفئة، وخاصة من بنات جنسها، وكانت بحوثها رائدة ومحل إعجاب من الكثيرين، وطبعت طريقتها التحليل النفسي في بريطانيا وصارت لها مدرسة فيه. ولعلّ بحوثها والنتائج التي توصلت إليها كانت مصدراً للكثير من الإزعاج لفرويد، وكانت قد قرأت له وهي غير المتخصّصة فانصرفت بكليتها إليه، وتتلمذت على ساندور فيرينزي وكارل أبراهام، ودعاها إرنست جونز لإلقاء محاضرات في التحليل النفسي للأطفال، وهو الفرع الذي تفرغت له وأبدعت فيه، واستقرّت في لندن إبتداءً من سنة ١٩٢٦، وتقوم طريقتها على استبدال التداعي الحر عند البالغين والذي قال به فرويد، باللعب الحر عند الأطفال. وتركز ميلاني على مراقبة الطفل وهو يختار ألعابه وطريقته في التعامل مع الدمى، وفي تصريفه لقلقه، وفي تعبيره عن دخائله من خلال ألعابه الإيهامية وطرحه لتخيّلاته، وتبيّن لها من خبرتها الكلينيكية عدم صواب الكثير من نتائج فرويد، فقالت إن الطفل في السن أقل من ثلاث سنوات يمكن أن ينمو لديه أنا أعلى قوي، في حين كان فرويد يقول إن الأنا الأعلى لا يكون للأطفال الأقل من خمس سنوات، وأن عقدة أوديب يمكن أن تترتب للأطفال أقل من سن الثالثة، على عكس فرويد أيضاً الذي قال إنه لا أقل من سن الرابعة أو الثالثة لتكون للطفل هذه العقدة. وأكدت ميلاني أكثر من فرويد على دور التنشئة على العنف والقسوة في تكوين إتجاهات الطفل وتكوينه النفسي.

مراجع

Analysis - Klein M.: The Technique of of Young Children. (1924)

: Psyhchoanalysis of the Child. (1932)

: The Psychoanalysis of Children. (1937)

: Contributions to the Theory of Anxiety and Guilt. (1948)

: Envy and Gratitude. A Study of Unconscious Sources.(1957)

: On the Development of Mental Functioning (1958)

❖ ❖ ❖

- ل -

حرف اللام

– اللاإرادة...

- Abulia; Aboulia (E.);...

- Aboulie (F., D.)...

خمول الإرادة أو عجزها، أو فقدانها، وعادة ما تكون الرغبة والنية على العمل قائمة ولكن الإرادة مفتقدة، والعزم واهن، والمريض باللاإرادة يكون كالمسيّر، حركته أوتوماتية. وعملياً لا توجد لا إرادة وإنما نقص في الإرادة. والشخص الموصوف باللاإرادة سلوكه ردود فعل تخلو من المبادأة، ويعجز عن السيطرة على تفكيره. ويصف فرويد الإرادة فقال إنها تعطل يلحق بالإرادة بسبب خبرات صدمة. والإصابة باللاإرادة نادرة والاصطلاح نادراً ما يستخدم لذلك في مجال التحليل النفسي اليوم، ولا نجد هذا الاضطراب إلا عند المصابين بالفُصام، وعدَّه بلويلر من الأعراض الفصامية. والنوع الخفيف من اللاإرادة والذي يُقال له تعطّل الإرادة Hypobulia هو الأكثر شيوعاً. وميّز بيير جانيه بين ثلاثة أنواع من اللاإرادة الموضعة A. Localisée، أي التي تكون في مواقف دون مواقف، والثالثة اللاإرادة المعمّمة a.généralisée ، أي الشاملة لكل الواقف.

وهناك أيضاً اللاإرادة الاجتماعية Social a.، وهي نوع من السلبية أو اللافعل الاجتماعي نتيجة عجز عن اتخاذ القرار أو تكوين خطة عمل، وقد تكون هناك الرغبة في التفاعل مع البيئة، لكنها رغبة لا ترقى إلى التنفيذ وينقصها القوة والعزم على العمل.

مراجع

- Freud & Breuer: Studies on Hysteria.(1895)

❖ ❖ ❖

– اللاشعور...

- The Unconscious (E.);...

- L'Inconscient (F.);...

- Das Unbewuste (D.);...

تقوم الفرضية الأساسية للتحليل النفسي على التمييز بين ما هو شعوري وما هو لا شعوري، وبدون هذا التمييز لا يمكن بأي حال من الأحوال فهم مجريات الأمور في العمليات النفسية المرضية. ولا يعود فضل اكتشاف اللاشعور إلى فرويد فقد سبقه إلى ذلك آخرون في مجال الفلسفة وفي مجال علم النفس، إلا أن إعادة إكتشاف فرويد له كان في المجال الكلينيكي والعلاجي وهذا هو إسهامه. واللاشعور الفرويدي بالمعنى الوصفي هو كل ما ليس شعورياً، وبالمعنى الدينامي فقد أثبت التحليل النفسي أن محتويات العقل لا تقبل الاختزال إلى الشعور الخالص، وأن بعضها لا يمكن الشعور به إلا بعد التغلّب على بعض المقاومات، وأن الجزء غير المشعور به له من الفاعلية ما يتسبّب عنه ظهور الأعراض المرضية النفسية. وبالمعنى الطبوغرافي فقد ثبت أن اللاشعور يشكّل حيّزاً يتعين علينا أن نتصوّره باعتباره نظاماً له محتوياته وطاقته الخاصة به وعملياته الأوّلية. ومحتويات اللاشعور بعضها أولي مكبوت، وبعضها مكبوت يجهد في العودة إلى اللاشعور (عودة المكبوت)، ولكنها لكي تفعل ذلك لا بدّ أن تنفذ أولاً إلى ما قبل الشعور لكي تصبح بعد ذلك شعورية، ولا يتيسر لها ذلك إلا في ردود فعل تسوية بعد خضوعها للرقابة، وبعضها رغبات طفولة تثبتت في اللاشعور.

ولا يقتصر اللاشعوري على العمليات الغريزية التي مصدرها الهو، ولكن بعض الأنا لاشعوري أيضاً، وكذلك الأنا الأعلى. وما هو أدنى في الأنا يمكن أن يصبح لاشعورياً، وكذلك ما هو أسمى كما في عمليات النقد وتأنيب الضمير، وهي عمليات لها قدرها العالي من أنواع النشاط النفسي وتتم لاشعورياً، ولها مردودها اللاشعوري كذلك. وتتم عمليات التسامي عن طريق الأنا لاشعورياً، وتكمن وراء نشأة الأنا الأعلى عمليات لاشعورية أوديبية، ومتعلّقات لاشعورية من تطوّرات وتغيّرات مرّ بها النوع الإنساني، وخبرات تشكّل نواة اللاشعور وتتكوّن منها أغوار الحياة العقلية.

ويعتبر فرويد الأحلام الطريق الملكي لاكتشاف اللاشعور، ومن خلال دراسة الأحلام إكتشف عمليات الإزاحة

والتكثيف والترميز، وهي أساس التكوينات اللاشعورية من مثل الهفوات وزلاّت اللسان، والتي تتعادل مع الأعراض من حيث أنها تحقيق للرغبات وتكوينات تتوسط بين القصد الشعوري وبين المكبوت اللاشعوري. وفي اللاشعور تجتمع الأضداد والمتناقضات بلا منطق. وتعطينا دراسة عمل الأحلام مثلاً رائعاً للطريقة التي بها تندفع المادة اللاشعورية من الهو، سواء كانت هذه المادة في الأصل لاشعورية، أو أصبحت لاشعورية بالكبت، إلى الأنا فتصبح قبل شعوري، ثم تحدث فيها بفعل الأنا تلك التعديلات التي نسميها تحريف الحلم، وعلى هذا الأساس يمكن تفسير جميع تفاصيل الحلم. ويؤدّي المحلّل النفسي للمريض أحسن خدمة إذا ما استطاع أن يحول المادة اللاشعورية المكبوتة إلى مادة موجودة قبل الشعور.

ويذهب فرويد إلى أن الأفكار تكون لاشعورية طالما مادتها غير معروفة. فإذا ارتبطت الفكرة بالصور اللفظية المطابقة لها صارت قبل شعورية، وهذه الصور اللفظية كانت في وقت ما إدراكات حسيّة وتحوّلت إلى آثار في الذاكرة، وتستطيع من ثم كأي شيء في الذاكرة أن تكون شعورية مرة أخرى. وكل شيء كان إدراكاً حسيّاً شعورياً هو وحده الذي يستطيع أن يصبح شعورياً، وأي شيء يأتي من اللاشعور ويحاول أن يصبح شعورياً يجب أن يتحوّل أولاً إلى إدراكات حسيّة بفضل الآثار الباقية في الذاكرة، فيما عدا المشاعر الوجدانية التي يمكن أن تنفذ إلى الشعور مباشرة، أي أنها إما أن تكون لاشعورية أو شعورية ولا تكون قبل شعورية، وهذا هو الفرق بينها وبين الأفكار اللاشعورية التي يتحتم أن تكون قبل شعورية قبل أن تصبح شعورية. وحتى لو اتصلت المشاعر الوجدانية بالصور اللفظية فإن ظهورها في الشعور لا يتوقف على ذلك، بل تستطيع أن تظهر في الشعور مباشرة.

مراجع

- Freud: A Note on the Unconscious in Psycho-analysis . (!912)

: The Uconscious. (1915)

: The Ego and the Id. (1923)

❖ ❖ ❖

– «اللجنة»...

- «The Committee» (E.);...
- «Le Comité» (F.);...
- «Das Komitee» (D.);...

جماعة التحليل النفسي التي تألفت إثر ما تعرّضت له حركة التحليل النفسي من نقد شديد وهجوم من خصومها في الصحف اليومية والمحافل العلمية، الأمر الذي جعل بعض أنصار فرويد يفكرون في تكوين ما أطلقوا عليه إسم «الحرس القديم» أو «الحرس الإمبراطوري»، بمعنى الفريق المدافع عن تقاليد التحليل النفسي الفرويدي، والمنوط به الحفاظ على التراث الأساسي، والرد على النقاد، وترسيخ المفاهيم السليمة والترويج لمبادىء التحليل النفسي والدعاية لها. وكانت سمعة فرويد وأتباعه وقتها قد بلغت الحضيض، وكان مجرد ذِكْر اسم فرويد يصيب الناس بالحساسية، وقالوا فيه وفي جماعته إنهم مهووسون بالجنس ولا يتبينون في أي عمل إلا أقذر جانب من جوانبه، وأنهم منحرفون جنسياً وسيكوباتيون، ودعاة انحلال، وأن مؤلفات فرويد لا تعدو أن تكون كتابات فاضحة وينبغي محاكمته بسببها وإيداعه السجن. وطالب الكثيرون بمقاطعة فرويد وجمعيات التحليل النفسي، ومصادرة مؤلفاتهم، وأطلقوا على مبادىء التحليل النفسي إسم علم النفس اليهودي، وأُحرقت كتب فرويد في برلين، واضطُهد علماء لتحليل النفسي، وتتابعت الإستقالات بسبب ذلك من جمعيات التحليل النفسي، ومن ذلك استقالة أدلر، وشتيكل، وباخ، وماداي، وبارون هاي، وفورت موللر، وفرانز جرونر، وجوستاف جرونر، وهيلفير دينج، وبول كليمبيرور، وأوبينهايم. وانضمّ جرانفيل ستنلي هول إلى أدلر في الدعوة لإنقاذ العالم من وهدة الجنس التي أبلغه إياها فرويد ومؤلفاته. وكانت الطامة الكبرى إستقالة يونج الذي كان محطّ آمال فرويد.

وجاءت فكرة تكوين اللجنة، كما ورد اسمها، بناء على كل ما سبق. وكان فيرينزي هو أول من ذهب تفكيره إليها، إلا أنه كان يرى تأليفها من الثقات من الجيل الأول من المحلّلين النفسيين،أي

جيل المحافظين، وأن يوفدهم فرويد إلى أركان المعمورة كجبهة متقدمة، مهمتها الإنذار، وأيضاً مهمتها الدعوة. وكان يرى أن يلتزم أعضاء هذه اللجنة بقَسَم، بأن لا يروا في أي أمر من الأمور رأيهم المستقل إلا بعد مناقشة مستفيضة مع فرويد نفسه. وأعجبت الفكرة إرنست جونز، وكانت كما يقول فرويد فكرة رومانسية ثم إنها من صميم التراث اليهودي. ولسوف نرى هذا التراث يتمثّل في اختياره للعدد سبعة الذي رأى أن يكون عليه أعضاء اللجنة، واختار لها فيرينزي، وأبراهام، وإرنست جونز، وساخس، ورانك، وفريند (ولما مات هذا الأخير إستبدله بآيتنجون)، وهؤلاء ستة يرأسهم فرويد فيصير العدد سبعة، وهو العدد المبروك الذي تقول به القبالا اليهودية، وجعل لهم خاتماً خاصاً يميّزهم، به نقش غائر لرأس جوبيتر كبير الآلهة، على معنى أن هؤلاء هم الكبراء والسدنة، وترتيبهم في اللجنة هو الترتيب السابق بحسب السن. واللجنة سرية، وكان تأليفها قبل الحرب العالمية الأولى إلا أنها لم تمارس مهامها العلمية والإدارية إلا بعد الحرب، وكتب فرويد إلى آيتنجون يقول إنه يمكن أن يموت الآن مطمئناً، وأن اعتقاده أن ما بناه لن يؤول إلى الزوال.

ولقد استمرّ عمل هذه اللجنة مدة عشر سنوات، إلى أن اندثرت بالتدريج، إما لأن الانشقاق غزا أفرادها كما حدث مع فيرينزي، وإما بموت البعض، أو باختيار بعضهم للنفي والعزلة كما حدث مع آيتنجون.

مراجع

- Jones, E.: The Life and Work of Sigmund Freud. (1953)

❖ ❖ ❖

– «لماذا الحرب؟»...

- «Why War?» (E.);...
- «Pourquoi la Guerre?» (F.);...
- «Warum Krieg?» (D.)...

هذا المقال صدر أول ما صدر سنة

١٩٣٣ باعتباره خطاباً مفتوحاً من فرويد إلى عالم النسبية الأشهر ألبرت آينشتاين، ضمن سلسلة خطابات من هذا النوع تبادلها عدد من المفكرين حول المشاكل الساعة، واشرف على تنظيمها المعهد الدولي للتعاون الفكري تحت رعاية عصبة الأمم. وكان خطاب آينشتاين إلى فرويد مقتضباً حول الحرب وأضرارها وتوقعاتها، وما يمكن أن تفعله البشرية لمنعها. وعندما عرضوا على فرويد أن يشارك في هذا النقاش العلني رحَّب أن تتم مطارحة الأفكار بينه كعالم نفس وبين آينشتاين كعالم طبيعة، باعتبار أن المسألة موضوع النقاش سيكون تناولها من زاويتين، وهذا إثراء لا شك للآراء حولها. غير أن اختيار آينشتاين لموضوع الحرب كان مفاجأة لفرويد، وكان من الواضح أن آينشتاين كان يقف من فرويد كأنه التلميذ، وقد كان كذلك بالفعل، وعرف آينشتاين فرويد بدءاً من سنة ١٩٢٦ عندما رضى أن يزوره في بيته، ثم تبادلا الخطابات وأبدى في مرات كثيرة إعجابه بفرويد وإن كان قد اعتذر بأنه لم يقرأ له كثيراً، وعاب عليه فرويد ذلك، فكيف يتسنى أن يعجب به وهو لم يقرأ له بما فيه الفاية؟ وقد ذكر فرويد في أحد خطاباته رداً على آينشتاين أن هناك فارقاً كبيراً في السن بينهما حتى أنه ليعتبره فعلاً من تلاميذه، وإن كانت معرفته بعلم النفس كمعرفة فرويد بعلم الفيزياء.

ويذكر فرويد لآينشتاين أن مسألة الحروب بين البشر مسألة طبيعية، لأنه بحسب نظرية الغرائز التي يقول بها فرويد فإن العدوان غريزة في الإنسان. ولكن المشكلة هي في العلاقة التي ينبغي أن تقوم بين الحق والقوة، والقوة تعني العدوان والعنف، وقد أثبت تاريخ الإنسانية أن كلاهما قد تولّد من الآخر، فالمبدأ العام أن صراعات المصالح لا تسوّى إلا بالعنف، وحتى صراعات الرأى قد تتطلب القوة لتساندها، وكانت القوة المستخدمة في أول الأمر هي القوة العضلية، واستعيض عنها بقوة السلاح، ثم حلّت القوة العقلية محل القوة الغاشمة، إلا أن الغرض النهائي من الاقتتال أو الاصطراع بقي كما هو، وهو إجبار طرف على أن يتخلى عن طلبه أو

اعتراضه لطرف آخر. إذن فالأساس كان دائماً هو سيطرة من يملك القوة الأكبر، سواء بالعنف الغاشم أو العنف الذي يعزّزه العقل، وتبدّلت هذه القاعدة بالارتقاء، فالعنف أدّى إلى اتحاد الضعفاء أمام الفرد القوي، وأصبحت قوة الذين اتحدوا هي القانون، واتخذت الجماعة العنف أيضاً ليساند القانون، وكان العنف هذه المرة هو عنف الجماعة لا عنف الفرد، وكان لا بد للجماعة كي تسود وتستمر أن ترتبط فيما بينها برباط عاطفي قوي، وكان المفروض أن تقوم الجماعة على فكرة التكافؤ بين أفرادها، إلا أن ذلك كان متصوّراً فقط من الناحية النظرية، وأما من الناحية العملية فإن الجماعة تتألف من صغار وكبار، ورجال ونساء، وآباء وأبناء، فكانت درجات السلطة متفاوتة لذلك، وانعكست على العدالة، ووضعت القوانين من أجل الحاكمين، ومن ذلك الوقت صار هناك مصدران لعدم الاستقرار، الأول أن الحاكم يبذل أقصى ما يستطيع ليضع نفسه فوق القانون وبذلك يخرج من العدالة إلى دائرة العنف، والثاني أن بعض أعضاء الجماعة قد لا يعجبهم ذلك ويسعون للمزيد من التغييرات من أجل عدالة متساوية للجميع، ويحدث التصادم الحتمي والتمرّد والحروب الأهلية والمحاولات الجديدة من أجل حلول تتم بالعنف لإقامة حكم قانون جديد، ولا يبدو أن هناك نجاة من العنف سوى بالتحوّل الثقافي لأعضاء الجماعة.

وكان آينشتاين قد اقترح في خطابه أنه لا سبيل إلى التخلّص من الحرب إلا إذا اتحدت الإنسانية في جهودها لإقامة سلطة مركزية، يكون بيدها حق إصدار الحكم في كل الصراعات بين المصالح، ويعني ذلك إنشاء سلطة عليا وتزويدها بالقوة الضرورية. ويقول فرويد إن هذين المطلبين هما ما تصمم عليه عصبة الأمم ولن يتحقق لها ذلك إلا إذا صدقت نية الدول الأعضاء في التسليم لها بالمطلبين.

وكان آينشتاين قد أبدى انزعاجه من تحمّس الناس للحرب وسهولة إقناعهم بها، وتشكّك أنه ربما كانت هناك غريزة للكراهية أو التدمير تسهّل على مثيري الحروب عملهم، ووافقه فرويد باعتبار

نظريته في الغرائز التي تقسمها إلى مجموعتين، إحداهما غرائز تسعى للحفظ والتوحيد، وهي شبقية بالمعنى الأفلاطوني من شبق Eros، والأخرى تسعى للتدمير والقتل، وهي لذلك غرائز عدوانية. وتنشأ ظواهر الحياة عن عمل النوعين، فغريزة حفظ الذات مثلاً من النوع الشَبِق، لا بد أن تملك قدراً من العدوانية تحت تصرفها لتحقق غرضها. ويندر أن يكون هناك فعل نتيجة دافع غريزي واحد، وتشهد الحياة اليومية على وجود غريزة العدوان، ويسهّل عملها امتزاجها بدوافع أخرى من نوع شبقي. وتعمل هذه الغريزة داخل كل كائن حي وتستحق أن تُسمَّى غريزة موت، بينما الغرائز الشبقيَّة يتوجه كل جهدها من أجل الحياة. وتتوجه غريزة الموت إلى أن تكون غريزة تدميرية إذا كان هدفها خارجياً، وعن طريق التدمير الخارجي يحافظ كل فرد على حياته من أخطار الموضوعات الخارجية، ويظل قسم من غريزة الموت فاعلاً داخل الكائن الحي. والخلاصة أنه لا فائدة من محاولة التخلّص من الميول العدوانية، لأنها فطرية، وإنما يمكن تحويلها إلى الحد الذي لا تحتاج إلى التعبير عن نفسها بالحرب، فإذا كان الاستعداد للحرب من آثار الغريزة التدميرية، فإن أفضل خطة للنقيض تكون بتشجيع تنمية الروابط العاطفية بين البشر.

ويرى فرويد أن الناس بحكم التفاوت الفطري الذي يستعصي على الإزالة يميلون إلى الانخراط في فئتين، إما القادة وإما الأتباع، ومن ثم يمكن استغلال ذلك لتوجيه التربية لخلق فئة من القادة غير مستهدفة للإرهاب، وشغوفة بالبحوث العقلية، وتخضع حياته الغريزية لديكتاتورية العقل، حتى ولو لم يكن بينهم روابط عاطفية. ولقد مرت الإنسانية بعملية ارتقاء ثقافي ندين له بالحضارة الحالية، بفضل التسامي بالغرائز وخاصة الجنسية، وحتى لو كان في اضمحلال الغرائز نهاية للجنس البشري حيث المشاهَد أن الشعوب الأقل رقياً أكثر خصوبة من الشعوب الأكثر رقياً. والثقافة تقوم على إزاحة وتغيير الأهداف والدوافع الغريزية. ومن ثم فإن الخصائص السيكولوجية للثقافة تقوية

العقل الذي يتحكم في الحياة الغريزية، ومن ثم فإن الموقف النفسي الذي تفرضه العملية الثقافية يتعارض مع الحرب، ويتمرّد المفكرون لهذا السبب على الحرب ويرفضونها رفضاً أساسياً وليس مجرد رفض فكري أو إنفعالي، وإذا كان هناك ما يمكن أن يمنع الحروب حقاً فهو استمرار تدعيم نمو الثقافة.

❖ ❖ ❖

- الليبدو...

- Libido (E.; F.; D.)...

(أنظر نظرية الليبدو، والمراحل الليبدية)

❖ ❖ ❖

- ليوناردو داڤينشي وذكرى من طفولته»...

- «Leonardo da Vinci and a Memory of his Childhood:(E.);...
- «Un Souvenir d'Enfance de Leonardo de Vinci» (F.);...
- «Eine Kindheitserinnerung des Leonardo da Vinci» (D.);...

هذا الكتاب أصدره فرويد سنة ١٩١٠، وهو من مؤلفاته التي حاول فيها أن يطبق نظريته في التحليل النفسي، وأن يأتي تطبيقها على شخصيات في ضخامة ليوناردو داڤنشي فنان عصر النهضة الأعظم، أو في عظمة النبي موسى (عليه السلام) الذي جعله موضوعاً لآخر مؤلفاته «موسى والتوحيد» ونشره سنة ١٩٣٩ قبل وفاته مباشرة. وإذا كان كتابه عن موسى لم يُقابَل بالاستحسان بالنظر إلى آرائه فيه في أصل الأديان وأصل الديانة اليهودية، وتهجّمه السافر على المسيحية والإسلام، فإن كتابه عن ليوناردو قوبل كذلك بالاستهجان، فقد اعتمد فرويد فيه على ترجمات خاطئة بنى عليها تحليله النفسي لشخصية ليوناردو، واعتسف في تحليله بأن غصب حياة ليونارد داخل إطار نظريته، وجعل

سيرة هذا الفنان الكبير مجال تجربة لتطبيق نظرياته في الجنس والمكبوت، وفي التطوّرات النفسية الجنسية ومراحلها والتثبت على بعضها. واعتُبر الكتاب من المؤلفات المحظورة، حتى أن دار نشر كيجان بول التي تولّت نشر ترجمته في بريطانيا منعت بيعه إلا لطلبة الطب والأطباء. وشدّدت في حظر بيعه للفنانين حتى لا يعديهم السلوك الشاذ لليوناردو كما عرضه فرويد. والكتاب دراسة في السلوك الجنسي الشاذ، وهو بهذه الصفة من كُتب البورنجرافيا أو الأدب الفاضح التي تسعى الشرطة إلى مصادرتها وجمعها من الأسواق. وكانت دار كيجان بول تخفي نسخ الكتاب من الشرطة، ومع ذلك ومن وجهة النظر التحليلية فإن الكتاب كان ناجحاً ونموذجاً ممتازاً لتطبيق التحليل النفسي في مجال السيرة، على عكس كتاب «موسى والتوحيد» الذي أعدَّه تطبيقاً سيئاً للغاية.

ويعود تاريخ اهتمام فرويد بليوناردو إلى فترة صداقته بفليس، فلقد كتب إليه سنة ١٨٩٨ يبدي إعجابه به كمحلل نفسي من منطلق أنه لم يُعرف عنه الدخول في علاقات نسائية من أي نوع. ويبدو أن فرويد إستشعر استهجان القرّاء لكتابه مقدماً من حيث أن الكتابة عن فنان مشهور كليوناردو من منظور جنسي من شأنه الحطّ من قيمة ليوناردو، ولذلك خصّص الفصل السادس للدفاع عن نفسه وعن وجهة نظره. والشيء نفسه إستحدثه فرويد عند الكتابة عن النبي موسى، فقد كان يبدو شاذاً من محلّل نفسي يهودي أن يتناول قصة نبيّه بالطريقة التي تناولها بها في الجزء الأول من الكتاب، فراح يدافع عن نفسه ويعتذر بمكتشفات التحليل النفسي. والمشكلة عند الكثيرين أن فرويد يدرج ليوناردو تقريباً ضمن المرضى بعصاب الوسواس، ويُقارن أبحاث ليوناردو بشواغل العصابيين القهريين، وينسب إليه أنه مصاب بما يسمى الأبوليا أو فقدان الإرادة، كما لو أن حالة ليوناردو كفنان هي حالة هاملت نفسها، الشخصية المشهورة لشكسبير، وكان ليوناردو في فترة من حياته قيل إنه لم يكن يكمل فيها أعماله، وكان يتركها ناقصة، أو يتركها لفترات طويلة يعود إليها لماماً. ويقصد

فرويد بذلك أن ليوناردو كان مصاباً بالكفّ، وأن هذا الكفّ شمل حياته الجنسية والفنية معاً، وينسب ذلك إلى تأثير الطفولة التي عاشها محروماً من أبيه، وفي كنف أم أعطته من حنانها وعوضته عن أبيه الذي كان منفصلاً عنه بدعوى أنه إبن غير شرعي. ولفرويد نظريته في التنشئة الوالدية والتعيّن بالوالدين وعقدة أوديب وفترة التكوين التي تمتد بعد الخامسة، ويصف فرويد حياة ليوناردو في الطفولة بأنها كانت حافلة بالنضج الجنسي المبكر من جرّاء المحبة والغواية اللتين أحاطته أمه بهما، ولذلك اتسمت بحوثه المبكرة في الطفولة باتجاهاتها الشبقية المتمثلة في غريزة العرفة وحب الاستطلاع القوي، وأصبحت منطقة الفم عنده منطقة مشحونة شبقياً نتيجة لقبلات أُمه. وفي هذه الفترة لم تنقصه بعض الصفات السادية القوية كما ظهر في سلوكه العكسي وحنانه البالغ على الحيوانات، وانتهت طفولته بالكبت واجتناب أي نشاط شبقي مما جعله يعيش في عفة تامة، الأمر الذي جعل النقاد يصفونه بأنه لم يكن جنسياً. وبالنظر إلى ميوله المبكرة مع ذلك للجنس، فقد استطاع أن يتجنب الآثار المدمرة للبت بتسامي جزء من غريزته الجنسية إلى التعطش للمعرفة، واتجه اتجاهاً جنسياً مثلياً لأنه كبت حبه لأمه، وظهر ذلك في حبه للأولاد الصغار، وتثبت لاشعوره على ذكرياته السعيدة مع أمه، وهكذا لعب الكبت والتسامي والتثبيت أدواراً حاسمة في تشكيل حياته الوجدانية والعقلية، وظهرت مواهبه كمصوّر ومثّال بتأثير الاستيقاظ المبكر لغريزة التنظّر إلى المرأة عارية في أولى سنوات عمره. ويذهب فرويد في تفسير النشاط الفني عموماً بربطه بالنشاط الغريزي خصوصاً، ويعتبر إنتاج الفنان منصرفاً لرغباته الجنسية، ولذلك كان ليوناردو كما يصفه مؤرخه ڤاساري يصدر فيما يُعبِّر من رؤوس النساء الضاحكات والصبية من ذوي الجمال الملحوظ عن أحاسيسه الجنسية الأولى. ويرد فرويد إبداعية ليوناردو إلى منافسته لأبيه، وكان في الفترة التي عاشها في كنف أبيه بعد أن استرده في نحو سن الخامسة من عمره تغلب عليه الرجولة. وإلى هذه

الفترة تنتسب الأعمال الفنية التي تتسم بالرجولة، ومن رأي فرويد أن الكبت التام للنشاط الجنسي الحقيقي لا يُهيىء أحسن الظروف للتسامي الجنسي الحقيقي، ولعلّه لذلك بدأ نشاط ليوناردو في الاضمحلال، وتباطأت قدرته على الحسم وأصبح يميل أكثر إلى التأمل والتبصر، وظهر ذلك في لوحته العشاء الأخير. وعندما كان في ذروة حياته ككهل حدث تحول جديد في حياته ونشطت محتويات عقله العميقة، وكان هذا النكوص في مصلحة فنه، إذ قابل المرأة التي ألهمته الموناليزا وأيقظت فيه ذكرى ابتسامة أمه، وتحت تأثير هذه الذكرى استعاد الثقة الدافقة التي كانت تدفعه في بداية حياته لاستلهام النساء الباسمات كنموذج، واستطاع بفضل نزعاته الشبقية أن ينتصر على نفسه وعلى تردّده، وأن يستعيد قدراته الفنية ويرسم شخصيات كالموناليزا والقديسة حنّه وغيرهما. ويبدو من تحليل لوحة الجماع لليوناردو أنه كان يشمئز من الجنس الصريح، وفي ذلك يقول صراحة إن عملية الإنجاب وكل ما يتصل به لا تثير فيه أية أحاسيس جمالية. ويحلّل فرويد حلماً كتب عنه ليوناردو ورأى فيه طيراً يهبط ويضرب بذيله على فمه. ورموز الحلم بطريقة فرويد تثبت أنه كانت به ميول إستجناسية، ولعله لهذا أحاط نفسه عندما اشتهر كفنان بعدد من الصبية كموديلات، وبعدد من التلاميذ الذين يتسمون بالجمال، وصحبه أحدهم إلى فرنسا وظل معه حتى وفاته وصار وريثه. وينسب فرويد ذلك إلى رغبات جنسية مثلية كامنة لم تصل إلى العلاقة الجنسية الصريحة، وينسب ذلك إلى ضعف نزعة ليوناردو الجنسية عموماً، أو إلى التسامي بها. وسُمِّي ليوناردو فاوست إيطاليا لأنه استطاع أن يحوّل تعطشه الجنسي إلى تعطّش للمعرفة، وأن يرقى بغريزة الجنس فيجعلها غريزة إبداع فني. ويقول فرويد إن الكبت الجنسي له دوره هنا، وتتحول الغريزة الجنسية بالتسامي إلى حبٍّ للاستطلاع والبحث، ويصبح البحث قهرياً وبديلاً للنشاط الجنسي.

❖ ❖ ❖

- م -

حرف الميم

- ما دون الشعور...

- **Subconscious (E.);...**
- **Subconscient (F.);...**
- **Unterbewusste (D.)...**

إستخدم فرويد هذا المصطلح في كتاباته الأولى من مثل «بعض الاعتبارات من أجل دراسة مقارنة لحالات الشلل الحركي العضوي والهيستيري» (١٨٩٣) و«دراسات في الهيستيريا» (١٨٩٥)، وكان ذلك بالمشاركة مع بروير، ويقصد به العمليات النفسية التي تحدث على هامش الشعور أو التي تقع أدنى عتبة الشعور، ويرادف مصطلحه اللاحق «ما فوق الشعور» إلا أنه في كتابه «تأويل الأحلام» (١٩٠٠) رجع عن تقسيم الحياة الشعورية إلى «ما دون الشعور» وسما فوق الشعور Super-conscious» باعتبار أن هذا التقسيم الذي روّجت له المؤلفات الحديثة تلتبس به الأمور وتبدو كأنما قد جُعلت هذه التفرقة لتوكيد التعادل بين ما هو نفسي وما هو شعوري، وكأن الحياة النفسية هي حياة شعورية أساساً، والأمور فيها إما تحت الشعور أو فوق الشعور ولا شيء سوى ذلك. وتساءل في مقاله حول «مشكلة التحليل النفسي من غير الأطباء» (١٩٢٦) ما إذا كان المقصود بهذه التفرقة الناحية الطبوغرافية، أي أن هناك تقسيماً مكانياً في الجهاز النفسي للحياة الشعورية. ثم هو في «دراسات في الهيستيريا» ينبّه منذ البداية إلى أنه يستخدم «ما دون الشعور» بالمعنى المجازي فقط، وفي رأيه أن التفرقة الحقيقية لا ينبغي أن تنصرف إلى ما هو شعوري وما هو أدنى من الشعور، وإنما لما هو شعوري وما هو لاشعوري، فهذه هي التفرقة النوعية الوحيدة والممكنة، وهي التفرقة التي يقوم عليها الغرض الأساسي للتحليل النفسي.

مراجع

- Freud & Breuer: Some Points in a Comparative Study of Organic and Hysterical Paralysis . (1893)
: Studies on Hysteria (1895)
- Freud: The Question of Lay - analysis. (1926)

❖ ❖ ❖

- ماسوشية...

- **Masochism (E.);...**
- **Masochisme (F.);...**
- **Masochismus (D .)...**

أطلق كرافت إيبنج إسم الماسوشية على الانحراف الجنسي الذي يرتبط بالإذلال والعذاب والألم كوسيلة للإشباع. وإسم الماسوشية إشتقاق من إسم ماسوش أو مازوخ، وكان يجد اللذة في أن يُضرب ويُمتهن ويُجلد. ووسّع فرويد مفهوم الماسوشية باكتشاف أصولها الأوّلية الطفلية والتنبيه إلى أشكالها المشتقة كالماسوشية الخُلُقية.

والماسوشية لا تعني الألم الجسدي فقط ولكنها تشمل الألم المعنوي كذلك من خلال موقف الرضوخ والاستسلام. وهناك تخيلات ماسوشية. وتوصف الماسوشية بأنها نوع من النمو المرضي المفرط لعناصر النفسية الأنثوية، وهي الصورة السلبية للسادية. ويتضمن لفظ الماسوشية أي اتجاه سلبي نحو الحياة الجنسية والموضوع الجنسي، والحالة المتطرفة لها هي التي تتوقف فيها المتعة على التألم البدني أو النفسي الذي يتم على يد الموضوع الجنسي، وتبعد كانحراف عن الهدف الجنسي السوي أكثر من السادية. وبينما السادية اتحاد للغرائز الجنسية مع غرائز الهدم الموجهة نحو العالم الخارجي، فإن الماسوشية تنشأ عن اتحاد الغرائز الجنسية مع غرائز الهدم الموجهة ضد الذات.

ومع تغيّر رأي فرويد في الجهاز النفسي تغير رأيه في الماسوشية تغيّراً كبيراً، واضطر إلى أن يقول بماسوشية أوّلية أو شبقية نشأ عنها فيما بعد شكلان آخران هما الماسوشية الأنثوية والماسوشية الأخلاقية. وتتحوّل السادية عندما لا تجد ما تُمارس عليه في الحياة الواقعية نحو ذات الفرد نفسه وتصبح بذلك ماسوشية ثانوية تُضاف إلى الماسوشية الأوّلية. ويبين التحليل الكلينيكي للحالات المتطرفة للإنحراف الماسوشي أن عدداً كبيراً من العوامل مثل عقدة الخصاء والشعور بالذنب تتألف لتضخيم الاتجاه الجنسي السلبي

الأصلي وتثبيته. وتشغل الماسوشية والسادية مكانة خاصة بين الانحرافات لأن التضاد بين السلبية والإيجابية فيهما من خصائص الأنوثة والذكورة، وفي الفرد العادي يوجد الاتجاهان، والماسوشي قد يكون سادياً في الوقت نفسه بالرغم من أن الصورة السلبية للانحراف هي التي تكون أكثر نمواً عنده وتمثل نشاطه الجنسي السائد. وينسب فرويد القابلية للتنويم مغنطيسياً عن طريق العناصر الماسوشية في الفرد التي تجعله يصبح من الناحية النفسية ضعيفاً أمام المنوِّم (بكسر الواو المشددة) فيستسلم له. ويذهب فرويد إلى تفسير الأعراض في الأمراض العصابية إلى وجود الأجزاء الغريزية في الأغلب كأزواج من الأضداد، فكلما نشطت غريزة نشطت الغريزة المضادة، ويصاحب كل انحراف إيجابي مقابلة السلبي، وكل معاناة للدوافع السادية المكبوتة لا بد أن تواكبها أعراض صادرة عن ميول ماسوشية. ومنذ اعترافات جان جاك روسو تبيّن أن التنبيه المؤلم للردفين نتيجة ضرب الطفل عليهما هو أحد المصادر الشبقية لغريزة القسوة السلبية - أي الماسوشية. ويفترض فرويد أن العمليات الوجدانية الشديدة نسبياً تتداخل مع الجنس ومن ذلك الخوف الذي يعتري الأطفال ويكون سبباً لانبثاق الشواهد الجنسية عندهم، ويستمر ذلك عند الكثيرين طوال حياة الرُشد، ولعلّ ذلك يفسر سبب سعي بعض الراشدين لاستثارات من هذا النوع المخيف أو المرعب، كأن يحدث ذلك على المسرح أو في رواية مقروءة بالنظر إلى ما تولّده مشاهد الخوف والرعب من لذة قد تشبه لذة الاحتلام. ويتسبّب الخوف من العدوان الجنسي في إصابة بعض النسوة بحالة البرود الجنسي وهو رد فعل ماسوشي ويصدر عن رغبات ماسوشية مكبوتة، وكذلك العُنّة الجنسية هي إظهار للرغبات الماسوشية، والميكانيزم الماسوشي Masochistic mechanism هو طريقة يلجأ إليها الماسوشي ليستجلب على نفسه الهزيمة أو يدفع بالآخرين إلى أن ينزلوا به العقاب. وفي الماسوشية الخلقية Moral masochism يكون القبول بالهزيمة التي يتسبّب فيها الماسوشي ويأتيه منها الألم.

وتكون الماسوشية الأنثوية Feminine masochism بالذكور وهي تعيّن منهم بالإناث المستضعفين، وميولهم الماسوشية تدفعهم إلى مواقف يظهرون فيها بمظهر إستسلامي أنثوي. ويظهر الطبع الماسوشي في العلاج بالتحليل النفسي في شكل إستجابات سلبيّة تستعدي المحلّل على المريض. ويصرّ الماسوشي على أنه غير جدير بالاحترام ويظهر من التصرفات ما يدين به نفسه وينسب لنفسه كل النقائص.

مراجع

-Freud: Three Contributions to the Theory of Sexuality. (1905)

: The Economic Problem of Masochism. (1924)

❖ ❖ ❖

- « ما فوق مبدأ اللذة»...

- **«Beyond the Pleasure Principle » (E.);...**

- **«Au-delà du Principe de Plaisir» (F.);...**

- **Jenseits des Lustprinzips» (D.)...**

أصدر فرويد هذا الكتاب سنة ١٩٢٠ وكان وقتها في الرابعة والستين من عمره ويتوقع الموت، وكانت ابنته صوفي قد توفيت وران عليه بسبب ذلك كدر واكتئاب، ولذلك جاء هذا الكتاب أقرب إلى المؤلفات الفلسفية وإن كان قد حاول أن يبدو فيه علمياً أكثر من اللازم، والنتائج التي يتوصل إليها فيه عن مبادىء كمبدأ اللذة واللاّلذة، ومبدأ إجبار التكرار، ومبدأ الموت أو غريزة الموت، هي نتائج تأملية أكثر منها علمية، إلا أن فرويد حاول أن يثبتها علمياً واستعان في ذلك بالمستحدث في مجال علوم البيولوجيا والفيزياء. وكان في بداية حياته يريد أن يصوغ علم النفس صياغة علمية ويجعل منه علماً دقيقاً كالعلوم الفيزيائية، إلا أنه ابتعد كثيراً بنظرياته في التحليل النفسي إلى علم الطب أو أي من فروعه التجريبية، وأكد بإلحاح أنه

أقرب إلى علم النفس بالمعنى المتعارف عليه لهذا العلم. ويبدو من كتاب ما فوق مبدأ اللذة أن شُغْل فرويد الشاغل في تلك الفترة من حياته كانت هي فكرة الموت وغريزة الموت التي يقول بها في الكتاب، والتي يعقد لها النصر على كل الغرائز، وهي فكرة لها شواهدها في كافة مظاهر الحياة النباتية والحيوانية والجرثومية والفلكية. وفرويد في الكتاب يقترب منها حثيثاً، وفي الصفحات الأخيرة من الكتاب يكون اقتناعه بها شديداً. ولما أبدى إرنست جونز مؤرّخه شكّه إزاء هذه النتيجة التي توصل إيها تمنّى عليه فرويد أن يفكر فيما فكر فيه، عبر الطرق والممرات التي سار فيها، وأنه لا بد أن ينتهي إلى ما انتهى إليه. ويحكي جونز أن فرويد كان دائماً في توقع للموت، وأنه ما كان يسلّم مودعاً لأي صديق من أصدقائه إلا ويقول له: من يعلم ما إذا كنا سنلتقي ثانية؟ فلنودع بعضنا إذن الوداع الأخير!! والكتاب نفسه بعد صدوره كانت له ردود فعل متفاوتة، ولكن الغالبية من تلاميذه وافقوه على ما جاء به. ورصد جونز عدد المقالات التي ظهرت في نقد الكتاب فكانت نحو الخمسين مقالة، وكان التأييد لفرويد حتى سنة ١٩٣٠ نحو ٥٠٪، وتضاءل* هذا التأييد إلى ٣٠٪ حتى سنة ١٩٤٠، ثم لم تعد أي من المقالات التي تظهر بعد سنة ١٩٤٠ مؤيدة له على الإطلاق، وحتى تلاميذه من أمثال ميلاني كلاينت وكارل مينتجر وهيرمان نينبرج الذين ظلوا أوفياء لمصطلحات فرويد، ومنها مصطلح غريزة الموت، لم يكونوا يستخدمون له بالمعنى المجازي. وكانت هناك محاولات علمية مع ذلك لإثبات مكتشف فرويد هذا بالطرق العلمية من مجال البيولوجيا والفيزياء، وعقدت لذلك مشابهات بين غريزة الموت وقانون الإنتروبيا، وهو القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية، والذي يقضي بأن العالم في تضاؤل، وأن طاقته في انخفاض مستمر، وأن مصيره إلى الأفول أو الانطفاء.

ويتكوّن الكتاب من سبعة أبواب، وفي الأبواب الأولى يثبت فرويد أن وصف العمليات النفسية من النواحي الاقتصادية والمكانية والديناميكية هو أكمل الأوصاف التي يمكن أن يقدمها

التحليل النفسي، ويستحق تسميته بالوصف الميتاسيكولوجي، أي أنه وصف يتجاوز حدود علم النفس ويزيد عليها. ويستقي فرويد قوله بهذا الوصف من ربطه للعمليات النفسية بعضها البعض بمبدأ اللذة، بمعنى أن أية عملية نفسية مهما تختلف ظروفها لا بد أن تكون توتراً كريهاً مؤلماً، ولذلك فإن الجهاز النفسي يحاول دائماً أن يتنكب التوتر ويخفض منه، أي أنه يسلك بحيث يتجنب عدم اللذة ويحاول على العكس تحصيل اللذة. ويعقد فرويد مقارنة بين ما توصل إليه في ذلك وما توصل إليه عالم مثل فيخنر بقانونه المسمّى قانون الاستقرار أو الثبات، والذي أطلق عليه مؤخراً مصطلح قانون الهيميوستاز، لأنه ما دام أن الجهاز النفسي يعمل على خفض كمية الاستثارة إي أقل حد ممكن، فإنه يترتّب على ذلك أن كل ما يؤدّي إلى زيادة هذه الكمية لا بد أن يتناقض مع وظيفته بما يسبّب من شعور بعدم اللذة، وعلى هذا يكون مبدأ اللذة مشتقاً من مبدأ الثبات آنف الذكر. ومع ذلك فإن فينخر وفرويد يلاحظان أن مبدأ الثبات ومبدأ اللذة، كلاهما يمكن أن يتعطّل، لأن منطق الحال وواقعه يقول بذلك، لأن ظروف العالم الخارجي تجعل تطبيق أيٍّ من المبدأين بدقة أمراً عسيراً، بل إن الكائنات الحيّة كما هو مشاهَد تعرّض نفسها في كثير من الأحيان لأشد المخاطر وتلحق بنفسها أبلغ الضرر، ولهذا فإن غرائز الأنا التي تعمل في خدمة المحافظة على بقاء الكائن الحي تلجأ مضطرة إلى استبدال مبدأ اللذة بمبدأ الواقع، وهو مبدأ يؤدّي في النهاية أيضاً إلى تحصيل اللذة، إلا أنه يتبع في تحصيلها طرقاً أخرى، بأن يؤجل إشباع الغرائز إلى حين، أو يتخلى عن بعض طرقه وأهدافه الحالية، ويكبت بعض الرغبات، إلى آخر ذلك من العمليات التي لا يمكن في نهاية الأمر إلا أن تكون في خدمة مبدأ اللذة، وكأنه المبدأ المسيطر على كل العمليات النفسية بلا منازع. إلا أن هناك حالات كما عند المرضى بعصاب الصدمة تتكرر معهم المشاهد المؤلمة في أحلامهم والتي مدارها الصدمة، ونحن نعلم أن الأحلام بطبيعتها تحقق الرغبات، ولا يمكن أن يكون تكرار الحادث المؤلم من

ذلك. وأيضاً فإن المشاهَد على ألعاب الأطفال أن فيها تكراراً للمواقف المؤلمة لهم، كأن يقوم الطفل الذي تتركه أمه باستمرار للتوجّه إلى وظيفتها، بتمثيل قصة رحيلها وعودتها مستخدماً ما تقع عليه يده من أدوات تشابه تمثيله بواقع أحواله التي يعاني منها، فكيف يمكن أن نوفق بين مبدأ اللذة وبين تكرار الطفل للخبرات المؤلمة واتخاذها مداراً تدور حولها ألعابه. ومهما حاولنا من تفسيرات فستكون ناقصة، وليس من تفسير مستديم ومعقول إلا بأن ما يتكرر من خبرات مؤلمة إنما يتم جبراً وقسراً، وأن المبدأ الذي يجري به هذا كله إنما هو مبدأ إجبار التكرار. وظهر إجبار التكرار خلال العلاج التحليلي للمريض في شكل استبدادي يدفع به إلى استعادة الماضي والعيش فيه مرة أخرى كما لو كان جزءاً من الحاضر. ولا بدّ أن يكون إجبار التكرار نتيجة ما هو مكبوت في اللاشعور ويريد التحرّر والخروج إلى الشعور. وما من شك أن مقاومة الأنا الشعوري واللاشعوري لظهور المكبوت تعمل وفقاً لمبدأ اللذة وتسعى إلى تجنّب عدم اللذة الذي قد ينتج عن تحرير العوامل المكبوتة. ولا شك أيضاً أن كل المواقف الكريهة من الطفولة تكرر أثناء مرحلة التحويل من العلاج التحليلي، ويأتي تكرارها تحت ضغط مبدأ إجبار التكرار.

وما يثبته التحليل النفسي مع المرضى النفسيين يثبته أيضاً مع الأسوياء الذين قد يشكُون الحظ العاثر أو القدر الغاشم، ويكشف التحليل أنهم يكرّرون أحداثاً بعينها. ولا يختلف الإجبار في حياتهم عن إجبار التكرار الذي يسيطر على المرضى النفسيين، ومن هؤلاء المحسنون الذي يشكون من أن الناس يقابلون إحسانهم بالجحود، ومنهم من يخونه صديقه، فلا هم ينتهون عن الإحسان، ولا هم يريدون ظهورهم للأصدقاء، ويكرّرون ذلك باستمرار، الأمر الذي يبت بالقطع أن النفس الإنسانية تخضع لإجبار التكرار، وأن هذا الإجبار يفوق مبدأ اللذة قوةً ويعلو عليه، فإذا سلّمنا بذلك استطعنا أن ننسب إلى هذا المبدأ أحلام المصابين بعصاب الصدمة، وأن نفسر به حب التكرار عند الأطفال في ألعابهم. وهذا الإجبار أقدم من مبدأ اللذة وأكثر تغلغلاً

في الفطرة، وهو غريزي، والغرائز عموماً هي في صميمها لإرجاع الكائن الحي إلى حالة الاستقرار الأولي التي يضطر إلى التخلي عنها تحت ضغط أية ظروف خارجية، وكأنها أيضاً تعمل وفق مبدأ إجبار التكرار، والشواهد عليه كثيرة في ظاهرة الوراثة، وفي عمل الأجنة حيث تلجأ جرثومة الحيوان الحي إلى تكرار كافة الأشكال التي نشأت منها، ولو بقي كل كائن على حاله بدون ظروف ضاغطة لما قام إلا بتكرار منهجياته، ولو تابعنا البحث في تاريخ الكرة الأرضية وعلاقتها بالشمس لثبت لنا أن الغرائز إنما تقبل التغيير الذي تفرضه ظروف الحياة وتختزنه لتكرّره ومن ثم تخدعنا فتبدو أنها تميل إلى الترقي بينما هي في الواقع لا تسعى إلا نحو هدف قديم. ويتعارض مع طبيعة الغرائز المحافظة أن يكون للحياة حالة لم تعرض للكائن من قبل ويسعى نحو العودة إليها متخذاً طرقاً ملتوية تدفعه إليها خصائص تطوّره، ولا معدي إذن من التسليم بالحقيقة التي لا استثناء لها وهي أن كل حي يموت نتيجة أسباب داخلية، أي يعود إلى حالة المادة الجامدة، ويترتب على ذلك أن نقول: «إن الموت غاية كل حي». وإذا نظرنا خلفنا لا يمكن أن نخرج إلا بهذه النتيجة: «أن الميت وُجِد قبل الحي».

وفي الفصول التالية يقسّم فرويد الغرائز إلى غرائز حياة وغريزة موت. وقد يبدو التعارض بينهما إلا أن عمل غرائز الحياة هو الحفاظ على المادة الحية في الكائنات دون الكائنات نفسها من خلال جراثيم التناسل، وكأن البقاء والخلود للمادة الحياة وليس للأفراد، وأما الأفراد فالتطوّرات داخلهم تؤدّي للموت، ويستخلص فرويد من هيرنج أن كل خلية تقوم على عاملين، أحدهما يهدف للبناء، والآخر يهدف إلى الهدم، أي أن هناك دافعين في كل الحياة الغريزية - دافع للحياة ودافع للموت، ويستشهد بشوبنهاور أن الموت هو نهاية الحياة وهو لذلك غايتها، في حين أن الغريزة الجنسية ليست إلا أداة تتجسم بها إرادة الحياة. وبلغة التحليل النفسي أن الخلايا الجنسية نرجسية تتمسّك بما فيها من لبيدو ومن نشاط غرائز الحياة كأنه الاحتياطي الذي تلجأ إليه، ويصدق

عليها ما يقوله الشعراء عن إيروس إله الحب، فهي تعمل على تأكيد الحياة وتنميتها وتكاثرها، وبلغة الكيمياء العضوية أن معادلة التوتر الكيميائي في الأفراد تؤدي بهم إلى الموت، إلا إذا اتحد الكائن الحي مع المادة الحية لكائن آخر فيزيد التوتر محدثاً إختلافات حيوية تلزمه بالعيش فترة أخرى. ومن ذلك أيضاً ما يكون في العمليات العصبية من خفض التوتر الداخلي المترتب على المثيرات، والتخلّص منه للوصول إلى الثبات والسكون، وذلك هو مبدأ النيرڤانا الذي قالت به بربارا لو (١٩٢٠). وخلاصة الأمر أن إجبار التكرار حتى في العمليات الجنسية. وما يقول داروين أن الجنس قديم ويجمع بين الجنسين تكراراً لأمر حدث يوماً وبقي واستقرّ لما ظهر من نفعه. ومن رأي أفلاطون أن الناس كانوا واحداً ثم انشطروا إلى اثنين فصار كل شطر يشتهي الآخر، وإذا التقيا احتضنا وتعانقا طويلاً وكأنهما يستعيدان وحدتهما السابقة. وفي أسطورة الأوبانيشاد الهندية أن الذات كان واحداً ثم اشتهى أن يكون له ثان لشقائه بالوحدة، فقرر أن يقسم نفسه إلى رجل وامرأة إلا أنهما يريدان العودة إلى الوحدة. ويطلق فرويد على ذلك إسم الغرائز الارتدادية.

مراجع

– ما فوق مبدأ اللذة – ترجمة الدكتور الحفني (١٩٦٤).

❖ ❖ ❖

– ما قبل الشعور...

- **Preconscious (E.);...**
- **Préconscient (F.);...**
- **Vorbewusste (D.)...**

نظرية الجهاز النفسي التي يقول به فرويد تنتمي إلى ما يسميه الميتاسيكولوجيا أو ما وراء علم النفس، وهي عبارة عن تنظير توصيفي وطبوغرافي للنشاط النفسي، حيث يقسم فرويد المحتويات والعمليات النفسية إلى

ما هو شعوري وما هو لا شعوري، ويميز في اللاشعوري بين ما يكون على السطح ومن اليسير بمجهود بسيط أن يصبح شعورياً، وبين ما يكون في الأعماق وهو المكبوت الذي يصادف مقاومة كبيرة لكي يفلت من الحالة اللاشعورية ويصبح شعورياً. والأول يصفه بأنه قبل شعوري، والثاني يحتفظ له باسم اللاشعوري، وعلى ذلك يرى أن الجهاز النفسي أقسامه من الناحية الطبوغرافية ثلاثة، فقسم على السطح هو الشعور Cs، وقسم يليه هو ما قبل الشعور Pcs، وقسم هو الأدنى، وهو اللاشعور Ucs. وما قبل الشعور أقرب إلى الشعور رغم أن عمليات ومحتويات ما قبل الشعور توصف بأنها لاشعورية. والفرق بين الفكرة حينما تكون لاشعورية أو قبل شعورية أو شعورية، أنها في الحالة الأولى تكون مادتها مجهولة، بينما في الحالة الثانية ترتبط بصور لفظية هي محتويات ما قبل الشعور، وهي لا ترتبط بأية صور وإنما بالصور المناسبة لها والمتطابقة معها. وهذه الصور هي من الآثار السمعية المتبقية في الذاكرة أن تصبح شعورية مرة أخرى. ولا تقتصر محتويات ما قبل الشعور على هذه الصور أو اللغة اللفظية التي يزوده بها الشعور الإدراكي Perceptual conscionsness أو جهاز الإدراك - الشعور Pcpt-Cs، فهناك بالطبع صور بصرية هي من الآثار البصرية المتبقية في الذاكرة (آثار الأشياء في مقابل آثار الكلمات)، غير أن الصور السمعية أغلب، وأما الصور البصرية فتأتي في مرحلة لاحقة بعد تعلّم القراءة والكتابة، ومن ثم تلعب الصور البصرية دوراً أقل أهمية من الصورة السمعية (إلا في حالة الصُم البكم)، إلا أنه مع ذلك دور مهم ونستطيع أن نتبينه من دراسة التفكير البصري في الأحلام والتخيلات، ومع ذلك فمادة التفكير لا تصبح شعورية إلا في شكل لغة وصور لغوية وذلك هو ما يميّز التفكير بالألفاظ، وهو من غير شك أقدم منه سواء من ناحية نشوء الفرد Ontogenetically ، أو من ناحية نشوء النوع Phylogenetically. وفي التحليل النفسي يتم تحويل اللاشعوري المكبوت إلى شعوري بأن يصبح أولاً قبل شعوري من خلال هذه الصور قبل الشعورية.

ويجعل فرويد ضمن بنائه الميتاسيكولوجي للجهاز النفسي ما يسميه الرقابة أو الرقيب المنوط به الحيلولة دون نفاذ المحتويات اللاشعورية إلى ما قبل الشعور على أن هناك رقابة أو رقيباً ثانياً على محتويات ما قبل الشعور. أن تنفذ إلى الشعور. وتختلف الرقابتان ففي حين تكون الرقابة الأولى صارمة فإن الثانية متهاونة قياساً إليها، والأولى ليس من سبيل لتجاوزها إلا بتحوير محتويات اللاشعور وتقنيعها، والثانية عملها تجنيب الشعور الانشغالات الكثيرة المربكة، ومن ثم تمارس الانتقاء وتيسّر على الشعور الانتباه.

وثمة اختلافات جوهرية بين الأقسام الثلاثة للجهاز النفسي عند فرويد، فالشعور وما قبل الشعور طاقتهما النفسية مقيّدة، واللاشعور طاقته النفسية حرّة، وعمليات اللاشعور غالباً أوّلية، بينما عمليات الشعور ثانوية، وعمليات ما قبل الشعور عمليات ثانوية غالباً وإن كان بعضها أولياً أحياناً. ومع أن الكثير من العناصر اللاشعورية يحال بينه وبين أن يصبح قبل شعوري، فإنه مع ذلك يستمر في التأثير على ما قبل الشعور.

ولا يقتصر ما قبل الشعور في التحليل النفسي المعاصر على العناصر الكامنة التي في طريقها إلى الشعور ولكنه يتضمن عناصر تتراوح بين عمليات التفكير المجرّد الأكثر منطقية وبين التخيلات الأكثر بدائية. ويعتبر ما قبل الشعور في النظريات الحديثة جهازاً نفسياً يقع ضمن دائرة نفوذ مبدأي اللذة والواقع وتتحكم فيه غالباً قوانين العمليات الأوّلية ويستخدم في وظائفه الأكثر فكرية طاقة مقيّدة ومحيّدة إلا أنه مع ذلك به عناصر تخيلية يشحنها بلبيدو وعدوان غير محيدين، وقد تتحكّم فيه العمليات الأوّلية أحياناً في مجال الإنتاج الإبداعي. ومن وجهة النظر الميتاسيكولوجية فإن ما قبل الشعور يمثّل حلقة في المتصل بين اللاشعور والشعور، ومن الناحية التركيبية يقع تحت سيطرة الأنا ووظيفته البنائية، ومن الناحية الاقتصادية يخضع أساساً لقوانين العمليات الثانوية وطاقته محيّدة، وهو أخيراً يسيطر عليه مرة مبدأ اللذة، ومرة مبدأ الواقع، ويتوسط بين الهو والعالم الخارجي.

مراجع

- Freud: The Unconscious. (1915)

: The Ego and the ID. (1923)

: The Interpretation of Dreams.
(1900)

❖ ❖ ❖

– ما وراء علم النفس...

- **Metapsychology (E.);...**
- **Métapsychologie (F.);...**
- **Metapsychologie (D.);...**

يُدمَغ التحليل النفسي عموماً بأنه النظرية التي تتطرّق إلى ما وراء النفس، بمعنى أنها تتناول أموراً يصعب التجريب عليها وتقع خارج نطاق علم النفس الأمبيريقي، وهي أقرب إلى علم النفس التأملي أو النظري أو الفلسفي. ويبدو أن هذا المصطلح «ماوراء علم النفس» من إبداع فرويد الخالص وكان هو أول من استخدمه، وورد في خطاب له إلى صديقه فليس Fliess لأول مرة سنة ١٨٩٦، ثم نصادفه في كتاباته في الفصل السابع من «تفسير الأحلام» سنة ١٩٠٠، ونلتقي به وجهاً لوجه في بحثه «أوراق فيما وراء علم النفس» سنة ١٩١٥، وفي سلسلة مقالاته «الغرائز وتقلّباتها» و«الكبت» و«اللاشعور» و«إضافة ميتاسيكولوجية لنظرية الأحلام» و«الحداد والملانخوليا» التي كتبها في الفترة من سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩١٧ وهي كتابات تنظيرية وتأملية وأقرب إلى الفلسفة وكلها كتابات رصينة وأساسية وتشكل أهم جوانب النسق النفساني الفرويدي، وقد أدرك فرويد أنها بالنسبة لعلم النفس كالميتافيزيقا بالنسبة لعلم الفيزياء، فهي رؤية تنظيرية أكثر منها علم، وتنتمي للمرحلة التي كان قد انصرف فيها عن الطب وانخرط تماماً في علم النفس كان وقتها في الستين من عمره، وكان قد اعترف ليونج قبلها بنحو خمس سنوات أنه مشغول بعمل خلاّق، وذكر في تعليقاته على هذه البحوث أنه يطلق عليها إسم الميتاسيكولوجيا أو ما وراء علم النفس، لأنها تتناول الشعور من جانبه الآخر، في

حين أن علم النفس مناطه دراسة الشعور من جانبه الذي نعرفه عنه، والجانب الآخر الذي يقصده هو الجانب الذي نجهله عنه وهو اللاشعوري، وكأنه يقصد بما وراء علم النفس الجوانب الدينامية باعتبار ما يمكن أن ينهض من صراعات بين الشعور واللاشعور أو بين الأنا والهو والأنا الأعلى، وكتاباته فيها تنظّر أو تفسّر بشكل أساسي الفرضيات التي يقول بها ويجعلها وراء علم النفس التحليلي، وكلها صياغات مداره النشاط الوظيفي النفسي، أو أن ما يقصد إليه هو الظواهر النفسية باعتبار جوانبها الدينامية أي متعلّقاتها الغريزية، وجوانبها الطبوغرافية أي متعلقاتها المكانية من الجهاز النفسي، وجوانبها الاقتصادية، أي متعلقاتها من حيث الطاقة النفسية ونشوؤها وتوزيعها واستهلاكها، وهي الجوانب الثلاثة التي يوليها فرويد إهتمامه الخاص وتعتبر أهم جوانب البناء النفسي الفرويدي، ويقول إنها تستحق أن يطلق عليها مصطلح الميتاسيكولوجيا أو ما وراء علم النفس.

مراجع

- Freud: Papers on Metapsychology. (1915)

: A Metapsychological Supplement to the Theory of Dreams. (1917)

❖ ❖ ❖

- مالينوفسكي، برونسلاف...

- Malinowski, Bronslaw...

(١٨٤٤ - ١٩٤٢) مؤسّس الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ويهمنا بسبب معارضته لآراء فرويد في الكثير مما ذكره خاصاً بالثقافة وتعقيداتها وأثر ذلك على تنشئة الفرد سيكولوجياً. ويذهب مالينوفسكي إلى أن التكوين النفسي والعقلي للفرد يخضع لثقافته، وأن الإنسان إبن بيئته، وثقافته هي نتاج حاجاته الخاصة الاجتماعية والإنسانية، وخالف بذلك فرويد، ويقول على عكسه أن كل ما يدخل في تكوين الثقافة وتشكيلها له وظيفته، وتفسيره وظيفياً

ينبغي أن يتم داخل السياق الثقافي، ومن ثم يعيب على فرويد أنه يجعل مفاهيمه في التحليل النفسي عالمية، أي تنطبق على الإنسان في كل مكان وزمان، ولا يحاول فرويد أن يضع في تفسيراته الإطار الثقافي الذي لا بدّ أن يكون فَهْم سلوك الفرد من خلاله. وعند مالينوفسكي على عكس فرويد، أن السوية أو الشذوذ في السلوك ينبغي أن تكون معيار وقيم الثقافة التي ينتمي إليها الفرد، وأكد من خلال بحوثه على سكان تروبرياند أن أطفالهم لا يعانون مما يسميه فرويد عقدة أوديب أو الصراع الأوديبي، وذلك لأن السلطة في هذا المجتمع خؤولية - أي للخال - وليست للأب - فالصراع بين الطفل وممثل السلطة وهو خاله، بينما علاقة الطفل جيدة جداً بالأب. وهذه المعارضة التي شكّك بها مالينوفسكي في نظريات فرويد هي التي دفعت «اللجنة» التي توفرت على المدافعة عن فرويد والتحليل النفسي، إلى إرسال روهايم إلى جُزر قريبة من تلك التي درس مالينوفسكي بها أحوال أطفالها، وتأكد بنفسه من حقيقة ما توصل إليه فرويد من مفاهيم أنكرها مالينوفسكي، وعلّل ذلك بأن المجتمع في هذه الجزر بخلاف مجتمع مالينوفسكي، أي مجتمع أبوي، أي السلطة فيه للأب وليس للأم، فكأن روهايم قد ربط وجود عقدة أوديب والصراع الأوديبي بمجتمعات دون مجتمعات، وشرَطها بأن تكون المجتمعات الأوديبية مجتمعات أبوية، وذلك برهان على صدق دعاوى مالينوسكي أن المفاهيم النفسية لا بدّ من فهمها من داخل السياق الثقافي وليس بمعزل عنه، وأنها مفاهيم ليست عالمية ولا يجوز تطبيقها في كل الأزمان والأماكن.

مراجع

- Malinowski: Psychoanalysis and Anthropology. (1923)

: Mutterechtliche Familie und Oedipus - Komplex. (1924)

: Sex and Repression in Sage Society. (1927)

❖ ❖ ❖

- مبدأ الثبات...

- **Constancy Principle (E.);...**
- **Principe de Constance (F.);...**
- **Konstanzprinzip (D.)...**

هذ المبدأ تناوله التغيير في مؤلفات فرويد، ومنذ البداية إستخدمه كمحاولة لمماثلة علم النفس بعلمي الفيزياء والفسيولوجيا، ولكي تكون لعلم النفس لغة موضوعية كلغة هذين العلمين.

ومبدأ الثبات يستعيره فرويد من الديناميكا الحرارية حيث يقول المبدأ الثاني من هذا العلم أن الاختلاف في مستويات الطاقة يميل إلى التلاشي، وأن تتساوى هذه المستويات داخل النظام الواحد المغلق، مما يعطيها كلاً نهائياً من التوازن. ويأخذ فرويد نحو هذا المنحى عن جوستاف فخنر عندما يربط بين الحالة الشعورية باللذة أو عدمها وبين حالات الاستقرار أو عدم الاستقرار في الجهاز النفسي البدني، باعتبار أن كل نشاط بدني نفسي لا بد أن يصحبه من اللذة قدر يتناسب مع قربه من التوازن التام، وكذلك لا بد أن يصحبه من عدم اللذة قدر يتناسب مع قربه من عدم التوازن المطلق. وفرويد لم يعرض لمبدأ الثبات كمبدأ أساسي لنظريته الاقتصادية في النشاط النفسي إلا في كتابه «ما فوق مبدأ اللذة» سنة ١٩٢٠.

وقبل ذلك كان قد عرض له كمبدأ ثانوي في كتابه «دراسات في الهيستيريا» سنة ١٨٩٥، وفي كتابه «مشروع علم نفس علمي» سنة ١٨٩٥، وأما المبدأ الأساسي عنده في ذلك الحين فكان مبدأ القصور العصبي حيث افترض أن النظام العصبي يميل إلى استفراغ نفسه من كل كميات الطاقة التي تتكون به، أي أنه ينزع إلى أن تصل الطاقة به إلى مستوى الصفر، بينما كان مبدأ الثبات مجرد مبدأ ثانوي تفرضه ضرورات الحياة وبمقتضاه يضطر النظام العصبي أن يختزن كميات من الطاقة تكفي متطلّبات النشاط العصبي الواعي، إلا أنه مضطر أيضاً أن يحافظ على هذه الكميات عند مستوى معيّن بحيث لا تزيد عنه، وكلما مالت إلى الزيادة عمل على خفضها ومدافعة هذه الزيادة. وأما سنة ١٩٢٠ حينما استخدام

مبدأ الثبات كمبدأ أساسي فقد جعله كذلك مبدأ للاستقرار والتوازن، وقد يكون معنى التوازن ما قصد إليه بمبدأ النيرفانا، وصولاً بالتوازن إلى حالة اللاعضوية للكائن الحي - أي الموت. وقد يكون المعنى أيضاً أن الكائن الحي بافتراض أنه نظام مغلق فإن يضبط نفسه ذاتياً بحيث يحافظ على مستوى الطاقة به بالنسبة للمحيط خارجه خلال تبادلاته معه. ولا يبدو واضحاً مقصود فرويد من مبدأ الثبات إلا في ارتباطه بمبدأ اللذة، باعتبار أن مجمل النشاط النفسي هو تحصيل اللذة وتجنّب الألم، وأن الألم يرتبط بزيادة كمية الاستثارة، وأن اللذة ترتبط بتخفيض هذه الكمية، ويعني مبدأ الثبات إبقاء كمية الاستثارة في أدنى مستوياتها أو على الأقل العمل على إبقائها في مستوى ثابت ومدافعة زيادتها ما أمكنه. (أنظر مبدأ اللذة).

مراجع

- Freud: Beyond the Pleasure Principle. (1920)
- Fechner: Einige Ideen Zur Schöpfungs - und Entwicklungs - geschichteder Organismen.(1873)
- Freud & Breuer: Studies on Hysteria. (1892)
- Freud: Entwurf einer Psychologie. (1895)

❖ ❖ ❖

- مبدأ اللذة - اللالذة...

- Pleasure - Unpleasure Principle (E.);...

- Principe de Plaisir - Déplaisir (F.);...

- Lust - Unlustprinzip (D.)...

إفتراض غرضي رئيسي يستهدفه الجهاز النفسي. من أهم البحوث التي يتطرّق إليها التحليل النفسي الفرويدي، وإن كان للأسف من أكثرها غموضاً، ويرتبط باعتبارات توصف بأنها إقتصادية، ففيما يبدو نأ الجهاز النفسي بأسره يستهدف بنشاطاته تحصيل اللذة،

واجتناب الألم أو الكدر وهو ما نصطلح عليه باسم اللالّذة، فكل النزعات النفسية، سواء الجنسية أو نزعات حفظ الذات، لها جميعاً هذه الغاية. وترتبط اللذة المنشودة بخفض التنبيهات المؤلمة أو المكدرة، سواء الداخلية أو الخارجية التي يتعرّض لها الجهاز النفسي، كما ترتبط اللالذة بزيادة هذه التنبيهات. والمبدأ الذي يحكم النشاط النفسي هو مبدأ اللذة - اللالّذة والذي يشتهر باسم مبدأ اللذة فقط اختصاراً.

ويبدو أن فرويد قد أخذ القول بمدأ اللذة من جوستاف فخنر (١٩٠١ - ١٨٨٧)، وأكد مثله على الصلة بين مبدأ اللذة ومبدأ الثبات. فمن حيث أن مبدأ اللذة يسيطر تماماً على الحياة النفسية يفترض أن الجهاز النفسي يعمل على خفض كمية الاستثارة التي يتعرض لها إلى أقل حد يمكن أن يبقيها على الأقل ثابتة لا تتغير، وليس هذا إلا مبدأ اللذة بشكل آخر، لأن الجهاز النفسي إذا كان يعمل على خفض كمية الاستارة إلى أقل حد ممكن فإنه يترتّب على هذا أن كل ما يؤدي إلى زيادة تلك الكمية لا بد أن يتناقض مع وظيفة ذلك الجهاز، أي يسبب شعوراً بعدم اللذة، وعلى هذا يكون مبدأ اللذة مشتقاً من مبدأ الثبات، وكما يقول فرويد فإن هذه النزعة السابق التنويه عنها للجهاز النفسي يمكن اعتبارها حالة خاصة من المبدأ الذي يقول به فخنر وهو «الميل إلى الاستقرار أو الثبات» الذي ربط به بين أحاسيس اللذة وعدم اللذة. ويفسر فرويد وجود بعض العمليات النفسية التي لا يبدو فيها أن مبدأ اللذة له السيطرة على الجهاز النفسي بما فسرها به فخر كذلك: أن النزعة إلى هدف قد لا تؤدي في كل الأحوال إلى هذا الهدف، ومن العسير دائماً تحقيق ما نطلبه إلا بقدر معيّن، وقد تؤدي مختلف الظروف إلى تعطيل العمل بمبدأ اللذة وإيقاف تنفيذه. ويعدّد فرويد العقبات التي تحول دون ذلك، وأولها أن الظروف التي يفسرها العالم الخارجي والتي نتعرّض من جرّائها للمخاطر والضرر، قد تدفع غرائز الأنا التي تحافظ على البقاء إلى أن تستبدل النفس بمبدأ اللذة مبدأ الواقع الذي يسعى هو الآخر في نهاية الأمر إلى الحصول على

اللذة، ولكنه يؤجل الإشباع ويتخلّى عن كثير مما يمكن أن يحقق له، بل ويدفع إلى قبول عدم اللذة مؤقتاً من أجل الحصول على اللذة في نهاية المطاف، ويتأثر في ذلك بالتربية ويخضع لمقتضى الواقع، ومع ذلك تظل هناك بعض الدوافع الجنسية لا يتسنّى تربيتها وتهذيبها، ولا تلتزم إلا بمبدأ اللذة. وقد يحدث أن يسيطر هذا المبدأ - مبدأ اللذة - سيطرة تامة على الدوافع النفسية، ويغلب على نشاط الأنا نفسه، رافضاً مبدأ الواقع، وملحقاً أكبر الأذى بالفرد أو بالكائن الحي عموماً.

ومع ذلك لا يفسر مبدأ الواقع إلا جزءاً ضئيلاً من جوانب الأحاسيس المؤلمة. فهناك شكل آخر من الأحاسيس المؤلمة يحدث ألواناً من الصراع حين يستبعد الأنا بعض الميول الغريزية التي لا يوافق على مطالبها وأهدافها بواسطة كبتها، إلا أنها تفلح مع ذلك في التوصل إلى الإشباع غير المباشر، ونجاحها هذا برغم أنه كان من المفروض أن يؤدّي إلى اللذة فإنه على العكس يؤذي الأنا ويتألم له، أي أن مبدأ اللذة تبطله عملية الكبت، والكبت يحوّل ما كان من المفروض أن يعطي لذة إلى مصدر لعدم اللذة، وكل ألم يتصل بالأمراض النفسية لا بد أنه كان أصلاً لذة، ولكن المريض تحصلها على النقيض. ومع أن المصدرين السابقين لعدم اللذة لا يشملان كل الخبرات النفسية المؤلمة التي يتعرّض لها الإنسان، إلا أنه يمكن القول في شيء فغير قليل من الثقة أن وجود غير هذين المصدرين للألم لن يقلّل من غلبة مبدأ اللذة. وأغلب الألم المستشعر في الحياة من نوع الألم الإدراكي، أي إدراك الضغوط التي تحدثها الغرائز الجائعة وهي تطلب الإشباع، أو إدراك للأشياء التي من العالم الخارجي التي تكون مصدراً للألم لما تثيره في الجهاز النفسي من ترقّب مؤلم وتوقّع للخطر. ويتطلّب رد الفعل على مطالب تلك الغرائز الجائعة وتوقع تلك الأخطار كل طاقة الجهاز النفسي، إما وفق مبدأ اللذة، أو وفق مبدأ الواقع.

ويفسر فرويد تكرار الأطفال للخبرات المؤلمة في ألعابهم، والإصرار في أحلام المرضى بعصاب الصدمة على أن تكون

تكراراً للمواقف التي استحدثت الصدمة، والإصرار في عصاب التحويل - في العلاقة بين المعالج والمريض - على تكرار الخبرات بالوالدين التي كانت للمريض في الطفولة، بأن هناك ما هو أقوى من مبدأ اللذة لدرجة أن يعطل هذا المبدأ، ويسميه مبدأ إجبار التكرار، وهو الذي يجبر المرضى بالعصاب والأطفال إلى استعادة الماضي والعيش فيه مرة أخرى كما لو كان جزءاً من الحاضر. ومقاومة المريض للمكبوت من هذا الماضي تتم بمقتضى مبدأ اللذة، وتسعى إلى تجنّب عدم اللذة الذي قد يأتي نتيجة تحرير العناصر المكبوتة. ويسعى المعالج من ناحية أخرى إلى إعانة المريض على احتمال الألم باللجوء إلى مبدأ الواقع. ومن الناس من يبدو سلوكهم كما لو كان يسير ضد مبدأ اللذة، بالشكوى المستمرة من الحظ العاثر والقدر الغاشم، وكأن مبدأ إجبار التكرار هو الذي يسيطر على حياتهم، أي تكرار الخبرات الصادمة والمؤلمة في الحياة، وكأنهم لم يتعلّموا مثلاً من خيانة الأصدقاء أو عدم وفاء النساء أو عواقب الإهمال في مختلف المواقف. ويقول فرويد إن مبدأ إجبار التكرار بتفوّقه على مبدأ اللذة يثبت أنه أقدم وأكثر تغلغلاً في الفطرة.

ويفسر فرويد التعارض بين مبدأ اللذة وبين الغرائز الارتدادية التي تعمل وفق مبدأ إجبار التكرار وتدفع بالكائن الحي إلى حالة السكون الأولى - أي الموت، بأن مبدأ اللذة نزعة تعمل في خدمة وظيفة تهدف إلى تحديد الجهاز النفسي تحريراً تاماً من الاستثارة، أو تدفعه إلى الإبقاء على مقدار ثابت من الاستثارة أو في أقل مستوى ممكن، أي أن الوظيفة بهذا الوصف تعمل على تحقيق أكمل نزعة لكل مادة حية، وهي العودة إلى سكون عالم الجماد، ومن ذلك أن إحدى وظائف الجهاز النفسي وأهمها هي تقييد الدوافع واستبدال العملية الأوّلية التي تسيطر على هذه الدوافع بالعملية الثانوية، وتحويل الشحنات النفسية الطليقة إلى شحنات نفسية مقيّدة. ولا تحفل النفس عند التحويل بما قد يحدث من عدم لذة، إلا أن ذلك لا يعني أيضاً وقف العمل بمبدأ اللذة، بل العكس، لأن التحويل يتم لخدمة مبدأ اللذة، لأن التقييد خطوة أولى تمهد

لسيطرة مبدأ اللذة وتأكيده. ومما لا شك فيه أن غرائز الحياة ترتبط بإدراكاتنا الداخلية وتؤدي إلى أشكال من التوتر نحس عند التخلّص منها باللذة، وكأن مبدأ اللذة يخدم غرائز الموت حقيقة. (أنظر أيضاً مبدأ الواقع، ومبدأ الثبات، وإجبار التكرار).

مراجع

- Freud: Beyond the Pleasure Principle. (1920)

❖ ❖ ❖

– مبدأ النيرڤانا...

- **Nirvana Principle (E.);...**
- **Principe de Nirvana (F.);...**
- **Nirvanaprinzip (D.).**

النيرڤانا لفظة ترادف في معناها الموت أو الفناء. واللفظة سنسكريتية وتعني حرفياً الإطفاء بالنفخ، وعند البوذيين يكون الإطفاء لإرادة الحياة وبذلك يبلغ الفرد الخلاص بالفناء عن نفسه. واستخدم شوبنهاور اللفظة لتعني إنكار إرادة الحياة وملاشاة الميل إلى بقاء الذات والنوع. واستُدخلت اللفظة في التحليل النفسي بمعنيين، الأول غريزة الموت أو الثناتوس، أي الميل إلى الموت أو الفناء، والثاني بمعنى إشباع الحاجات لدرجة إمتناع كل الرغبات. ويبدو أن المحلّلة الإنجليزية بربارا لو Low كانت أول من استخدم هذا المصطلح في التحليل النفسي، وجعلت عملية خفض التوترات النفسية مبدأ يعمل به الجهاز النفسي، وذكرت أن كل نشاط نفسي من شأنه أن يعمل على ملاشاة أي توتر أو على الأقل خفضه إلى أقل حد ممكن. واستعار فرويد هذا المبدأ في كتابة «ما فوق مبدأ اللذة» (١٩٢٠)، وكان واضحاً أن هذا المبدأ يتوافق مع قول فرويد بما يسميه التصريف الانفعالي abreaction، بل ويتوافق مع نظريته في إشباع الرغبات إلى حد توقف الرغبة أي بلوغ الاستقرار. ويعبر فرويد عن ذلك بما يسميه مبدأ الاستقرار Law of constancy، وهو مبدأ

فيزيائي أصلاً قال به فيخنر واستعاره فرويد، ونوّه به في كتابه ما فوق مبدأ اللذة. ويتوافق المبدأ الأول والمبدأ الثاني، وإن كان الإسم الأول من عالم الفلسفة بينما الثاني من عالم الفيزياء، ولذلك يعطيهما فرويد إسماً خاصاً به وبالتحليل النفسي وهو مبدأ اللذة - اللاّلذة Pleasure - unpleasure principle. فعندما يكون هناك توتر غريزي نستشعر الألم، فإذا انخفض التوتّر أو تلاشى استشعرنا اللذة. وهذا الجدل الفرويدي الذي يقوم على المزاوجة بين المتقابلات يتمثّل في مبدأ اللذة - اللاّلذة الذي يقول به، والدافع إليه هو مبدأ الثبات ومحصلته هو مبدأ النيرڤانا.

مراجع

- Freud: Beyond the Pleasure Principle. (1920)
- B. Low: Psychoanalysis: A Brief Account of the Freudian theory. (1920)

❖ ❖ ❖

- مبدأ الواقع...

- Reality Principle (E.);...
- Pincipe de Réalité (F.);...
- Realitätsprinzip (D.)...

هو أحد المبدأين اللذين يسيطران على النشاط النفسي للإنسان، وهما مبدأ اللذة حيث يكون هدف كل العمليات النفسية تحصيل اللذة واجتناب اللالذَّة، ومبدأ الواقع الذي يراعي أن يأتي النشاط النفسي متوافقاً مع الظروف والواقع، ومتمشياً مع الأهداف الاجتماعية ومقتضيات التربية. وبديهي أن مبدأ اللذة هو مبدأ أوّلي أي أنه يحكم كل النشاط النفسي منذ الميلاد، بينما مبدأ الواقع يكون الأخذ به في مرحلة متأخرة عندما ينضج الوعي، ويزيد الإدراك، وتقوى الذاكرة، وتكون للفرد القدرة على إصدار الأحكام، وتكون الغلبة لغرائز الأنا على الغرائز الجنسية. ومن وجهة النظر الاقتصادية فإن مبدأ الواقع هو الذي يتم به تقييد الطاقة بعد أن كانت طليقة. ومن وجهة النظر الطبوغرافية هو مبدأ يتصل

ويعمل في خدمة غرائز الأنا. ومن وجهة النظر الدينامية فإنه المبدأ الذي يحفظ على الإنسان بقاءه، وينظّم نشاطه. ثم إن مبدأ الواقع في نهاية المطاف يسعى هو الآخر إلى تحصيل اللذة واجتناب اللالذَّة، إلا أنه يحصل على اللذة بطرق مشروعة، ويلجأ إلى المفاضلة بين اللذات واجتناب اللالذَّة، ويختار أنسبها، وأكثرها نفعاً وأقلها ضرراً، وقد يؤخر بعضها ويقدم البعض، ويدفع إلى قبول عدم اللذة مؤقتاً، وكل ذلك في حقيقته يتم لصالح مبدأ اللذة، ومن ثم كان مبدأ الواقع صورة معدّلة لمبدأ اللذة، وهو لا يحل محله مع ذلك، وإنما هو فقط يؤمّن الحصول على اللذة في الواقع، مع استمرار مبدأ اللذة يعمل في صورته الأولية في خدمة الدوافع الجنسية التي لم تفلح التربية في تهذيبها. ويحمل مبدأ الواقع في معانيه أن يكون الفرد واقعياً في نظرته للأمور من منطلق موضوعي، وأن يحكّم العقل. ومن الآليات في خدمة هذا المبدأ ما يسمى باختبار الواقع Reality testing، أي الكشف عن جوانب الواقع والتعامل معها بموضوعية بما يضمن توفيق السلوك مع متطلّبات البيئة الفيزيائية والاجتماعية، وإشباع المطالب الغريزية والرغبات اللبيدية إشباعاً يتمشى مع نضوج الأنا.

ويورد إرنست جونز في تأريخه لفرويد أنه في حياته كان يسيطر عليه مبدأ الواقع على مبدأ اللذة، وأنه كان في مرحلة من حياته بين اختبارين: أن ينساق مع تكوينه النفسي وحبه للتفكير ويجعل التفكير يستغرقه وهو الذي يجد فيه متعته وليس أكثر من ذلك، أو أن يقيّد تفكيره وينظّمه ويهذّبه بالعلم ويخضعه لبناء نسقي. واختار فرويد العلم. ولكي يكون عالماً أخضع نفسه لروتين يومي وجدول عمل ينظّم به قراءاته ودراساته بحوثه. ويروي جونز قصة قيلت لفرويد عن جرّاح أصيب مثله بسرطان الفك، فكان يقول عندما أموت سأتقدم من عرش العليّ القدير وأسأله عما فعله بي بهذا الفك الممروض. فكان ردّ فرويد لو إني مكان هذا الجرّاح لسألت العليّ القدير لماذا لم يعطني عقلاً أرجح وفهماً للأمور أكبر. وعلّق جونز أن أمثال هذه الأشياء تكشف عن غلبة مبدأ الواقع عند

فرويد، وعن حبه للمعرفة ورغبته في أن يخدم الجنس البشري، وأن يكون له إسهامه المؤسّس على الموضوعية والقياس، وأن يجعل من علم النفس واحداً من العلوم الدقيقة.

(أنظر أيضاً مبدأ اللذة - اللالذّة).

مراجع

- Freud: Formulations on the Two Principles of Mental Functioning. (1911)

: Beyond the Pleasure Principle. (1920)

❖ ❖ ❖

- المتعة الجمالية...

- **Aesthetic Pleasure (E.);...**
- **Plaisir Esthétique(F.);...**
- **Ästetisches Vergnügen (D.)...**

إشباع غرائز قد حدث لها كفّ من ناحية الهدف. المستمتع بالجمال لا يطالب بامتلاك ما يستمتع به، ورغم أن ما يحدث له به كل سمات بلوغ نهاية الاستمتاع، أو أقصى ما يمكن أن يصل إليه الاستمتاع. وهذه المتعة جمالية محضة، أي أن هدفها فيها، ومكتفية بنفسها، وليست لها غاية أخرى في الحياة. أما الشخص الذي لم يحدث له كفّ في أهداف أو غايات غرائزه، مثل هذا الشخص يستمتع بالجمال بحواسه، لكن استمتاعه ينقلب عليه ويصبح تعاسة، لأنه لا يستطيع أن يمتلك ما يعجب به، وهو لا يهدأ إلا إذا امتلكه حقيقة، أي يمتلكه مادياً. فمثلاً لو رأى شخص من هذا النوع تمثالاً أو صورة لامرأة عارية، ولكن كحقيقة من لحم ودم، فاهتمامه أو استمتاعه مادي يحقق إشباع غرائزه التناسلية فقط. وأما الشخص السويّ فمن الممكن أن يشبع في نفسه الاستمتاعين، الجمالي والغريزي، وعلى عكس ذلك الشخص العُصابي الذي يستخدم التجربة الجمالية كنوع من الدفاع. ويقول فرويد (١٩١١) إن العصابي والفنان يحلمان، لكن أحلام

العصابي أحلام في الهواء، أما الفنان فهو القادر على تحقيق حلمه ويجعله حقيقة، ولكنها حقيقة من نوع آخر، حقيقة جمالية. ويقول فرويد إن التجربة الجمالية تعتمد على الشكل أكثر من اعتمادها على المضمون، وذهب إلى تحليل أمثلة من النكات والفكاهة والكوميديا، وقال إن المتعة الجمالية فيها تتأتى من تكثيف النكتة والاختصار الشكلي الذي تكون عليه والمفارقة اللمّاحة. ويقول فرويد إن التوجّه الجمالي نحو الأشياء يتسم بأنه توجّه لا غائي سوى مطالعة هذا الشيء الجميل، فكأنما هو لهو، ولعلّه لذلك كان الاتجاه الجمالي اتجاهاً لاهياً Playful لا جديّة فيه كما في الاتجاه نحو العمل، والفنان والمستمتع بالجمال كلاهما يشحن الشيء الجميل نفسياً ويطلق شحنة نفسية، بمعنى يصرّفها، وهو عمل لذيذ في حد ذاته. والفنان وهو يخلق يصرّف الطاقة بعد الطاقة، والمستمتع في تصوّره للعمل الفني واستمتاعه به كذلك يخلّص نفسه من كثير من توتراتها ويستعيد توازنه.

مراجع

- Kris, E.: Psychoanalytic Explorations in Art. (1952)
- Freud: Creative Writers and Daydreaming. (1908)

: Jokes and their Relation to the Unconcious. (1905)

❖ ❖ ❖

– المثل الأعلى للأنا...

- Ego Ideal (E.);...

- Idéal du Moi (F.);...

- Ichideal (D.)...

يلتبس الأنا المثالي Ideal-ego مع مثال الأنا ego-ideal، ولا نعثر عند فرويد على تمييز بين مفهومي هذين المصطلحين الملتبسين، ولربما يقصد بهما شيئاً واحداً، إلا أن بعض المحلّلين ذهب إلى التفريق بينهما، وإلى أنهما تكوينان نفسيان متمايزان. ونلاحظ أن فرويد

إستخدم مصطلح مثال الأنا ضمن نظريته الثانية عن الجهاز النفسي، ويترجمه البعض المثل الأعلى للأنا باعتبار أن مثال الأنا هو ما يتخذه من مثل أعلى يصوغ نفسه على منواله، والمقصود به الموضوع المحبوب. والفرق بين الأنا المثالي والمثل الأعلى للأنا، أن الأنا المثالي تكوين من التكوينات التي ينقسم إليها الأنا الأعلى الافتراضي، حيث جزآه هما الأنا المثالي والضمير، وأما المثل الأعلى للأنا فهو البديل عن نرجسية الطفل،حيث كان هو نفسه في المرحلة النرجسية المثل الأعلى لنفسه، ثم يتخلى عن نرجسيته بحكم الواقع وبسبب الانتقاد الذي يوجهه الأهل إليه، ويتخذ من الأهل مثالاً له. والمثل الأعلى للأنا هو الأهل أولاً ثم من يحل محلهم. والفرق بين الأنا الأعلى والمثل الأعلى للأنا أن الطفل يتمثل الأنا الأعلى خوفاً من العقاب، ولكنه يقتدي بالمثل الأعلى للأنا بدافع من الحب، ويتشكّل الأنا الأعلى على صورة الأشخاص مرهوبي الجانب، بينما يأتي المثل الأعلى للأنا على صورة الموضوعات المحبوبة، ويتطابق الأنا الأعلى مع السلطة، ويتطابق المثل الأعلى للأنا مع الأسلوب الذي يجد أنه ينبغي السلوك به كي يتوافق مع توقعات السلطة تجاهه.

وعندما يكون لأفراد المجتمع الواحد الموضوع الوحيد نفسه الذي يحلّونه من أنفسهم محل المثل الأعلى للأنا فإنهم بذلك يصنعون مثلاً أعلى جماعياً، ولا يمنع ذلك أن يتعين الأفراد بالجماعات الصغرى التي يرتبطون بها، وأن يكون لكل واحد منهم مثله الأعلى للأنا إنطلاقاً من نماذج متنوّعة.

(أنظر أيضاً أنا أعلى، وأنا مثالي، والضمير)

مراجع

- Freud: On Narcissism: An Introduction. (1914)

: Group Psychology and the Analysis of the Ego. (1921)

❖ ❖ ❖

- «محاضرات تمهيديّة في التحليل النفسي»...

- «Introductory Lectures on Psychoanalysis» (E.);...
- «Introduction à la Psychoanalyse» (F.);...
- «Einführung in die Psychoanalyse» (D.)

نشر فرويد الجزء الأول من المحاضرات التمهيدية سنة ١٩١٥، ونشر الجزء الثاني سنة ١٩١٧، والجزءان قوامهما المحاضرات التي ألقيت على الأطباء وطلاّب الطب بجامعة ڤيينا في الفصلين الدراسيين الشتويين من العامين الدراسيين ١٩١٥ / ١٩١٦ و١٩١٦ / ١٩١٧، وترجمت المحاضرات إلى الإنجليزية ونشرت في أميركا سنة ١٩١٩، وكانت الترجمة سيئة وتأذّى منها فرويد كثيراً، وترجمت مرة أخرى ترجمة جيدة سنة ١٩٢٢ ونشرت في بريطانيا، وترجمت إلى الروسية سنة ١٩٢٥، وهكذا تتابعت الترجمات إلى مختلف اللغات، ومنها الترجمة العربية التي صدرت سنة ١٩٥٢.

وفرويد في هذه المحاضرات يتناول موضوعات التحليل النفسي كما لو كان المستمعون له لا يعرفون عنه شيئاً بالمرة، ولذا كانت المحاضرات عبارة عن شروح وتفسيرات للمبادىء الأولى للتحليل النفسي، ووصف المحاضرات لذلك بأنها تمهيدية، وصاغها سهلة، وحذّر من أنها لا تعدو معلومات عامة لا يمكن أن تكفي المتلقي ليصبح بها محلّلاً نفسياً، بل وحذّر المتلقين من مجرّد التفكير أن يحذوا حذوه ويصبحوا مثله محلّلين نفسيين، ذلك أنهم لو فعلوا لسدت في وجوههم الترقيات في السلك الجامعي، بل وسيجدون أنفسهم في بيئة معادية، وسيعانون من صعوبات تفضلها طبيعة التحليل النفسي، فالعلاج بالتحليل ليس كالعلاجات الطبيّة المعهودة ولكنه علاج يعتمد، على تبادل الألفاظ بين المحلّل والمريض، إذ يتكلم المريض ويروي خبراته وانطباعاته وانفعالاته، ويصغي الطبيب ويكتفي بتوجيه مجرى تفكير المريض، ويستثير ذكرياته، ويدلي إليه

بشروح وتفاسير، ويلاحظ إستجاباته، ولا يمكن لأحد من دارسي التحليل النفسي أن يحضر جلسات التحليل النفسي لما لها من خصوصية فريدة، ولما تقوم عليه بين الطبيب والمريض من صلات عاطفية خاصة، فضلاً عن أن ما يفضي به المريض للطبيب يمسّ أخص ما لديه من أفكار ومشاعر، وتتناول ما يخفيه عن الناس. وليس من سبيل إذن للمعرفة بالتحليل النفسي إلا عن طريق السماع، على عكس ما اعتاده طلبة الطب. على أن في وسع الهاوي للتحليل النفسي أن يتعلّمه بتطبيقه أولاً على نفسه، بدراسة نفسه وتأملها باطنياً، ثم في وسع الهاوي أن يقوم بتحليل نفسه على يد محلّل ماهر، فيعرف من خلال ذلك أسرار التحليل النفسي وتقنياته.

وثمّة صعوبة أخرى في التحليل النفسي أن أساسه سيكولوجي، والناس ينكرون على النظرة السيكولوجية طابعها العلمي، مع أن علوم الطب وعلم النفس التجريبي ليس فيها ما يفسر العلاقة بين النفس والجسم، والتحليل النفسي هو الوحيد الذي يملأ هذه الثغرة. ويهيىء الطب العقلي الأساس السيكولوجي الذي يفتقده، ويكشف عن العلاقة بين الاضطراب الجسمي والاضطراب النفسي.

وثمّة صعوبة أخرى هي أن الرأي الشائع أن كل ما هو نفسي هو شعوري، ولذلك كان علم النفس هو علم دراسة محتويات الشعور. وبينما التحليل النفسي يؤكد أن العمليات النفسية منها ما هو شعوري، ومنها ما هو لاشعوري، ولا يطابق بين النفسي والشعوري، ويذهب إلى دراسة التفكير والرغبات اللاشعورية.

ومن كشوف التحليل النفسي الجريئة والتي تثير عليه السخط الكثير أن النزعات التي توصف بأنها جنسية لها دورها الخطير في تسبيب الاضطرابات النفسية والعقلية، ولها دورها الإنشائي أيضاً في الحضارة الإنسانية، فالترقي بهذه النزعات وتجريد طاقتها من صبغتها الجنسية، وتوجيهها شطر أهداف إجتماعية سامية، كان هدفاً من أهداف التربية، ولا يتصوّر المجتمع لهذا السبب أن التحليل النفسي قد يعمل على كشف بعض أضرار قمع وكفّ وكبت

النزعات الجنسية بالدعوى أنه يطلقها من عقالها، ويعيدها إلى عنفوانها، بينما خير طريقة لضبط هذه الغريزة هي صرف الانتباه عنها تماماً، ولذلك لا يرحّب بكشوف التحليل في هذه الناحية ويفضّل أن يصفها بأنها كشوف ممجوجة جمالياً، وخطيرة أخلاقياً.

ويتكوّن الكتاب من ثمان وعشرين محاضرة، منها محاضرة كمقدمة للموضوع، وثلاث محاضرات في سيكولوجية الهفوات، ثم إحدى عشرة محاضرة في الأحلام، ثم ثلاث عشرة محاضرة في النظرية العامة للأمراض النفسية.

فأما الهفوات من أمثال زلاّت اللسان والقلم، وهفوات القراءة ونسيان الأسماء وضياع الأشياء بنسيان الأماكن التي وضعناها بها، فهذه جميعاً لها دلالاتها، وهي عمليات نفسية كاملة، وبعضها عبارة عن إدغام، أو إضمار، أو تكثيف، نتيجة التقاء أو تداخل رغبات أو مشاعر أو أفكار شعورية ولاشعورية، واللاشعورية هي الدخيلة، والشعورية هي المدخول عليها، والهفوات بمثابة الحل الوسط بين الاثنين.

وأما الأحلام فهي كالهفوات تنطوي على معان، كما أن أعراض المرض النفساني تنطوي على معان، ودراسة الهفوات والأحلام إنما يمهّد لدراسة الأمراض النفسية، والحلم نفسه عَرَض عصابي، ومن مميّزاته إمكان ملاحظته، والحلم هو الحياة النفسية للفرد أثناء النوم. والمنبهات الداخلية تقوم في الأحلام بالدور نفسه الذي تقوم به المنبهات الخارجية، ولا يصوّر الحلم المنبّه ما هو بل يتناوله بالتحوير والتعديل، أو يشير إليه، أو يدرجه في إطار خاص وملابسات خاصة، أو يستبدل به شيئاً غيره، وهذه ناحية من عملية صياغة الحلم. وأحلام اليقظة من المتخيّلات وتشاهد في الإسوياء وغير الأسوياء وترضي نزعات الفرد الهادفة للطموح والسيطرة، أو أنها ترضي رغباته الشهوية. والحلم في جملته بديل محرّف عن شيء لاشعوري. ويهدف تأويل الحلم إلى الكشف عن الأفكار اللاشعورية خلف الحلم. وتتعرّض عملية التأويل من جانب الحالم للمقاومة، وثبت أن الأفكار

والخواطر التي يريد الحالم أن لا يظهرها، وأن يقمعها ولا يكشف عنها، هي دائماً وبدون استثناء أهم الأفكار والخواطر. وللحلم محتوى ظاهر يرويه الحالم، ومحتوى باطن يظهر عن طريق التداعي فتنكشف الأفكار الكامنة للحلم. وتختلف أحلام الأطفال عن أحلام الكبار، فالأولى موجزة وواضحة وغير ملتبسة، وهي أفعال نفسية مفهومة ومكتملة، والتحريف ليس خاصة جوهرية من خصائصها، ومع ذلك فهناك تحريف ويبدأ من سن الرابعة ويعطي لأحلام الأطفال طابعاً طفلياً خاصاً بها. والحلم سواء للأطفال أو لغيرهم تحقيق لرغبة، إلا أنه عند الأطافل فإن الرغبة تسفر عن نفسها غير مقنعة. والأحلام كالهفوات حلول وسط بين ما هو ظاهر وما هو كامن. والحلم حارس النوم الذي يحميه من الإزعاج، والرقابة في الأحلام هي المسؤولة عن بعض ما يصيبها من تحريف وتشويه وحذف وتحوير وإعادة تنظيم، وتفرض الرقابة النزعات التي يرضى عنها النائم ويصادق عليها في اليقظة. وأما النزعات التي تُفْرض عليها الرقابة فهي المستنكرة والتي لا نوافق عليها أخلاقياً وجمالياً واجتماعياً، وهي نزعات لاشعورية. وعناصر الحلم هي رموزه للنزعات والأفكار اللاشعورية فيه، والحلم يستعصى على الفهم والتأويل بدون أن نترجم رموزه إلى لغة اليقظة، وتسمّى العملية التي يتحول بها الحلم الكامن إلى حلم ظاهر إخراج الحلم، ويُستعان في ذلك بعدد من الوسائل كالتكثيف والتنقل والتبديل، مهمتها صياغة الحلم بحيث يستعصى على الفهم، وتعود بالحلم نكوصاً إلى حالة بدائية، وذلك ما يُسميه فرويد الأسلوب الأثري Archaic - أي القديم؛ كأنه أثر من الآثار - الذي يصطنعه إخراج الحلم.

وأما الجزء الأخير من المحاضرات والخاص بالنظرية العامة للأمراض النفسية فإن فرويد يربط فيه بين ظواهر الهفوات والأحلام وظواهر الأمراض النفسية، ولا يجد تعارضاً بين الطب العقلي والتحليل النفسي وإن كان لكل مهما طرقه الفنية ونظريته، ويقول إن التحليل النفسي يقع من الطب العقلي موقع علم الأنسجة من علم التشريح،

حيث يدرس أحدهما الشكل الخارجي للأعضاء، في حين يدرس الآخر الأنسجة والخلايا التي تتكوّن منه هذه الأعضاء، فلا تناقض بن البحثين، ويصف الأعراض العصابية بأنها تعبيرات عن أفكار لاشعورية، وأن للأعراض العصابية دلالة ومعنى شأن الهفوات والأحلام. والأساس للأمراض النفسية عموماً هو التثبيت على اللحظة التي وقعت فيها الحادثة الصدمية، فالحادثة التي نسميها صدمية هي تلك التي تجتمع بها أعداد ضخمة من التنبيهات في لحظة وجيزة مما يترتب عليه اضطراب في توزيع الطاقة النفسية واستهلاكها. ومهمة العلاج النفسي هي تحويل كل شيء مسبّب للمرض في اللاشعور إلى منطقة الشعور، وسد كل الثغرات في ذاكرة المريض وإزالة كل ما لديه من نسيانات. وبمجرد الشروع في علاج المريض، يبدي المقاومة بأساليب متنوّعة، وتصطنع المقاومة حيلاً خاصة، ومن ذلك المقاومة الفكرية. وتستغلّ المريضات من النساء ظاهرة الطرح لصالح المقاومة، ويخلعن على المحلّل عاطفة شهوانية قوية حتى لتتلاشى عندهنّ كل اهتمامات بالموقف العلاجي الحالي. والمقاومات سمات خلقية واتجاهات للأنا يحشدها المريض لمناهضة العلاج وما يفرضه من تغييرات. وهذه المقاومات هي ما يسميه فرويد بالكبت، هو الشرط التمهيدي الأساسي لتكوين الأعراض، وجوهر الكبت هو فشل النزعات اللاشعورية أن تنفذ إلى منطقة الشعور أو ما يسمّى ما قبل الشعور، والقوة التي تقف حائلاً بين اللاشعور وما قبل الشعور هي نفسها الرقيب الذي يعطي الحلم شكله الظاهر ويموّه مضمونه الباطن. وليست الأعراض إلا بدائل لما اعترضه الكبت. والمقاومة أو الكبت يقوم بها الأنا عن سمات خلقية فيه ظاهرة أو كامنة. ولقد ثبت أن الأمراض النفسية الطرحية هي المجال الوحيد الذي يجدي فيه العلاج بالتحليل النفسي، وأن الأعراض العصابية بدائل عن الإشباع الجنسي، وأن الانحرافات الجنسية متصلة الأسباب بالأمراض العصابية، وأن الجنسية المنحرفة ليست سوى جنسية طفلية مضخمة ومفكّكة إلى أجزائها.

ويقدّم فرويد في هذا الجزء الأخير من كتابه نظرية في اللبيدو، وفي الحَصَر، والنرجسية، والطرح، والعلاج التحليلي، مما يطول شرحه. واللبيدو عنده هو الطاقة الدافعة وراء العمليات النفسية. ويثبت التحلل النفسي للإنحرافات والأعصبة أن مصدرها لبيدو الأنا، ويطلق عليه فرويد إسم اللبيدو النرجسي، وهو الحالة الأصلية التي تتحقق في الطفولة الأولى، وأما الحصر فيعرّفه بأنه حالة وجدانية ومزيج من مشاعر اللذة واللالذّة مصحوبة بما يناظرها من تعصيبات. وأول خبرات الحصر هي حصر الميلاد، ويدلّ حظر الدفعات الغريزية في الحصر العصابي على أنه نتيجة خوف من الخصاء لدى الطفل عقاباً على اشتهاء المحارم وإضمار العداء للأب، وهذا الخوف يظل فعّالاً لدى العصابي الراشد. والنرجسية هي عشق الذات، وفيها يتجه اللبيدو إلى الأنا بدلاً من موضوع خارجي. وكشرط أساسي للصحة النفسية لا بدّ من توزيع اللبيدو بين الذات والآخر. والطفل تبدأ معه أطوار نموّه بالطور النرجسي، ثم يتفاضل الأنا عن الهو فيصبح الأنا مركزاً للطاقة اللبيدية النرجسية، وهو ما يسميه فرويد النرجسية الأوّلية. وللنرجسية دورها في اختيار الموضوع عند الراشد، وفي الاختيار النرجسي يكون الموضوع مماثلاً للذات، وفي الحالات المرضية يرتد اللبيدو عن الموضوع إلى الذات، وفي العصاب يكون هذا الارتداد إلى التخيلات العصابية، بينما في الذهان أو العصاب النرجسي يكون الارتداد بالكامل وبدون رجعة إلى الذات والعودة إلى الطور النرجسي، ويتلخّص العلاج بالتحليل النفسي في ترحير اللبيدو من أية متعلّقات له ليست في متناول الأنا، وتطويعه للأنا من جديد. واللبيدو في الأمراض العصابية يتعلّق بالأعراض التي تتيح الإشباع البديل، والسيطرة على الأعراض يعني حلّها، ولا يتم ذلك إلا بالعودة إلى أصولها والصراعات التي تسبّبت فيها. والشطر المهم من العلاج يتلخص في البدء من صلة المريض بالطبيب - أي الظاهرة المسماة الطرح، فمن هذه الصلة تكون صراعات جديدة هي نسخة

مـن الصـراعـات الـقـديـمـة، ويـحـال المـريض أن يتصرف حيالها كما كان يفعل في الماضي. فإذا تركز اللبيدو وكل مـا يـوجـه إلـيـه مـن مـقـاومـة فـي مـوقـف الـمـريض مـن الـطـبـيب فـإن الأعـراض تتجرّد مما علق بها من اللبيدو، وينحلّ الـمـرض الأصـلـي لـيـحـلّ مـحـلـه طـرح إصطناعي أو مرض طرحي، حيث يكون الـطـبـيب هـو مـوضـوع مـتـخـيّل لـكـل الموضوعات المختلفة التي كان اللبيدو متعلقاً بها، وفي هذه الحالة يمكن لإيحاء المحلّل أن يبطل الصراع الجديد، فإذا استطاع أن يشفي اللبيدو من تعلّقه به هذا التعلّق العارض فإنه يخلُص للأنا. ومـن هـنـا نـرى أن الـعـلاج أسـاسـه خطوتان، في الأولى يقسر اللبيدو على الانسـحـاب عـن الأعـراض فـيـتـركـز فـي الطرح، وفي الثانية تكون المعركة بين الـطـبـيب والـمـريض لـيـتـحـرّر اللبيدو من التعلّق الجديد بالطبيب.

❖ ❖ ❖

– «محاضرات تمهيديّة جديدة في التحليل النفسي»...

- «New Introductory Lectures on Psychoanalysis»(E.);...
- «Nouvelles Conférences sur la Psychoanalyse» (F.);...
- «New Folge der Vorlesungen zur Einführungin die Psychoanalyse» (D.)...

هـذه الـمـحـاضـرات الـجـديـدة تـتـمـة لمحاضرات سبق لفرويد أن ألقاها في العامين الدراسيين ١٩١٥ /١٩١٦ و١٩١٦ / ١٩١٧، وكـانـت آخـر مـحـاضـرة ضـمـن الـقـديـمـة هـي الـمـحـاضـرة الـثـامـنـة والعشرين، وتبدأ الجديدة بالمحاضرة التاسعة والعشرين، أي أن المحاضرات القديمة والجديدة متواصلتان، ولا تلغي إحداهما الأخرى، مع أن ما بينهما هو نحو خمس عشرة سنة، حيث كان إلقاء المحاضرات الجديدة في العام الدراسي الجديد ١٩٣٢/ ١٩٣٣.

والمحاضرات كما نعرف يُراد بها طلبة أساساً، ولذلك يتميّز أسلوبها بالسلاسة

والوضوح الشديد، والاستطراد أحياناً لمزيد من الشرح وإزالة اللبس والغموض والإبهام. وكان فرويد قد ألقى المحاضرات القديمة بنفسه، فكان له حضوره المُقنع وسمته الجليل الذي يتميّز به أهل العلم وخاصة علماء التحليل النفسي. وهذه المحاضرات الجديدة لم يقيّض له أن يقف أمام طلابه ويلقيها، فالزمن لم يعد هو الزمن، والعمر والصحة ليسا كما كانا، ففرويد كان وقتها في السادسة والسبعين، وأجريت له عدة عمليات في فكه لإصابته بالسرطان وما كان يستطيع الكلام كالسابق، ولا الوقوف، ولذلك لم يزد عدد المحاضرات الجديدة عن سبع محاضرات، إبتداءً من التاسعة العشرين، وانتهاءً بالخامسة والثلاثين، وقد ألقاها غيره عنه. والمحاضرات القديمة كان نصفها مرتجلاً، والنصف الآخر أعده بنفسه خلال عطلة الصيف ثم ألقاها بنفسه، وأما المحاضرات الجديدة فقد استوحى فيها إلهام قاعة المحاضرات، واعتمد على تصوّراته للحضور وأسئلتهم، وكتبها على ضوء هذا التخيّل المبدع، ثم إنه جعلها من حيث صلتها بالمحاضرات الأولى ثلاث مجموعات، فالمجموعة الأولى تنتظم المحاضرات القديمة فيعرضها من جديد، تذكيراً للسامع والقارىء، وتنقيحاً لها وتعديلاً فيها بما طرأ على وجهة نظر فرويد من تغييرات، وهذه المجموعة إذن بمثابة المراجعات. وأما المجموعتان الأخريان فتشتملان على الجديد الذي لم يسبق أن تناوله فرويد من قبل، أو أنه ذكره لماماً لقلّة ما لديه من معلومات فيه، وأما وقد صار من الميادين والكشوف الجديدة للتحليل النفسي، فاستحق أن ينوّه به، وأن يكتب عنه باستفاضة.

وينبّه فرويد من جديد إلى أن هذه المحاضرات القديمة والجديدة لا تعدو أن تكون تمهيدية فقط لا غير، أي أنها بمثابة تقديم للتحليل النفسي للقارىء المثقف، وليس شرطاً أن يكون هذا القارىء طالب طب، أو طبيباً، أو أنها تعريف بهذا الفرع الجديد من علم النفس، وفرويد يعتبر التحليل النفسي من فروع علم النفس ليس من توابع الطب العقلي، وغيره يعتبره طباً نفسياً بخلاف

الطب العقلي. وهو كعلم جديد له مشاكله ونواقصه وشكوكه، وجميعها يعترف بها فرويد، ولعلّ التحليل النفسي، وموضوعه النفس الإنسانية، لا يمكن أن يزعم في يوم من الأيام أنه قد أحاط بها علماً، وأنه قد صار كأحسن ما يكون عليه العلم، ولم يعد في الإمكان أبدع مما كان، فإن كان للعلماء تواضع فهو أبيَن وأظهر وأجلى في ميدان التحليل النفسي.

ويتطرّق فرويد من جديد لنظرية الأحلام في محاضرتين، ويصوغ مصطلحين نصادفهما لأول مرة، هما نص الحلم، والأفكار الكامنة للحلم، ومهمة تأويل الحلم أن تردّ الحلم الظاهر إلى أفكار الحلم الكامنة. ومن الجديد في مجال الحلم ما أثبتته الدراسات اللغوية والأنثروبولوجية لوظيفة اللغة باعتباراتها الرمزية، والنشأة الواحدة الأثرية للأساطير والأحلام. وتأويل الأحلام والأساطير الرمزية في اللغة يميط اللثام عما يسمّيه فرويد المادة الخام التي تستقي منها البشرية جميعها وهي مادة يمكن اعتبارها غالباً جنسية بأوسع ما في الجنس من معان، وإن كانت استعمالاتها وتطبيقاتها قد اختلفت من بعد بما لاقت من تعديلات.

ومن الجديد في عالم الأحلام إكتشاف ما يُسمِّيه فرويد الحلم المتكرر، فكل الأحلام التي تُرَى في الليلة الواحدة تتصل موضوعاتها وإن بدت مجزأة، ومن ذلك أن يكون هناك حلم تمهيدي قصير غالباً علاقته بالحلم الرئيسي كعلاقة الشرط بالنتيجة، وأمثال هذه الأحلام الإثنينية لكل حلم منها دوره الوظيفي، بحيث لو نظرنا إليها معاً كانا تحقيقاً لرغبة من الرغبات في خطوتين، وذلك شيء لا يستطيع أيهما أداؤه بمفرده، وقد يكون أحدهما تحقيقاً لرغبة والآخر عقاباً على هذا التحقيق. وينبّه فرويد إلى أن ما جدّ في مجال التأويل بسيط، فالأحلام كما سبق أن أكّد تحقيق لرغبات أو محاولة لتحقيق رغبات، إلا أن ما صادفه من نقد ومشاكل في هذا الخصوص جعله يذهب إلى تصنيف الأحلام إلى ثلاثة أقسام، هي أحلام الرغبة، وأحلام العقاب، وأحلام القلق، وأحلام العقاب نفسها هي أحلام تحقيق رغبة، إلا أنها ليست رغبة الدوافع الغريزية بل رغبة

الأنا الأعلى. وينسب فرويد الرقابة في الحلم للأنا الأعلى. ويفسّر تكرار أحلام الخبرات الصادمة من الطفولة بأن تكرارها ربما يخلّص الحالم من آلام هذه الخبرات بما يطرأ على مواقفها التي استحدثتها من تحريفات في الحلم من شأنها اجتناب الألم، كما أن تكرارها ربما يتحقق فيه الأمل الذي أخفق. والأمر مختلف في أحلام خبرات الحروب الصادمة، فهذه أحلام حَصَر، الحالم بها يزيد حصره أو قلقه، فكأنها استثناء حيث المفروض أن الحلم هو حارس النوم، ولكن هذه الأحلام تتسبّب في الاستيقاظ وتُذهب النوم.

❖ ❖ ❖

ويتطرّق فرويد في المحاضرة الثانية إلى علاقة التحليل النفسي بالظواهر الغيبية كالإحساس من بُعد، أو ما يسمّى الاستحساس، وهو أن يشعر شخص بحادثة تقع في مكان بعيد عنه لحظة وقوعها تقريباً، وكالتخاطر وهو أن تنتقل الأفكار والرغبات والعمليات النفسية التي تجري لشخص إلى شخص آخر عبر الفضاء، ويفسّر فرويد الاتصال الأول بأنه مقابل نفسي للإبراق اللاسلكي، ويفسّر الاتصال الثاني بأنه المقابل النفسي للتكلّم والاستماع بالتليفون. ويؤكد فرويد أن التحليل النفسي يجعل من الممكن تصديق أمثال هذه الظواهر النفسية الغيبية، لأنه يوسط اللاشعور بين ما هو فيزيائي وبين ما هو نفسي، ويقول إن الظواهر الغيبية تذكرنا بأسلوب الحشرات التي تعيش في جماعات، فربما كان اتصالها عن طريق نفسي، كما أن هذا الأسلوب نفسه كان هو أسلوب التواصل بين أفراد الجنس البشري قديماً وتراجع أمام الأسلوب الجديد المعتمِد على الرموز والعلامات المدركَة بالحواس، إلا أن الناس في وقت الأزمات مثلاً يرجعون القهقرى إلى الأسلوب القديم وكلما استبدّت بهم حالات تستفزهم وجدانياً ويصيبهم منها الهلع، وشبيه بذلك خوف الأطفال أن يكشف آباؤهم ما يدور في نفوسهم من خواطر وأفكار.

❖ ❖ ❖

والجديد في المحاضرة الثالثة هو ما يضيفه فرويد إلى ما سبق أن أكده عن الجهاز النفسي وأقسامه، ويخصّ بالذكر الأنا الأعلى، ويكرّر مقولة كنط أن من دلائل العظمة الإلهية وجود الضمير الأخلاقي، وهذا الضمير هو الأنا الأعلى بلغة التحليل النفسي. وينكر فرويد الأصل الإلهي للضمير بدعوى أننا نولد كائنات لا أخلاقية، أي نولد غير مزوّدين بقوة داخلية تكفّ نزعات التماس اللذة، وأن الدور المنوّط بالأنا الأعلى تؤديه في الأطفال سلطة الأبوين، ثم يحدث استدماج للنواهي والزواجر والأوامر الأخلاقية ويحلّ الأنا الأعلى محل الوالدين. على أن هذه النقطة بالذات تختلف مع فرويد فيها بشدة، فلو لم يوجد الضمير كاستعداد ما كان من الممكن أن ينتقش بالأخلاق، والضمير كآلة خُلُقية يكون في الطفولة منفعلاً، ثم يصبح مع الزمن فاعلاً، ولقد ثبت أن الضمير أو الأنا الأعلى يتكوّن عند بعض الأطفال مبكراً جداً. والأنا الأعلى فيما يذهب إليه فرويد من آراء جديدة هو وريث نفوذ الأبوين، وانحيازه إلى ما يقومان به من ردع وعقاب، وأساس هذه العملية التقمّص، ويعرّفه بأنه تعيّن الأنا بأنا آخر يكون على شاكلته ويقلّده، ويفرّق بين التقمّص واختيار الموضوع، أنه حين يتقمّص الولد شخصية أبيه فإنه يهوى أن يكون مثله، ولكنه حين يجعله موضوع اختيار فإنه يريد أن يحوزه ويمتلكه، وفي الحالة الأولى يشكّل الولد أناه على غرار أبيه، وليس ذلك شرطاً في الحالة الثانية. ثم إن الأنا الأعلى أثناء نموّه يتأثر بشخصيات أخرى بخلاف الأبوين، وتحلّ محلهما ويراها نماذج له، والعادة أن يزاد ابتعاد الأنا الأعلى عن الأبوين الأصليين، ولذلك يقول فرويد إن الأنا الأعلى مع النمو يفقد شخصيته الأبوية بالتدريج، إلا أنه يتبقى من تأثير التنشئة الأبوية أثر هو الأنا المثالي، يتمثله الأنا ويتجه شطره ويجهد أن يحقق مطالبه لبلوغ الكمال.

ويوجّه فرويد النقد للماركسية إذ تفسّر التاريخ تفسيراً مادياً وتستبعد الأنا الأعلى كموجّه للسلوك، وتقيم البناء العقائدي الفوقي على الأساس الاقتصادي التحتي، وذلك حق في حدود، لأن النوع البشري لا يعيش الحاضر الاقتصادي فقط،

وسيكولوجية الأنا الأعلى تشمل الحاضر والماضي، ومنها تقاليد السلف وما استقرّت عليه الإنسانية عبر تاريخها كله، والماضي لا يتداعى تماماً للحاضر وتطوّراته إلا في بطء، ولا يسلّم له نفسه عن طواعية، وما دام الأنا الأعلى هو الذي يصل الإنسان بماضيه فدوره من أهم الأدوار في حياته بصرف النظر عن ظروفه الاقتصادية ما تقضيه - وهذا كلام طيب من فرويد إلا أنه يتناقض مع إنكاره السابق بأن الضمير فطري يولد به الإنسان، فكيف يستقيم أن يكون هو وريث الماضي وسلالة الجنس البشري ولا يكون فيناً فطرياً، ثم إن الضمير حاله كحال العقل، وكلاهما من آلات النفس التي ليست لها أماكن محدّدة في البدن، فإذا أسغنا أن الضمير لا نولد به فلا بدّ بالتبعية أن نسوّغ أن العقل لا نولد به، لأن الطفل لا يظهر عليه عند مولده أية دلالات عقلية.

ويجعل فرويد الأنا الأعلى أساس الاجتماع الإنساني وقوام الجماعة السيكولوجية، ويعرّف هذه الجماعة بأنها مجموعة أفراد إستدمجوا شخصاً بعينه في أناهم الأعلى فتقمصوا بعضهم البعض على أساس هذا العامل المشترك، وهذا طبعاً لا ينطبق إلا على الجماعة التي لها زعيم.

❖ ❖ ❖

وفي المحاضرة الرابعة يتناول فرويد الجديد في نظريتي الحَصَر والليبيدو ويؤكد على أن الكبت لا يصيب إلا الفكرة حتى لتُحرّض فلا تعود تُعرَف، وإما الوجدان الذي يصاحبها فيتحوّل دائماً إلى حصر مهما كان نوع الوجدان، عدواناً كان أو حباً أو غيرهما. ويؤكد كذلك أن الأنا هو المستقر الوحيد للحصر، وأن أنواع الحصر الثلاثة وهي الحصر الموضوعي والحصر العصابي والحصر الخلقي -يمكن أن تُردّ إلى علائق الأنا الثلاث - هي العالم الخارجي، والهو، والأنا الأعلى. ويأخذ فرويد برأي لفيرينزي أن فقدان القضيب ينجم عنه استحالة الاتصال بالأم أو ببديلة عنها في الفعل الجنسي، وأن تخيل العودة إلى الرحم وهو تخيل مشاع، بديل عن هذه

الرغبة في الجماع. ومن آراء فرويد الجديدة أن الحصر هو الذي يسبّب الكبت وليس العكس كما كان يظن، وأن المواقف الغريزية المخوفة يمكن أن ترد في نهاية الأمر إلى مواقف خارجية خطرة. وهو يرى على العموم أن كل ما في موضوع الحصر يتغيّر ويتطوّر باستمرار، وأن له مصدرين مزدوجين، فإما أن يكون نتيجة عامل صَدْمي، وإما أنه علامة على أن عاملاً صدمياً من هذا النوع وشيك الوقوع.

ولم يرَ فرويد ما يدعو إلى الاعتقاد بوجود غريزة جنسية واحدة، ومال إلى الأخذ بتمييز أبراهام بين شقين في الطور السادي الشرجي، في أوّلهما يكون مركز الصدارة للنزعات الهدّامة، وفي الثاني تسود النزعات الوديّة للموضوعات بهدف المحافظة عليها واستبقائها..، ويفترض فرويد أن الطور الفموي أيضاً له شقّان، الأول شفوي لا تناقض فيه بين الرضيع وبين الموضوع وهو ثدي الأم، وفي الثاني تظهر الأسنان ويستعملها الطفل في العض والقضم، وهذا الشق هو السادي الشفوي وفيه تظهر بدايات التناقض الوجداني بين الطفل والأم وتبرز في الطور التالي السادي الشرجي، وتفيد هذه التمييزات الجديدة في الكشف عن مراكز التثبيت في تطوّر اللبيدو والتي تهيىء لبعض الأمراض النفسية. وكذلك ينبّه فرويد إلى تغيّر موقفه من أطوار التنظيم اللبيدي، فقد كان يؤكّد قديماً على الطريقة التي يخلي بها طور معيّن السبيل إلى الطور الذي يليه، فأصبح يتجه أكثر إلى الاهتمام بمقدار ما يعلّق من اللبيدو من الطور السابق بالتنظيم اللاحق، وما يبقى منه وراءه فيكون له أثره الدائم في أخلاق الفرد. وأصبح يهتم بما قد يحدث من نكوص لبيدي إلى أطوار سابقة في حالة الظروف المرضية، وبأنواع النكوص التي تتميّز بها بعض الأمراض دون بعضها. وكذلك أصبح يهتم بالاتجاهات التي تتخذها النزعات الغريزية في المنطقة الشهوية الشرجية، وقد نبهه أبراهام إلى أن الشرج هو المُناظر للفم البدائي من ناحية التكوين الجنيني، وانحدر حتى بلغ نهاية الأمعاء، فعندما يستقبح الفرد برازه من بعد فإن اهتمامه الغريزي الصادر عن المواضع

الشرجية يزاح إلى موضوعات يمكن أن تعطى كهدايا، لأن البراز - كما يقول أبراهام - أول هدية يستطيع أن يقدمها الرضيع، فإذا اضطرّ إلى إهمال البراز فما ذلك إلا لانصرافه لحب الشخص الذي يرعاه، لكن الاهتمام القديم بالبراز يعود إليه فيما بعد على هيئة اعتزاز بالنقود والذهب وما إلى ذلك مما يشبه البراز. كما أننا نعلم أن الأطفال يعتقدون أنهم يولدون من الشرج ويتخارجون منه كتخارج البراز، فالتبرّز أول طرز الولادة عند الطفل، والأطفال يتشبثون بهذه النظرية - نظرية المِبرز Cloaca theory. وكذلك القضيب فله عندهم سابقة في عمود الغائط الذي يملأ الغشاء المخاطي للأمعاء ويهيّجها، فإذا رأى الطفل أن البعض قد لا يكون له قضيب فقد يبدو له كأنه شيء يمكن فصله عن الجسم وكأنه يشبه الغائط من كل الوجوه. ومن هذا المنطلق يشحن الطفل قضيبه بجانب من شهويته الشرجية، ثم إن القضيب علاوة على ذلك يرث شيئاً من حَلَمة ثدي الأم فيشحن على ذلك شحناً شهوياً فموياً علاوة على الشحن الشهوي الشرجي.

وكذلك يأخذ فرويد بنظرية لو أندرياس سالومي عن المهبل حيث ينبّه إلى أن المهبل كذلك يشحن شحناً شرجياً باعتباره - بتعبير سالومي - مستأجراً من المستقيم، كما أن المهبل يحلّ محل الشرج عند المُصابين بالجنسية المثلية (اللواط). وفي الأحلام كثيراً ما يحدث أن نحلم بحجرة تنقسم إلى إثنين بحاجز أو نرى العكس، وهي إشارة واضحة إلى علاقة المهبل بالمستقيم. ويندرج الاهتمام الشهوي الشرجي السابق بالتنظيم التناسلي في شكل رغبة الأنثى أن يكون لها قضيب (شبيه البراز في الأمعاء)، وأن تلد طفلاً (شبيه البراز كهدية)، ويرتب فرويد على هذه الدراسات للأطوار قبل التناسلية دراسات أخرى في تكوين الخُلق حيث تبين ثلاث خصال دائمة هي العناية بترتيب الأشياء، والتقتير، والعناد، وهذه تنشأ من تشتت الشهوية الشرجية واستخدامها بطرق أخرى، ويطلق عل ذلك إسم ثالوث الخُلق الشرجي، وينبّه فرويد كذلك إلى الارتباط بين هوية مجرى البول والطموح.

والجديد في نظرية فرويد في الغرائز أنه صار يعتبر من الممكن أن تلتحم الغرائز الشهوية بالغرائز العدوانية، ويعتبر جميع النزعات الغريزية تشكيلات من هذا الالتحام، ومن ذلك مثلاً إلتحام الماسوشية بالسادية. وقد ينفك الالتحام، وانحلال النزعات الغريزية يجر أوخم العواقب وأخطرها.

وفي مجال المقاومة التي يبديها المريض أثناء العلاج النفسي يقول فرويد إنه اكتشف أن هذه المقاومة مصدرها الحاجة إلى عقاب النفس، وأدرج ذلك ضمن الرغبات الماسوشية، ووصفها بأنها أكبر عقبة في طريق العلاج، وأنها تتصرف كما لو كانت جزءاً من الضمير أو امتداد الضمير في اللاشعور، أي أنها جزء عدواني مستبطن قد استحوذ عليه الأنا الأعلى، واقترح تسميتها بالإحساس اللاشعوري بالذنب، وعرف من يستبد بهم هذا الإحساس أثناء العلاج التحليلي باستجاباتهم السلبية. وتستحوذ الصلة بين الإحساس اللاشعوري بالذنب وبين الأخلاق والتربية والجريمة والجُناح على عناية وبحوث التحليل النفسي «حالياً».

❖ ❖ ❖

والمحاضرة الخامسة عن نفسية المرأة، وهي لا تُعد من المحاضرات الممهدة للتحليل النفسي، وليس من شأن التحليل النفسي أن يحاول وصف ماهية المرأة فهذا عمل يتعذر القيام به، لكنه يبحث في الكيفية التي بها يستطيع الطفل ذو الاستعدادات المزدوجة الجنسية أن يميل إلى الذكورة أو إلى الأنوثة. ويصدر التحليل النفسي في دراسته للمرأة عن رأيين سابقين، الأول أن طبيعتها لا تتكيّف لوظيفتها دون مقاومة، والثاني أن التغييرات الحاسمة تتهيّأ أو تتم فيها قبل سن البلوغ. وتتطوّر البنت إلى امرأة بطريقة أكثر عناءً من الطريقة التي يتم بها تطوّر الصبي إلى رجل. والبنت الصغيرة تكون في العادة أقل عدواناً، وأقل اكتفاء بنفسها من الصبي الصغير، وفي حاجة إلى عطف أكبر، وأكثر طواعية واعتماداً على الغير من الصبي، وتتعلّم ضبط مثانتها

وأمعائها أسرع وأسهل، وأكثر ذكاء وحيوية من الصبي في مثل عمرها، وأكثر تساهلاً مع العالم الخارجي، وأشد تعلّقاً بموضوعاته، وأسبق في النمو، ولكنهما يجتازان الأطوار الباكرة من النمو اللبيدي على المنوال نفسه، والمظنون أن تكون البنت أقل عدوانية في الطور السادي الشرجي، لكن المحلّلات من النساء وجدن أن الدوافع العدوانية عند صغار البنات لا ينقصها العنف، وفي الطور القضيبي يكون البظر عند البنت هو المكافىء للقضيب عند الصبي، ومع تقدم البنت في الأنوثة يسلم البظر حساسيته للمهبل تدريجاً، وبهذا تنتقل الأهمية إلى المهبل. وكان أول موضوع للحب عند البنت هو أمها، لكن الأب يصبح موضوع حبها في الموقف الأوديبي، وكانت الأم أول موضع للحب عند الصبي وستظل كذلك في الموقف الأوديبي، وكأن على البنت إبان نموّها أن تغيّر موضوع حبها ومنطقتها الشهوية، على عكس الصبي الذي يحتفظ بالاثنين معاً دون تغيير. ولعلّ هذا هو ما يجتذب البنات عادة نحو الرجال، وما يبقي عدد كبير منهنّ متعلّقات بآبائهنّ. وعلى كل فالبنت تظل متعلّقة بأمها إلى ما بعد الرابعة وبعد ذلك يتحول تعلّقها إلى الأب. وتتلخص الصلات اللبيدية بين البنت وأمها بحسب المراحل الثلاث للأطوار الجنسية، وتتخذ خصائص كل طور وتفصح عن نفسها برغبات شفوية وسادية شرجية وقضيبية، وتمثّل نزعات فاعلة وقابلة، وذكرية وأنثية، وعدائية وودية. ومن الكشوف الهامة التي ينبه إليها فرويد الرغبة لدى لبنت في تحبيل الأم بطفل، وإنجاب طفل من الأب، وكلتا الرغبتين تنتميان إلى الطور القضيبي. ومن هذه الكشوف أيضاً أن الخوف من القتل أو التسمّم الذي قد يصبح أساساً لاضطراب هذائي فيما بعد، يرجع تاريخه إلى العهد السابق للموقف الأوديبي ويكون موجهاً نحو الأم.

ويعزو فرويد للأنثى عقدة خصاء كالتي عند الذكر، إلا أن مضمونها يختلف، فعند الذكر هي خوف من الإخصاء ولكنها عند الأنثى هي حسد للقضيب. والحسد والغيرة لهما في حياة الأنثى دور أكبر مما لدى الذكر. واكتشاف

البنت ما هي عليه من نقص في جهازها التناسلي هو نقطة تحوّل خطيرة في حياتها وتطوّرها وتفضي بها إما إلى التعطل الجنسي، أو المرض النفسي، وإما إلى تحريف في الخلق بتكوين عقدة ذكورة، وإما إلى الأنوثة السوية. وعلى أي الأحوال فإن التاريخ الباكر للأنوثة يظل معرّضاً للاضطرابات نتيجة ما يتخلّف من آثار أنثوية وذكرية عبر تطوّرها، والنكوص إلى مراكز التثبت للأطوار السابقة، ولذلك كثيراً ما تتناول المرأة حالات ذكورة وأنوثة حتى أن ما نسميه لغز المرأة يكون مداه تلك الثنائية الجنسية في حياة المرأة. ويقول فرويد إن البرود الجنسي عند المرأة ظاهرة غير مفهومة إلا أنه يفترض لها عوامل إستعدادية فطرية أو تترتّب على عامل تشريحي، ويرى أن حظ النساء من النرجسية أكبر، وهذا يؤثر في اختيارهن لموضوع الحب بحيث يخترن أن يكن محبوبات على أن يكن محبّات. ويرجع فرويد الزهو والعُجب عند المرأة إلى مغالاتهنّ في تعويض ما يستشعرن من نقص جنسي أصيل (حسد القضيب)، ومن ذلك أيضاً الحياء عند النساء حيث هو رد فعل للشعور بالنقص ولستر هذا النقص. والمرأة لم تشارك إبداعياً في الحضارة غالباً إلا بالنسج والتضفير إلا نتيجة حسد القضيب، فلولا أنهن افتقدن القضيب لما تركز اهتمامهن على شعر العانة وحفلن به هذا الاحتفال الذي يظهر رد فعله كميل لنسج الضفائر والأنسجة. وتختار البنت في الأحوال العادية كموضوع لحبها للرجل الذي تود أن تكونه - أي أنها تختاره وفق مثلها النرجسي. ولو كانت البنت حبيسة عقدة أوديب لكانت اختارت رجلها على طراز أبيها، ولأنها تناقضت في مشاعرها تجاه أمها - وهو ما لم تفعله تجاه أبيه - فإن عداءها للأم يجعلها تختار على غير المثال الذي اختارته أمها - أي على غير مثال أبيها. وقد يمتد عداء البنت لأمها على الموضوع الجديد فيرث الزوج مكانة الأب في أول الأمر، ثم يصبح موضوع كراهية الأم والزوجة معاً باعتبارات الحب والبغض والحسد والغيرة التي لهما تجاهه كذكر، وتظلّ بقية حياة الإبنة مع هذا الزوج في شجار، فلو طلقت وتزوّجت فسيكون زواجها الثاني خيراً من الأول.

وقد يحدث أن تتقمص الإبنة دور الأم بعد ولادتها لطفلها الأول، وقد يعيد هذا التقمص إلى مسرح حياتها تمثل زواج أبويها التعس. وأما عقدة القضيب القديمة فستظلّ معها وتتمنى لذلك أن يكون أول مولود لها ذكر، والشيء الوحيد الذي يرضي الأنثى أن تكون صلتها بطفل ذكر، فهذه - كا يرى فرويد - أتم صلة بين شخصين وأكثرها تحرّراً من التناقض الوجداني، فالأم تستطيع أن تحوّل إلى ابنها أي طموح قمعته في نفسها، كما أنها تستطيع أن تسترضي بعلاقتها به ما بقي عندها من عقدة ذكورة، ولا يفلح الزواج عموماً إلا إذا اتخذت المرأة من زوجها طفلاً لها تقوم بدور الأم نحوه.

ويتمثّل تقمّص البنت لأمها في الطور السابق للموقف الأوديبي وفيه تتخذ الأم نموذجاً ومثالاً، وأما في الطور الأوديبي فالبنت تعادي الأم وتناقضها، وكلا الطورين يتركان أثرهما في شخصية البنت، إلا أن الطور قبل الأوديبي وتقمّص البنت لدور أمها هما اللذان يتركان أبلغ أثر في مستقبل البنت كأنثى، وفي تمثلها لدورها الجنسي وقيامها به على خير وجه، وفي نشاطها الاجتماعي. وهذا التقمّص يكسبها في عين الرجل جاذبية تزكّي فيه تعلّقه الأوديبي بأمه.

ويترتّب على غلبة الحسد عند المرأة أن حظها من العدل قليل، وتقلّ قدرة المرأة على التسامي بغرائزها، وعلى إظهار الاهتمام بالمسائل الاجتماعية، لأنها أميل إلى الاستكفاء بأسرتها. والمرأة في سن الثلاثين تجمد على ما هي عليه في حين أن الرجل يبدو متفتحاً أكثر.

❖ ❖ ❖

وفي المحاضرة السادسة يتناول فرويد بعض تطبيقات التحليل النفسي وخاصة في جال الطفل والتربية، ويتعرّض لنقد المدارس المنشقة على مدرسة التحليل النفسي وأخصها مدرسة علم نفس الفرد عند أدلر، ومدارس كمدرسة رانك، ومدرسة فيرينزي، ومدرسة رايخ، ويسخر بشدة من نظرة أدلر الأحادية ووصفته السحرية لعلاج كل الأمراض النفسية

مهما تناءت وتباعدت أسبابها. وكان شديد القسوة على أدلر بالذات، ونوّه بأن كل مدرسة انشقت عليه إنما اخذت عن جانباً وأكدته على بقية الجوانب، ويعدّد ما استحوذ كل منها، كغريزة حب التسلّط والسيطرة مثلاً، أو الصراع الخلقي، أو عقدة الأم، إلى غير ذلك، ويعيب على هذه المدارس أو هؤلاء المنشقين أنهم بنوا استقلال مدارسهم على أساس تبنّى هذه النظرة الواحدية.

وينوّه فرويد بجهود إبنته أنّا فرويد في تطبيق التحليل النفسي في مجال التربية وتنشئة الأجيال المقبلة، ويباهي بأن التحليل النفسي استطاع أن يصحّح عدداً من الآراء الشائعة عن الطفولة، باعتبار أن في السنوات الاولى تزدهر النزعات الجنسية ذلك الازدهار الذي يقرّر مصير الحياة الجنسية عند الراشد. ويكون أنا الطفل خلال ذلك ما يزال فجاً ومن ثم يكون أثر خبرات الطفولة عليه كأثر الصدمات، ولا يستطيع هذا الأنا المتهافت أن يقي نفسه من خلال الكبت، وبهذا يتهيّأ الأنا للاضطرابات الوظيفية المستقبلة. بالإضافة إلى أن مرحلة الطفولة هي المرحلة التي يفرض أن الطفل يمر فيها بكل ما مرّت به الإنسانية وما حصّله الإنسان من رقي ثقافي على مدى عشرات الآلاف من السنين، أي يتعين عليه أن يتعلّم كيف يضبط غرائزه ويتكيّف مع بيئته الاجتماعية. والطفل لا يستطيع ذلك من تلقاء نفسه وإنما يقسر على ذلك بالتربية، وتصيبه من جرّاء التربية الخاطئة أمراض نفسية قد لا تظهر عليه في طفولته ولكنها تسفر عن نفسها في مستقبل حياته. ولقد صارت للتحليل النفسي طرقه الخاصة لتحليل الأطفال وعلاجهم، والطفل من اليسير تحليله، وعلاج الطفل أيسر لأن أناه الأعلى لم يتكون بعد، وهو بعد غضّ سهل التشكيل ولا توجد مقاومات داخلية عنده إلا ما كان من جهة إعتراضات الأبوين. ويمر أغلب الأطفال بأطوار عصابية في نموّهم، ويستثير ذلك بطبيعة الحال أمر الصحة النفسية الوقائية، ومن الحكمة الاستعانة بكشوف ونتائج التحليل النفسي في تحرير الطفل من المرض النفسي حتى وإن لم تبد عليه علامات الاضطراب النفسي، تماماً كما نحصن الأطفال ضد

الأمراض المُعدية. وخير وسائل التربية طبقاً للتحليل النفسي ما كان بين محظورين، فلا ينبغي أن نطلق العنان لغرائز الطفل، ولا ينبغي أيضاً أن نخنقها فيه ونصيبه بالإحباط، ولا يجب أن يكون سلوك المربي واحداً مع كل الأطفال وينبغي أن يأخذ المربي نفسه بالتحليل أولاً قبل أن يتصدى لعملية التربية.

وإلى جانب جهود المحلّلين في مجال التربية فإن لهم آثارهم أيضاً في مجال الجُناح والجريمة وطرق منعهما، وهناك الكثير من الكشوف في هذا المجال. وتتعدّد طرق العلاج متآزرة مع الطب النفسي وطرقه، والعلاج التحليلي هو إحدى الطرق، وهو طريقة متميّزة. ومن الواجب أن يتعاون المحلّل النفسي مع المعالج النفسي فتقصر مدة العلاج وتحقّق أبهر النتائج.

❖ ❖ ❖

والمحاضرة السابعة والأخيرة يتناول فيها فرويد إمكانية أن يكون للتحليل النفسي نظرة شاملة للكون بأسره، أي إمكانية أن يكون للتحليل النفسي فلسفة، أو أن يكون التحليل النفسي عقيدة في عصر كثرت فيه الفلسفات والعقائد كالماركسية وغيرها، ويجيب فرويد بالنفي، فالتحليل النفسي حركة ضمن الحركات العلمية، وغايته فهم الإنسان وترقية الوضع الإنساني. والتحليل النفسي ليس فلسفة، وليس ديناً من الديانات، ومن الخطأ أن نعامله كذلك، إلا أن للتحليل النفسي رأياً في الماركسية، ورأياً في الدين، وفي الفلسفة، وفي الفن، وفي العلم، وفي أصولهم وتطوّراتهم، وكان مناهضاً لكل ما هو غير علمي سواء في الفلسفة أو الدين، وقد أنكر على الماركسية جدلها الهيجلي الغامض، وردّ حركة التاريخ إلى صراع الطبقات، وقال إن عوامل النصر في التاريخ كانت دائماً «عوامل نفسية» كمبلغ العدوان المجبول في النفس، أو درجة التماسك الاجتماعي، وعوامل مادية كامتلاك الأسلحة الأمضى والأفتك، وتحكم الإنسان في قوى الطبيعة، فذلك هو ما يؤثر حتماً في النظم الاجتماعية. وليست الدوافع الاقتصادية هي الوحيدة التي تتحكم في

سلوك الناس في المجتمع. ولا شك أن الشعوب والسلالات يختلف سلوكها في الظروف الاقتصادية نفسها. والعوامل النفسية تسهم في إقامة الظروف الاقتصادية وتحدّد أفعال الناس، والإنسان يعمل في ظل أية ظروف اقتصادية متمثلاً لنزعاته الغريزية، كغريزة المحافظة على النفس، وحب العدوان، والحاجة إلى الحب، ودوافعه لالتماس اللذة واجتناب الألم. ثم إن جمهرة الإنسانية خاضعة للضرورات الاقتصادية تتعاورها عمليات تطوّر ثقافي أو حضاري تتأثر بكل ما سبق ولكنها أيضاً مستقلّة في نشأتها.

❖ ❖ ❖

– المحتوى الظاهر...

- **Manifest Content (E.);...**
- **Contenu Manifeste (F.);...**
- **Manifester Inhalt (D.)...**

يُقدّم فرويد هذا المصطلح في كتابه «تأويل الأحلام» (١٩٠٠) ويعرّفه بأنه الرواية الوصفية التي يرويها الحالم عن حلمه، ويرتبط بذلك أن للحلم محتوى كامناً هو الأفكار الخبيئة التي يحاول المحلّل أن يظفر بها من الحالم حول حلمه عن طريق التداعي. والمحتوى الظاهر هو نتاج عمل الحلم، بينما المحتوى الكامن هو نتاج العمل العكسي وهو تأويل الحلم.

❖ ❖ ❖

– المحتوى الكامن...

- **Latent Content (E.);...**
- **Contenu Latent (F.);...**
- **Latenter Inhalt (D.)...**

المحتوى الكامن بالمعنى الواسع هو مجموع ما يكشف عنه التحليل النفسي من تداعيات المحلّل (بفتح اللام) وتأويلات المحلّل (بكسر اللام)، وبالمعنى الضيق هو المقابل للمحتوى الظاهر للحلم. وعندما يتحدث فرويد

عن المحتوى الظاهر فقد يقتصر على ذكره باسم المحتوى فقط، ولكنه عندما يتناول المحتوى الكامن فإنه كثيراً ما يؤثر استخدام الأفكار الكامنة للحلم. والعنصر الظاهر من الحلم ليس إلا جزءاً بذاته من الأفكار الكامنة، أو هو نتفة صغيرة من بناء نفسي كبير مركب من الأفكار اللاشعورية للحلم، تطرّقت إلى الحلم الظاهر ونفذت فيه فبدت جزءاً منه، وقد تبدو أحياناً كأنها إشارات أو إلماحات، أو كأنها تعبير رمزي أو إصطلاح تلغرافي مختزل للأفكار الكامنة، ومهمة التأويل أن يكمل هذا الجزء أو يستجلي هذه الإشارات.

مراجع

- Freud: The Interpretation of Dreams, (1900)

❖ ❖ ❖

– المرأة أو الأم القضيبية...

- Phallic Woman or Mother (E.);...
- Femme ou Mère Phallique (F.);...
- Frau oder Mutter Phallische (D.)...

(أنظر المرحلة القضيبية أو القضيب).

❖ ❖ ❖

– المراحل الليبيدية...

- Libidinal Stages (E.);...
- Stades Libidinals (F.);...
- Libidostufen (D.)...

نظرية المراحل الليبيدية من أكثر نظريات التحليل النفسي إسهاماً في تأصيل فكرة المراحل في علم النفس وتأدّت إلى التأسيس لعلم النفسي التكويني، وفرويد فيها من الرواد الأوائل واهتمام فرويد بالمراحل منذ سنة ١٨٤٦ حيث قال بمراحل عمرية تسجل التطوّرات المختلفة للنمو، وتطوّر الإصابة

بالأعصبة. وفي كتابه «ثلاث مباحث في نظرية الجنس» (١٩٠٥) يربط مراحل العمر بسيادة بعض المناطق الجنسية أو المناطق المولّدة للغلمة، من مثل منطقة الفم، والمنطقة الشرجية، والمنطقة التناسلية، وتشحن هذه المناطق شحناً لبيدياً، ويشكل اللبيدو الخاص بها ما يسمّى بالغرائز الجنسية الجزئية. وفي الكتاب السابق يجعل التعارض بين الجنسية البالغة أو الراشدة التي تنتظم تحت سيادة المنطقة أو المرحلة التناسلية، وبين الجنسية الطفلية التي تتعدّد فيها الأهداف الجنسية بحسب المناطق الجنسية المولّدة للغلمة، ويطلق على المرحلتين اللبيديتين الفموية والشرجية إسم المرحلة قبل التناسلية كمقابل للمرحلة التناسلية. وتظهر الشواهد اللبيدية الطفلية كمظاهر لعملية نمو لبيدي منتظمة تزيد تدريجاً حتى تصل إلى الذروة في نهاية العام الخامس تقريباً، وتتبع ذلك فترة سكون يقف فيها النمو، وفي نهاية الفترة التي تسمّى فترة الكمون تبدأ الحياة الجنسية تستأنف نشاطها من جديد عند البلوغ، وبمعنى آخر تبدأ الحياة الجنسية تزدهر مرة ثانية.

والفم أول منطقة شبقية تظهر عقب الولادة وتلحّ لإشباع مطالبها اللبيدية. ويتركز النشاط النفسي في هذه المرحلة حول إشباع حاجات هذه المنطقة. وتظهر الدوافع السادية أثناء المرحلة هذه مع ظهور الأسنان، وتزداد هذه الدوافع أثناء المرحلة اللبيدية الثانية التي يطلق عليها فرويد إسم المرحلة السادية الشرجية، لأن الطفل في هذه المرحلة يصرف طاقته اللبيدي على تحصيل اللذة من وراء العدوان وعن طريق وظيفة التبرز، ويفسّر فرويد إشتمال اللبيدو الفموي والشرجي على الدوافع العدوانية بافتراض أن السادية عبارة عن امتزاج غريزي لدوافع لبيدية صرفة ودوافع عدوانية صرفة، ويستمرّ هذا الامتزاج من بعد بلا انقطاع.

والمرحلة اللبيدية الثالثة هي ما يُعرف باسم المرحلة القضيبية، وهي المرحلة الممهدة للحياة الجنسية وتشبهها شبهاً كبيراً، ولا ينصب اهتمام الطفل فيها على الأعضاء التناسلية للجنسين، وإنما يهتم

فقط بعضو الذكر التناسلي (القضيب)، وأما العضو التناسلي الأنثوي فيظل مجهولاً من الولد والبنت معاً، لأن الأطفال في هذه السن حينما تبدأ محاولاتهم في فهم العملية التناسلية يظنونهامرتبطة بالشرج ويتوهمون أن الولادة تحدث منها. وبحلول المرحلة اللبيدية القضيبية تبلغ الحياة الجنسية للطفل ذروتها مع افتراض وجود القضيب عند الجنسين. ويدخل الصبي المرحلة الأوديبية، ويبدأ في اللعب بقضيبه، ويصاب أعظم صدمة نفسية في حياته بتهديده بالخصاء، ولما يراه من حرمان البنات من القضيب، وذلك معنى آخر للخصاء. وأما البنت فإنها إذ تدرك حرمانها من القضيب أو بالأحرى ضآلة قضيبها بالنسبة لقضيب الصبي، فإن ذلك يؤثر في تكوين شخصيتها تأثيراً لا يزول.

ولا تظهر هذه المراحل الثلاث متتابعة بدقة، فقد تظهر مرحلة منها بالإضافة إلى مرحلة أخرى، وقد تظهر كل مرحلة قبل أن تنتهي المرحلة السابقة، وقد توجد المراحل الثلاث في وقت واحد.

وتظهر في المرحلة القضيبية بوادر نوع من التنظيم الذي يُخضع الغرائز المتعلّقة بالمناطق الشبقية لسلطة واحدة هي سلطة الأعضاء التناسلية، وينضوي فيه السعي العام وراء اللذة في خدمة الوظيفة الجنسية، ولا يبلغ هذا التنظيم كماله إلا عند البلوغ في المرحلة اللبيدية الرابعة وفي المرحلة التناسلية. وأثناء ذلك تستبقي بعض المناطق الشهوية السابقة بعضاً من شحناتها اللبيدية السابقة، في حين ينضم غير ذلك من الشحنات اللبيدية الأخرى إلى الوظيفة الجنسية في صورة أعمال تمهيدية أو مساعدة للفعل الجنسي تتحصل بها النشوة التي تسبق الفعل الجنسي. ولا تتم هذه العمليات دائماً على نحو كامل بسبب أنواع الكف الذي يتناول النمو النفسي اللبيدي، وتعلن عن نفسها في الاضطرابات المختلفة التي تصيب الحياة الجنسية. ويحدث تثبيت للبيدو في بعض الحالات التي تستقل عن الاتجاه الجنسي العادي ، وهو ما يُعرف بالانحراف الجنسي.

ويؤكّد فرويد على التتابع الزمني في الوصول إلى الموضوع اللبيدي حيث يمر

الطفل أثناء ذلك على التوالي بالشبقية الذاتية، وبالنرجسية، وبالاختيار الجنسي المثلي للموضوع، وصولاً إلى الاختيار الجنسي الغيري. ويحكم هذا التطوّر سيادة مبدأ الواقع على مبدأ اللذة، ويتيح تطوّر الأنا التحول من سيادة مبدأ اللذة إلى سيادة مبدأ الواقع إذ أن نمو الأنا هو الذي يسمح بالتمييز بين ما هو ذاتي وما هو خارج الذات أي يمت للعالم الخارجي، ويسمح بتأجيل الإشباع اللبيدي والسيطرة النسبية على الدوافع الغريزية.

مراجع

- Freud: An Outline of Psychoanalysis. (1900)

❖ ❖ ❖

– المراهقة...

- **Adolescence (E.; F,);...**
- **Jugendzeit (D.);...**

المرحلة من العمر بين الطفولة والرُّشد، ويُقال إنها المرحلة الثانية زمنياً، ولها بداية ونهاية وتتسم بتغيّرات بدنية وفسيولوجية ونفسية. وصفها فرويد (١٩٣٦) بأنها مرحلة بداية البلوغ حيث تنقلب موازين الجسم بتغيّرات كمية في البواعث وفي الأنا الطفولي، ويتولد عن النمو القلق، ويدخل المراهق في معركة للبقاء يستخدم فيها كل أسلحته للدفاع عن نفسه، ويتعدّل تنظيم الأنا والأنا الأعلى ليتناسب مع الأشكال الجيّدة الناضجة للعلاقات الجنسية وغيرها، وفي بعض الظروف قد يتشدّد الأنا ويمنع عملية النضج الجنسي، وأحياناً يكون التدخل من جانب الهو فيستحدث إضطراباً شاملاً في وظائف الأنا الذي كانت توجهاته إجتماعية خالصة في مرحلة الكمون السابقة على المراهقة، وكما يقول إريكسون فإن أزمة المراهقة تبدأ مع محاولة المراهق أن يصوغ لنفسه هوية، وتنتهي تعيّناته بشخصيات الماضي، فإذا كانت خبراته من النوع البنّاء فإن المراهق ينمو إلى الرشد، غير أن الكثير من المراهقين أثناء عملية صياغة هويتهم يدخلون في معارك مع

الرموز الاجتماعية خلال طفولتهم، ويتخذون من هؤلاء أعداء لهم، وتكون لهم رموز جديدة يستدمجونها نهائياً فيهم.

والهوية التي يصنعها المراهق هي جماع جهود الأنا في المكاملة بين تعيّنات الطفولة ووقائع الحياة الحالية، وقدرات المراهق. وإذا كان الأنا ضعيفاً كما يقول فرويد فإن الهو يكون شديداً وملحّاً في مطالبه في المراهقة. والمراهق عموماً أناني يظن أن العالم كله مداره نفسه، ومع ذلك فالمراهق من بعد قد يبذل نفسه ويضحي بها نظير القيم التي يعتقدها. والمراهق يحب جداً، ويكره جداً، ويتحوّل بسرعة في علاقاته، وهو متحمّس شديد الحماس، ومحب للعزلة كذلك، وقد يطيع طاعة عمياء وقد يتمرّد جانحاً. وهو مادي ومثالي، وزاهد ووالغ في المُتَع، ومؤدّب وقليل الأدب، ومتفائل متشائم، ونشيط متبلد، ويدخل في خبرات يُثري بها الأنا من خلال علاقاته بإخوانه المراهقين من الأنداد له، وقد تتكوّن لهم عنده صور مثالية يشحنها بالعواطف. والمراهقة عموماً أقسام، فما قبل المراهقة Preadolescence تتميّز بتفكيك العلاقات الأوديبية، وبالميول الجنسية المثلي والغيرية، والمراهقة الباكرة Earlyadolescence تتميّز بالجنسية الحدة، فإما الجنسية مثلية وإما غيرية، وتُستدمج الغرائز الفموية والقضيبية لتكون الأولوية للغريزة التناسلية. وفي المراهقة يكون التوجّه للجنس من النوع الاخر، في المراهقة المتأخرة. Late a. تبرز محاولات إيجاد الهوية، والتعرّف إلى الذات من خلال القيام بعمل ما، والدخول في خبرات الحب، وبسط حدود الأنا، ويتكوّن للمراهق أسلوبه في الحياة، وفي مرحلة ما بعد المراهقة Posta يكون انتظام وتناسق الأنا، والتوجّه نحو الاستقرار، وجديّة الأهداف، وربما الزواج والإنجاب.

مراجع

- Freud: Three Essays on the Theory of Sexuality. (1905)

❖ ❖ ❖

- المرحلة التناسلية...

- Genital Stage (E.);...
- Stade Génital (F.);...
- Genitale Stufe (D.)...

يذكر فرويد في كتابه «ثلاث مقالات في نظرية الجنس» (١٩٠٥) أن التنظيم التناسلي يبرز عند البلوغ، ويسبقه تنظيمان جنسيان طفليان يُطلق عليهما إسم التنظيمين أو المرحلتين الجنسيتين قبل التناسلية، وهما التنظيمان الفموي والشرجي، إلا أنه يذكر في فصل إضافي ضمّنه كتابه السابق أن اختيار الموضوع الجنسي وهو الذي يميّز مرحلة المراهقة التالية على البلوغ لا يقتصر على هذه المرحلة وإنما يسبقها ويوجد بكثرة وبطريقة منتظمة أثناء سنوات الطفولة. فجميع الاتجاهات الجنسية تنصرف إلى شخص واحد تريد أن تحقق فيه أهدافها، أي أنه في سنوات الطفولة تتبلور الجنسية لأقرب شكل من الصورة النهائية التي يمكن أن تكون عليها الحياة الجنسية في المراهقة. والفرق الوحيد بين المراحل قبل التناسلية الموسومة بأنها طفلية وبين المرحلة التناسلية بعد البلوغ أنه لا يتحقق للطفل التوليف بين غرائز الجزئية ولا خضوعها الكامل لرياسة الأعضاء التناسلية إلا في المرحلة التناسلية وحدها، ولا تنعقد هذه الرياسة وتصبح في خدمة التناسل إلا في هذه المرحلة الأخيرة التي يمرّ بها التنظيم الجنسي وهي المرحلة التناسلية.

ثم إن فرويد يقوم سنة ١٩٢٣ بتعديل رأيه السابق في المرحلتين قبل التناسلية ويضيف إليهما مرحلة ثالثة تأتي بعد التنظيمين السابقين، ويطلق عليها إسم المرحلة القضيبية ويقول إنها تسبق فترة الكمون وينسب إليها أنها تستحق بالفعل أن توصف بأنها تناسلية، والفرق الوحيد بين هذه المرحلة والتنتظيم التناسلي الحقيقي النهائي الذي يتلو البلوغ، أساسه أن هذه المرحلة، والتي توصف بأنها قضيبية، لا يتركز فيها الاهتمام عند الجنسين إلا بعضو جنسي واحد هو العضو الذكري أي القضيب، والنموذج الأصلي البيولوجي لهذه المرحلة يبدأ منذ أن يكون الطفل جنيناً كاستعداد تناسلي واحد غير متميّز.

وفي كتابه «محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي» (١٩٣٣) يطرح فرويد مفهومه الأخير في المرحلة أو التنظيم التناسلي باعتباره أنضج المراحل الجنسية والمتوِّج لها جميعاً والرابع في الترتيب. ويذكر في ذلك أنه لا يتحقّق إلا بعد البلوغ عندما يصبح للعضو التناسلي الأنثوي لأول مرة المكانة التي كانت للعضو التناسلي الذكري في المرحلة القضيبية.

ونخلص من ذلك إلى أن تطوّر أفكار فرويد حول الجنسية أدّت به إلى التقريب بين الصورة الجنسية الطفلية والصورة الجنسية الراشدة، مع التأكيد على هذا الفارق بينهما أنه في الطفولة تكون النزعات الجنسية مرتبطة بالمناطق الشهوية، ولا اتصال بينها فيما يتعلّق بهذه المناطق، ولا تتوحّد كغريزة جنسية إلا عندما تصبح الغريزة الجنسية غريزة تناسلية ترتبط بمنطقة الأعضاء التناسلية، وعندئذٍ تتسيّد النزعات الجنسية التناسلية على النزعات الجنسية الجزئية، وتعمل النزعات الجنسية الجزئية في خدمة اللذة التناسلية النهائية وتمهّد لها. ولا تعني التغيّرات الفسيولوجية في البلوغ أن الفرد قد تحقق له النضج النفسي المصاحب للنضج الجنسي التناسلي، والذي يكون به استشعار الرد بالمسؤولية تجاه غرائزه الجنسية. ويسمح له عدم النضج النفسي أن ينصرف بنشاطه الجنسي إلى أهداف متسامية يكون بها تحصيله للمعارف وارتقاؤه حضارياً إلى أن يستشعر بتكاملٍ في خصيته ويطلب تصريف طاقته الجنسية تصريفاً تناسلياً إجتماعياً.

مراجع

- Freud: Three Essays on the Theory of Sexuality. (1905)

: The Infantile Genital Organiztion : An Interpolation into the Theory of Sexuality. (1923)

: New Introductor Lectures on Psychoanalysis. (1933)

❖ ❖ ❖

- المرحلة الشرجية...

- **Anal Stage (E.);...**
- **Stade Anal (F.);...**
- **Anale Stufe (D.)...**

هي المرحلة الثانية من مراحل الجنسية الطفلية أو التطوّر اللبيدي، وتقع بين المرحلتين الفموية والقضيبية بين عمر الثانية وعمر الثالثة، وتتركّز فيها الطاقة اللبيدية في عضو الإخراج أي الشرج، الذي تنصرف إليه لذة الطفل من خلال عمليتي الإخراج والإمساك، ويصفها فرويد لذلك بأنها مرحلة سبقية. والشرج في مدرسة التحليل النفسي وخاصة عند أبراهام (١٩٢١) ينمو أصلاً من البلاستوبور الجنيني، وهو الفتحة الأوّية في جرثومة الجنين ذات الطبقتين اللتين تستحيل إحداهما إلى فم والأخرى إلى شرج. وتبدو هذه الحقيقة كنموذج أصلي بيولوجي للنمو النفسي الجنسي الفموي والشرجي.

ويقرن فرويد بين الطباع الشرجية عند الراشد وعملية الإخراج عند الطفل، وتبرز لديه منذ سنة ١٩٠٥ فكرة وجود تنظيم لبيدي قبل تناسلي يضم المرحلتين الفموية والشرجية، وتصطبغ فيه العلاقة بالموضوع بالدلالات المرتبطة بوظيفة الأكل في المرحلة الأولى وبوظيفة الإخراج في المرحلة الثانية. ولا تتبلور هذه العلاقة في أي من المرحلتين إلى علاقة تناسلية بعد، ولكنها تقتصر في المرحلتين على أنها علاقة من خطوتين، إحداهما سلبية والأخرى إيجابية، أي أنهما لم يصبحا بعد إلى علاقة أنثوية أو ذكرية. وفي المرحلة الشرجية تكون لذة الطفل في الإخراج أولاً، ويرتبط ذلك بالغشاء المخاطي الشرجي الذي ييسِّر الإخراج. والعملية فيها طرد وعدوانية على الموضوع، أي سادية، ثم تكون لذة الطفل في الإمساك والمعاناة باستبقاء البراز، ويرتبط ذلك بعضلات الشرج القامطة. وفي هذه العملية أيضاً ممارسة للسادية بالتملّك والسيطرة، والمرحلة الشرجية لذلك مرحلة شرجية سادية Sadistic anal stage وليست مرحلة شرجية فقط.

ويمكن أن تستمر هذه الصورة السابقة

من التنظيم طوال الحياة ويمكنها أن تجذب إليها باستمرار جزءاً كبيراً من النشاط الجنسي، وتعطي غلبة السادية فيها، والدور الذي للنطقة الشرجية وخاصة فيما تستحدثه من تخيلات لدى الأطفال بولادتهم عن طريق الشرج - يعطيان للتنظيم الشرجي مسحة قديمة لها طابعها الخاص الغريب. ويتميّز التنظيم قبل التناسلي عموماً بأن الأزواج من الغرائز المتضادة تطبعه بدرجة متساوية تقريباً، وهي الحالة التي وصفها بلويلر بالتناقض الوجداني.. وتنتقل العادات من هذا التنظيم - عادات التبرز والتحكم في عملياته - إلى مراحل العمر اللاحقة، وتطبع سلوك الفرد، وتصنع بعضاً من سماته مما يقال له الخُلُق الشرجي Anal character ويتحوّل إهتمامه بالبراز إلى اهتمام لاحق بأشياء أخرى كجمع المال أو الاهتمام بالألوان. وقد يثبت بعض الليبيدو بالشرج وتكون به الغلمة الشرجية التي هي أصل الاستجناس الشاذ.

وتتمثّل السادية في المرحلة الشرجية في ملاحقة الطفل للتبرز وقسره عليه، ومضايقته واستغضابه، ورد فعله المحتمل بأن يضنّ بالبراز، أو يسمح به كلما استثير أو رضي، وكأن إخراجه نوع من الثواب الذي يستحيل إلى معادل رمزي للهدية وللنقود.

والمقصود بالخُلُق الشرجي ما يترسَّب خلال المرحلة الشرجية من سمات تعلّق بالشخصية، ويتوقف تكوينها على ردود فعل الطفل لتعويده الانتظام في التبرز وأن لا يلوّث نفسه. ومن المرحلة الأولى الإخراجية تنمو لدى الفرد - الذي غلب عليه - صفات الكرم والبذل والعطاء، كما أن من الخصائص للمرحلة الثانية الاستبقائية الشح والتقتير والحذر والتدقيق. ويطلق فرويد على صفات المرحلتين إسم الثلاثية الشرجية Anal triad وهي العناد والتقتير والتدقيق.

مراجع

- Freud: Three Essays of the Theory of Sexuality. (1905)

: Character and Anal Erotism. (1908)

: The Disposition to Obsessional Neurosis. (1913)

- Abraham Karl: Contributions to the theory of the Anal Character. (1912)

❖ ❖ ❖

– المرحلة الفموية...

- **Oral Stage (E.);...**
- **Stade Oral (F.);...**
- **Orale Stufe (D.)...**

الفم أول منطقة شبقية تظهر عقب الولادة وتلحّ مطالبها اللبيدية إلحاحاً شديداً للإشباع. ويرتكز النشاط النفسي أول ما يتركز في الطفل الوليد حول إشباع حاجات هذه المنطقة، ويُطلق عليه لذلك أولى مراحل التطوّر اللبيدي، وتمثل وظيفة هذه المنطقة في حفظ الذات عن طريق التغذية، ولكن هذه الوظيفة الفسيولوجية لا يجب أن تضللنا عن الوظيفة النفسية، لأن الطفل بإصراره وعناده لينال الرضاعة حتى ولو لم يكن جائعاً، ليدلّ دلالة واضحة على أنه لا يتحصل له لذة من مجرد الرضاعة (عملية غذائية)، بل من استمرار وضعه لحلمة الثدي في فمه وإمساكه بالثدي في يده. وتنشأ هذه اللذة إذن من الحاجة إلى الرضاعة ولكنها تستمدّ قوتها من تناول الثدي، مما يؤكد على أنه وراء تحصيل اللبن حاجة أخرى إلى تحصيل اللذة، بصرف النظر عن أن الإشباع بالرضاعة نفسها يعطي لذة، لكن هذه لذة فسيولوجية، وتلك لذة سيكولجية ويقول فرويد إن هذه اللذة السيكولوجية الأخيرة يمكن وصفها بأنها عن رغبة جنسية.

وتظهر الدوافع السادية بطريقة غير منتظمة أثناء المرحلة الفموية عندما تبدأ الأسنان في الإنبات. ويطلق فرويد على هذه المرحلة إسم المرحلة الفموية السادية Oral - sadistic stage (E); stade sadique - oral (F.); oral-sadistishe Stufe (D.)

ومنطقة الفم باعتبارها من المناطق الشبقية تعتبر مصدراً من مصادر التهيّج البدنية للبيدو، ولها أهميتها الجنسية في حالة الانحراف الجنسي، وكأنها جزء من

الجهاز الجنسي، وفي الهيستيريا تصبح مركز إحساسات جديدة وتغيّرات في الإثارة العصبية يمكن مقارنتها بالانتصاب، تماماً كما يحدث للعمليات التناسلية الحقيقية أثناء التهيّجات الخاصة بالعمليات الجنسية السوية.

ويعتبر استخدام الفم كعضو جنسي إنحرافاً إذا اتصلت شفتا أو لسان أحد الأفراد بالأعضاء التناسلية لفرد آخر، ولكنه لا يعتبر من الانحراف إذا اتصل الغشاءان المخاطيان لشفاه الفردين، وهذا الاستثناء هو الفيصل بين ما هو سويّ وما هو مرضيّ. وكثيراً ما يبدي البعض إشمئزازاً من هذه الممارسات، وكثيراً ما يكون اشمئزازهم تقليدياً لا غير، وربما يغالي الرجل أو المرأة في التقبيل العميق ولا يجد حرجاً في ذلك، ومع ذلك يأنف من فكرة استخدام فرشاة أسنان محبوبته، مع أنه لا يوجدما يثبت أن فمه أنظف من فمها. ومن الملفت للانتباه أن يتعارض هذا التغالي في الاشمئزاز من استخدام الفم في غير الجنس مع التغالي في تقديره لبيدياً، ومثل هذا التغالي المتناقض من خصائص المصابين بالهيستيريا وخاصة النساء بالذات.

ويتناول فرويد مص الإبهام، أو المص الشهواني، كمثال للمظاهر الجنسية الفموية أثناء الطفولة، إستناداً إلى دراسة لطبيب هنغاري يدعى ليندنر (١٨٧٩)، وصفها بأنها دراسة ممتازة، ويظهر المص من بواكير الطفولة حتى النضج، وقد يستمر طوال الحياة، ويتكوّن من عمليات توقيعية متكرّرة لملامسة الإصبع للفم أو الشفتين، وواضح أن غرض هذه العملية ليس التغذية. وقد يكون المص لجزء من الشفة، أو اللسان، أو لجزء من الجلد من أي منطقة قريبة من الفم، حتى إصبع القدم الأكبر يمكن أن يكون موضوعاً للمص إذا تيّسر تناوله بالفم. وقد تظهر أثناء ذلك غريزة للإمساك بالأشياء Grasping instinct تعبر عن نفسه في شكل شدّ حلمتي الأذنين شداً توقيعياً، أو الإمساك بجزء من شخص، وغالباً ما يكون هذا الإمساك لأذن الشخص الآخر أيضاً للسبب نفسه، والمص الشهواني فيه استغراق كامل، ويؤدّي إما إلى أن ينام الطفل، وإما إلى ردّ

فعل حركي شبيه بما يكون عند نهاية الجماع. وكثيراً ما يترافق المص الشهواني والاحتكاك بجزء حسّاس من البدن كالثدي مثلاً أو الأعضاء التناسلية الخارجية. وكثير من الأطفال يبدأون بالمص ثم يتدرجون إلى الاستمناء عن هذا الطريق. وأدرك ليندنر الطبيعة الجنسية للمص وأكد عليه. ويعتبر المص في دور الحضانة من الأعمال الجنسية الخارجة التي يمكن أن يأتيها بعض الأطفال. وبعض الأطباء المتخصصين في الأطفال يرفضون اعتبار المص من السلوك الجنسي، وربما ذلك لخلطهم بين ما هو جنسي وما هو تناسلي.

ويعتبر فرويد المص من النشاط الذاتي، أي الذي لا تتجه فيه الغريزة الجنسية نحو أفراد آخرين، وإنما تتحصل على الإشباع من جسم الفرد نفسه، ويستخدم فرويد في وصف المص إصطلاح هافلوك إليس (١٩١٠) شبقي ذاتي Auto-erotic.

ونعود إلى المرحلة الفموية السادية، فإن فرويد يقلّد فيها ما فعله أبراهام إزاء المرحلة الشرجية عندما فرّع منها ما أطلق عليه إسم المرحلة الشرجية السادية، وعنده أن المرحلة الفموية يمكن شقها إلى نصفين، في النصف الأول يكون إدماج الرضيع لثدي الأم إدماجاً فموياً لا غير، ولا تكون هناك ازدواجية في المشاعر تجاه الثدي، وفي النصف الثاني عندما تبدأ الأسنان في الظهور ويأخذ الطفل يستخدمه في العض والقضم، فيوصف هذا النصف بأنه سادي فموي، وهنا تبدأ ازدواجية المشاعر، وتظهر جلية في المرحلة التالية وهي المرحلة الشرجية السادية. وفائدة هذه التمييزات أنها تكشف عن مراكز التثبت في تطوّر الليبدو إذا حدث.

مراجع

- Lindnerm S.: Das Saugen an den Fingern; Lippen etc., beiden Kindern. (1879)
- Elis, Havelock: Studies in the Pscychology of Sex, Vol. I Auto - Erotism. (1899)
- Freud: Drei Abhandlungen zur

Sexualtheorie. (1905)

: New Introductory Lectures on

Psychoanalysis. (1933)

❖ ❖ ❖

– المرحلة قبل الأوديبيّة...

- Preoedipal Stage (E.);...

- Stade Préoedipien (F.);...

- Präoedipale Stufe (D.)...

هي المرحلة من النمو النفسي الجنسي السابقة على المراحل الأوديبية، وتبهظ النمو الجنسي للبنت دون الصبي، فأول موضوع لحب الصبي الصغير هو أمه، ويبقى متعلّقاً بها أثناء تكوّن عقدة أوديب، بل إن حبهما قد يتلازم طوال حياته، ولا يُدرك الأب كمنافس له على حب الأم في هذه المرحلة، برغم أن حضوره مع ذلك قد يكون مؤكداً في المجال النفسي للولد، والفرق في ذلك بين المرحلة ما قبل الأوديبية والمرحلة الأوديبية أن العلاقة في الأولى ثنائية، وفي الثانية ثلاثية اصطُلِحَ على إطلاق إسم المثلث الأوديبي عليها.

وكذلك الحال عند البنت الصغيرة، فأول موضوع لحبها هي الأم أو من يقمن مقامها كالحاضنات أو الخادمات وغيرهن، وذلك أن الشحنات الوجدانية الأولى التي تُفرَغ على الموضوعات تشتق من إشباع الحاجات الحيوية الأساسية بالنسبة للجنسين، ولكن الأب في الموقف الأوديبي يصبح موضوع حب البنت الصغيرة، ويجذبها إلى ذلك أنه من الجنس الآخر، والشيء نفسه مع الصبي فهو يظل متعلّقاً بأمه لأنها من الجنس الآخر، ومع ذلك لا يحدث تغيير في حالة الصبي بينما يحدث كل التغيير في حالة البنت، ولا يتلخص الأمر معها في مجرَّد تغيير موضوع الحب، بل في تحوّل حقيقي يحدث في جو من الخصام، أي أن التعلّق بالأم ينقلب إلى كراهية وعداء قد يظلان معها طوال العمر أو تعوض عنهما تعويضاً مسرفاً.

وفي المرحلة قبل الأوديبية قد يتعرّض الصبي والبنت لإغواء من الأم، ويظهر ذلك في تخيلات البنات عنه في تخيلات

الصبيان، في صورة رغبة من البنت في تحبيل الأم بطفل، والرغبة المناظرة وهي إنـجـاب طـفـل مـن الأب، ودور الإغـواء المنسوب للأم في هذه المرحلة يقابله دور الإغواء المنسوب للأب في المرحلة الأوديبية، والتخييل له أساس من الواقع، لأن الأم في المرحلة ما قبل الأوديبيّة هي التي تستثير الإحساسات اللذيذة الأولى في الأعضاء التناسلية للبنت أثناء قيامها بواجبات تنظيفها وغسلها، إلخ. (أنظر أيضاً عقدة أوديب).

مراجع

- Freud: New Introductory Lectures on Psychoanalysis. (1938)

❖ ❖ ❖

– المرحلة القضيبية...

- **Phallic Phase (E.);...**
- **Stade Phallique (F.);...**
- **Phallische Stufe (D.)...**

تأتي هذه المرحلة من التطوّر النفسي الجنسي بعد المرحلتين الفموية والشرجية، وتنسب للقضيب Phallus، وهو بخلاف عضو الذكورة Penis، حيث الأول يكتسب معنى خاصاً في أدبيات التحليل النفسي باعتبار وظيفته الرمزية، وأما الثاني فدلالته تشريحية باعتبار واقعيته الجسدية.

ولا نصادف مصطلح القضيب كثيراً في كتابات فرويد، بينما نجده في أمثال مصطلحات مثل المرحلة القضيبية، وهي التي يكون فيها بدء اهتمام الطفل بعضوه الذكري فيما بين الثالثة وحتى السادسة من عمره، ومثل المرأة القضيبية Phallic Woman وهي التي تثبتت على المرحلة القضيبية من تطوّرها الليبيدي.

وتتلازم المرحلة القضيبية وعقدة الخصاء في أوجها، ويكون الخيار إما أن يكون للطفل قضيب وإما أن يكون مخصياً. وليس التعارض بين الخيارين من الناحية التشريحية كما في التعارض بين العضو الذكري والمهبل، وإنما يقوم التعارض بين حضور أو غياب القضيب، سواء كان الطفل ذكراً أو أنثى، فالأولية

في تفكير الاثنين للقضيب: هل عنده أو عندها قضيب أو لا يوجد قضيب؟ ومع أن عقدة الخصاء تعني شيئاً مختلفاً عندهما، إلا أن موضوعها في الحالتين هو القضيب وإمكانية أن يُنتزَع عن الجسم فيبقى الصبي أو البنت بدونه، هو المعنى المقصود بالخصاء أو الإخصاء، وفي هذا الإطار يتحدث فرويد في مقاله «تبدلات الغرائز» (١٩١٧) عن معادلات رمزية يمكن تقوم مقام بعضها البعض. فعضو الذكورة يعادل البراز، والبراز يعادل الولد، والولد يعادل الهدية إلخ، ولا يشكّل عضو الذكورة مجرد واقع يرجع إليه في نهاية سلسلة المعادلات، وإنما هو رمز أكبر من أن يشكل مجرد فارق تشريحي تصنّف به الكائنات الإنسانية إلى ذكور وإناث، وغياب هذا العضو أو حضوره هو صميم نظرية عقدة الخصاء التي تعطي له الدور الأكبر وتتوقف عليه عملية تعيّن كل شخص بالجنس الخاص به.

ولقد تناول فرويد والتحليل النفسي عموماً مسألة القضيب من منظور هذه القيمة الرمزية التي كانت له من العصور القديمة، حيث كانت صوره المرسومة - أو المنحوتة تشير إلى المعنى المجازي الذي من أجله كان تبجيله، وكان له بسببه الدور الرئيسي في احتفالات التعميد والتمثيليات الدينية. وكان القضيب المنتصب يرمز في الزمن القديم لسيادة القوة، وللذكورة المتسيدة أو فوق الطبيعة، وليس لمجرد الإخصاب. وينبّه فرويد إلى عالمية الرمز الذي يتخذه القضيب سواء في الأسطورة أو الحلم، ويؤكد أن بالإمكان أن يتعين المرء بالقضيب، وأن تتم مقارنته به من حيث أن القضيب يمكن أن يُستعرَض ويُعطَى ويُأخذ، وذهب إلى القول إنه في حالة الجنسية الأنثوية خصوصاً يمكن أن تتحول الرغبة في حيازة قضيب الأب إلى رغبة في إنجاب طفل منه.

ويلحق فرويد ملحوظة هامشية في الطبعات المتأخرة لكتابه «ثلاثة بحوث في نظرية الجنس» (١٩٢٤) أنه يضم إلى المرحلتين الفموية والشرجية اللتين قال بهما من قبل (١٩٠٥) مرحلة ثالثة تالية عليهما، ويصفها بأنها قضيبية، لأن الصدارة فيها للقضيب، ويعارض بين

الجنسية الطفلية وجنسية البلوغ باعتبار أن الأولى ناقصة التنظيم، والغرائز فيها مرتبطة بالمناطق الشهوية، وهي لذلك جزئية. وفي البلوغ يكون القضيب هو مركز الشهوة، وتتحقق السيادة للتنظيم التناسلي على التنظيمات قبل التناسلية الفموية والشرجية، وتندمج الغرائز الجزئية في الغريزة التناسلية. ولا يعني ذلك أنه لم يكن هناك تنظيم تناسلي طفلي قبل البلوغ فالتنظيم التناسلي موجود، وكذلك الموضوع الجنسي، ونوع من التلاقي للميول الجنسية حول هذا الموضوع، وإنما هذا التنظيم التناسلي لم يكن قد نضج كما في البلوغ.

وأما بالنسبة للفروق بين البنت والصبي في المرحلة القضيبية فإن فرويد ينبّه إلى أن اللبيدو عند الجنسين هو لبيدو ذكري، وتتموضع الغلمة عند البنت في بظرها وهو المعادل لعضو الذكورة عند الولد، والبظر وعضو الذكر كلاهما صورته الرمزية هي صورة القضيب، ومن وجهة النظر التكوينية فإن الثنائي المتعارض «النشاط - الفتور» اللذين يسودان في المرحلة الشرجية يستحيلان إلى هذا الثنائي «القضيبي - المخصي»، ولا يصبحان «الذكورة - الأنوثة» إلا في البلوغ.

وللمرحلة القضيبية دور أساسي بالنسبة لعقدة أوديب، ففي هذه المرحلة ينصبّ اهتمام الطفل نرجسياً على عضو الذكورة فيه، ويكتشف غياب هذا العضو عند الإناث، ويؤدي تهديده بإخصاء القضيب، أو توهّم هذا الإخصاء وأن يتجرّد منه كالبنات - يؤدي إلى إنهاء الموقف الأوديبي لصالح تطوّره النفسي الجنسي. وأما البنت فإن الخصاء عندها يعني حرمانها من القضيب، باكتشافها للتفاوت في التركيب بينها وبين الصبي، وحسدها لقضيب الصبي، ويبدأ بذلك الموقف الأوديبي عندها، بأن تنسب لأمها سبب هذا الحرمان، وتتجه بعواطفها للأب وتختاره موضوعاً لحبها على اعتبار أنه القادر أن يهبها هذا العضو، أو يهبها معادله الرمزي أي الطفل، ومن ثم فالمسألة منذ ذلك الحين مختلفة عند الجنسين، ومحورها امتلاك القضيب والسعي في طلبه والمحافظة عليه.

وقد يرفض الصبي فكرة أن أمه شأنها

شأن البنات تفتقد القضيب، ويتخيلها حاملة لقضيب داخلي أو لخاصية القضيب، ويشرح فرويد ذلك ببيان من الفيتشية، باعتبار الفيتيشي يرى في الفيتيش الذي يتخذه موضوعاً له بديلاً عن القضيب عند الأم الذي ينكر غيابه عنها، كما أن الاستجناسي من الذكور يتوهّم أن الأم تحتفظ داخلها بالقضيب الذي استدمجته فيه أثناء الجماع، وذلك هو المقصود بالأم أو المرأة القضيبية، أنها لا تمتلك القضيب على الحقيقة وإنما على المجاز، كتوهّم أو تخيّل، ويغلب أن ينصرف المعنى إلى أنها الأم أو المرأة التي تغلب الذكورة على طبعها كما عند المرأة المتسلطة.

مراجع

- Freud: Three Essays on the Theory of Sexuality. (1905)

: The Infantile Genital Organization. An Interpolation into the Theory of Sexuality (1923)

❖ ❖ ❖

– « مسألة التحليل العلماني»...

- «The Question of Lay Analysis» (E.);...
- «La Question de l'Analyse Laïque» (F.);...
- «Die Frage der Laienanalyse » (D.)

التحليل العلماني أي التحليل من غير متخصص في الطب النفسي أو في الطب عموماً. والعلمانية ضد الإكليريكية، وكان المقصود بها نوع التعليم في المدارس غير الدينية، أي التعليم غير الديني، ومن ثم فالتحليل العلماني - أي التحليل كعلم - ليس من علم الطب، وكان فرويد يؤكد باستمرار على أن التحليل النفسي هو علم ينتمي إلى علم النفس وليس إلى علم الطب، ولا إلى علم النفس الطبي، ولا إلى علم النفس المرضي، ولكنه علم نفس خالص لوجه علم النفس.

ويقول فرويد: إنني أزعم أن التحليل النفسي ليس فرعاً خاصاً من علم الطب، ولا أدري كيف أبرهن على ذلك، ولكن

أحسب أن التحليل النفسي من العلوم التي تنتمي إلى علم النفس ولا تنتمي إلى علم النفس الطبي بالمعنى القديم، ولا إلى علم العمليات المرضية، ولكنه ينتمي ببساطة إلى علم النفس، وهو ليس كل علم النفس، ولكنه من علم النفس ويقوم عليه، إن لم يكن هو كل أساس هذا العلم. ولا ينبغي أن نضل عن حقيقته بدعوى أن تطبيقه يدخل في مجال التطبيق الطبي، فالكهرباء وعلم الأشعة لهما استخداماتهما الطبية، ولكنهما من الناحية العلمية لا ينتميان إلا لعلم الفيزياء».

وأعتقد فرويد أن محاولة نسبة نظرية التحليل النفسي إلى الطب يعوق تطوير هذه النظرية ويضرها من نواح كثيرة، وعارضه تلاميذه كثيراً وأصروا على معارضتهم له في هذه المسألة، وعاندهم فرويد وأصرّ على موقفه وقال مقولته الشهيرة «إن الموقف المعارض من دعوى علمانية التحليل - أي أنه ليس من العلوم الطبية - هي من قبيل المقاومات التي صادفت التحليل النفسي كعلم من العلوم المعترف بها وهي آخر مقاومة يصادفها التحليل النفسي ولكنها مع ذلك أخطر ما صادفه من مقاومات.

وكان موضوع التحليل العلماني من الموضوعات التي شغلت بال فرويد كثيراً حتى أنه وضع عنه كتابه هذا الذي أوردناه في العنوان «مسألة التحليل العلماني»، وأصدره سنة ١٩٢٦. وكان فرويد قد لجأ في بداية قيام حركة التحليل النفسي إلى تدريب أخصائيين فيه من غير الأطباء، عندما عارضت الدوائر الطبية طريقته ولم تعترف بها الجامعات كطريقة من طرق العلاج، بدعوى أن التجريب على مفاهيم التحليل النفسي التي قال بها فرويد - مستحيلة، باعتبارها إفتراضات قابلة للدحض ويستوي إزاءها أن تنكرها أو تقبلها، ومن ثم فقد شجع فرويد على تدريب الشباب المثقف والمتحمس من غير الوسط الطبي على علاج المرضى النفسيين بطريقته، وأنشئت لذلك معاهد تدريب «علمانية» أي خارج نطاق التعليم الجامعي، لم ينشئها فرويد بنفسه ولكنها قامت على جهد تلاميذه في ڤيينا وبرلين ولندن، وفي أميركا، وفي غير ذلك من العواصم والبلاد، وتتضمن مناهج هذه

المعاهد بعضاً من الدراسات النفسية من علم النفس، وبعضاً من تاريخ الحضارات وعلم الاجتماع، وكذلك بعضاً من علوم التشريح والبيولوجيا والتطوّر، وافتُتح أول معهد من ذلك في برلين سنة ١٩٢٢. ويخضع المتدرب للتحليل النفسي ليعرف سلبياته وإيجابياته، وشكّلت لذلك لجنة من خمسة من كبار أعوان فرويد ليقوموا بزيارة معاهد التدريب الدولية ويراجعوا برامجها، ويوعّوا بها المدربين، ويطلعوهم على المستحدث من النظريات في التحليل النفسي وطرقه. غير أن رابطة التحليل النفسي الأميركية، وهي من الروابط الكبرى في حركة التحليل النفسي، كانت لها إعتراضات شديدة على هذا النوع من التعليم العلماني، وعلى ضم المحلّلين العلمانيين، أي غير المؤهلين طبياً، إلى روابط التحليل النفسي، ورفض مندوبوها في المؤتمرات الدولية للتحليل النفسي أن يشارك فيها أي من المحلّلين العلمانيين أو روابطهم، وظهر هذا الخلاف بشكل حاد إبتداءً من مؤتمر سنة ١٩٢٥ ثم سنة ١٩٢٦، ومال البعض - وربما أغلب أتباع فرويد - مع الرأي الأميركي، ومن هؤلاء آيتنجون رئيس المؤتمر سنة ١٩٢٦، وحتى جونز، وهو من أخلص أتباعه، كان من رأيه أن حركة التحليل النفسي في بدايتها ربما كانت في حاجة إلى المؤيدين، ويعوزها الأطباء الذين يقبلون ممارسة التحليل النفسي، وأن يكون التحليل النفسي مهنتهم، لكنها بعد ذلك اشتد عودها وصار لها الأعوان في كل مكان من بين الأطباء، وبعد أن أقبلت الجامعات على تدريس التحليل النفسي وإنشاء كراسي الأستاذية فيه، فإن الإصرار على تجنيد غير المؤهلين طبياً يهدم علمية التحليل النفسي ويحرمه أن يكون فرعاً من الطب النفسي، أو حتى علماً من العلوم المعترف بها في الأوساط الجامعية. وكتب فرويد أن أخشى ما يخشاه أن يُستغرَق التحليل النفسي في الطب، وأن يبتلعه ويصبح مجرد باب من أبواب العلاجات المطروحة في الطب النفسي، شأنه في ذلك شأن العلاج بالإيحاء التنويمي والإيحاء الذاتي والإقناع، فالتحليل النفسي أكبر من أن يكون هذا هو مصيره وباعتباره «علم نفس أعماق» ونظرية في

اللاشعور، هو علم لا تستغني عنه العلوم الأخرى المهمومة بالإنسان وبحضاراته وأشواقه الدينية وإرهاصاته الفنية ومذاهبه في الاجتماع. ولقد قدّم فعلاً خدمات جلّى لهذه العلوم، إلا أن المنتظر لهذا العلم مستقبل أكبر من ذلك بكثير، وليس استخدام التحليل النفسي في علاج أنواع الأعصبة إلا مجرد واحد من استخداماته تطبيقاته العديدة في شتى المجالات، وليس من المعقول أن نضحي بهذه الاستخدامات والتطبيقات في غير مجال الطب لنقصر التحليل النفسي على علم الطب وحده، لأن أبرز هذه الاستخدامات هو الاستخدام في علاج الاضطرابات النفسية. ولقد تحقّقت نبوءة فرويد فصارت دراسة التحليل النفسي من الموضوعات المدرجة ضمن مناهج كليات الطب وكليات علم النفس والتربية، وبفضل أساتذة علم النفس صارت هناك تطبيقات للتحليل النفسي في مجال الأدب والفن الروائي والمسرحي والسينمائي، وفي مختلف العلوم كالهندسة، وانتشرت مفاهيم التحليل النفسي وصار استخدامها في كل فروع الثقافة.

ولعلّ أفضل شرح على برامج التدريب على التحليل النفسي هو ما يقدمه ليڤن وروسي في كتابيهما «التعليم التحليلي النفسي في الولايات المتحدة» (١٩٦٠). ولعلّ أفضل تلخيص لبرامج التدريب على التحليل النفسي في سائر أوجه العلاج النفسي هو كتاب بلانك «تعليم العلاج النفسي» (نيويورك، معهد التدريب والبحث التحليلي النفسي ١٩٦٢). وكانت هناك مراجعات باستمرار لمناهج التحليل النفسي الموكولة بمعاهده، وطُرِحت مسألته في ندوات دولية، ومن ذلك الندوة المنوّه عنها في صحيفة التحليل النفسي الدولية سنة ١٩٢٧. ومن المراجع التي يعتد بها في هذا المجال كتاب لويڤالد «مناهج التحليل النفسي - المبادىء والبناء» (١٩٥٦)، وكتاب كوبي «النواحي العلمية والنظرية للتحليل النفسي» (١٩٥٠)، ويعتبر كوبي من الخبراء في التعليم التحليلي، وله مقالات عديدة من مثل «مشاكل التدريب للتحليل النفسي» (مجلة الرابطة الأمريكية للتحليل النفسي، العدد الرابع لسنة ١٩٤٨).

مراجع

- B.D. Levin & H. Ross: Psychoanalytic Education in the U.S. (1960)
-G. Blank: Education for Psychotherapy. (1962)
- P. Sloan: The Technique of Supervised Analysis. (1957)
- H.W. Lœwald: Pycho-analytic Curricula: Principles and Structure. (1956)
- L.S. Kubie:Practical and Theoretical Aspects of Psycho-analysis. (1950)

❖ ❖ ❖

– « مستقبل وهم»...

- **«The Future of an Illusion»** **(E.);...**
- **«L'Avenir d'une Illusion»** **(F.);...**
- **Die Zukunft einer Illusion»** **(D.)...**

هذا الكتاب الصادر سنة ١٩٢٧ يُعتبر من المؤلفات التطبيقية التي حاول فيها فرويد أن يجرب نتائج التحليل النفسي على بعض القضايا الفكرية، وبالإضافة إلى ذلك فهو من مجموعة المؤلفات الميتاسيكلولوجية، أي التي تتجاوز مجال علم لنفس إلى مجالات أبعد من ذلك، وفيه يعالج فرويد مسألة الدين والتدين من وجهة نظر سيكولوجية بحتة كما يقول، ويعتبر الدين وهماً من الأوهام الكثيرة التي تحفل بها الثقافة أو الحضارة. ويبدي الكثير من التشكك مع ذلك في إمكان أن يقنع الناس بوجهة نظره، ويكتب إلى صديقه فيرينزي يعيب على نفسه أنه حاول أن يصوغ أفكاره في الدين في كتاب، وانتقد دفوعه فيه، ومع ذلك نصح بسرعة ترجمته لكي تذيع آراؤه عسى أن تجد لدى البعض التربة مهيأة لنبذ الدين والأخذ بمقتضيات الحضارة أو الثقافة العصرية المؤسّسة على العقل ونتائج البحث العلمي وحدهما.

ويقول فرويد عن الدين إنه «عصاب البشرية الوسواسي العام» وأنه «ينبثق مثله مثل عصاب الطفل عن عقدة أوديب»، وأنه «ينطوي على قيود قسرية لا

نجد نظيراً لها إلا فيما يشتمل عليه عصاب الفرد الوسواسي»، وأنه «منظومة أوهام تخلقها الرغبة» وتنفي الواقع، ولا نجد لها نظيراً إلا في الذهان الهلوسي الذي هو حالة غبطة من حالات الخبل العقلي». وينقل فرويد عن رايخ قوله «التشابه بين الدين وبين العصاب الوسواسي قائم حتى في التفاصيل». ومع ذلك يتناقض فرويد ويعترف بأن المتدين ينقذه تدينه من أخطار كثيرة من الأمراض العصابية، إلا أنه يعود مرة أخرى ويصف ما به من إتجاهات دينية بأنها علامات على الإصابة بما يسميه «العصاب الكوني»، وينسب لإصابته بهذا العصاب الذي يرضى أن يصاب به عن إرادة، بأنه «يعفيه من مهمة أن يصطنع لنفسه عصاباً خاصاً». ويصف المعتقدات الدينية بأنها «مخلفات عصابية»، وأن «الحقائق التي تنطوي عليها المذاهب الدينية مشوّهة ومموّهة إلى حد أن البشر لا يستطيعون أن يتبينوا فيها الحقيقة».

ويتبع فرويد في شروحه ودعاواه منهجاً جدلياً يقدم به لدفوع الخصم ويسبقه متوقعاً لها، ويقوم بالردّ عليها مقدماً، ومن ذلك أن يقول عن محاولاته هذه في التشكيك في الدين أنها «محاولات للتشويش على الناس إيمانهم»، وأنه يقع في التناقض إذ يؤكد كمقولة من مقولات التحليل النفسي «أن الإنسان لا يقوده عقله بل تسيطر عليه أهواؤه ومتطلبات غرائزه»، ومع ذلك يطالب «بأساس عقلي لمعتقداته الثقافية» ويقول عن نفسه إنه لم يفلح إلا في استبدال إله الدين بإله العقل، أي أنه لم يلغ الألوهية رغم كل ما بذل من محاولات لتقويض فكرتها.

ويجعل فرويد من أهداف الحضارة أو الثقافة تحصيل المعرفة وتنظيم العلاقات بين الناس. وتقوم يوتوبيا فرويد على إمكان ذلك باستخدام العقل والعلم، وينسب لنفسه أنه في كتابه هذا يؤكد على الجانب النفسي وليس على الجانب المادي من الحضارة، ويقول إن الحضارة غير متيسرة ما لم يقم على ترقيتها الصفوة، وعليهم يقع عبء حراستها من العامة، وينقل عن الدين أن الناس تؤمن به بإرادتها، ويطلب أن تفعل

الحضارة والعلم الشيء نفسه، وأن يكون الإيمان بالعقل إيماناً لا قسر فيه.

ويؤكد فرويد على ثلاثة مفاهيم هي: الإحباط الترتّب على عدم تلبية الغريزة، والحظر وهو وسيلة فرض الإحباط، والحرمان وهو الحالة التي تنجم عن الحظر، وبفضل هذه الثلاثة نأت الحضارة عن البدائية. ويقول إن الحظر شمل أيضاً ثلاث نواح: حب المحارم وأكل لحم البشر والقتل، وانتهى أمر أكل لحم البشر، إلا أن القتل والرغبة في المحارم ما يزالان ضمن نطاق الحضارة. ووجهة نظر فرويد في التقدم الحضاري أن الحظر صار داخلياً من سلطة ما يسميه الأنا الأعلى، وهو ميراث سيكولوجي ركين بالنسبة للثقافة. والخوف من الطبقات التي يتباين بها استبطان الحظر، وقد ثبت أن المضطهدين لا يستبطنون الثقافة، وأنه لا أمل من ثقافة فيها مضطهدون غير راضين عن أوضاعهم، وأنه لقياس استبطان الناس للثقافة لا بد من فحص مستوياتهم الأخلاقية وتراثهم من المُثُل، وهما الأساس النفسي لنشاط أي شعب، غير أن للرضا بالمثل العليا للمشاركين في شكل من أشكال الثقافة طبيعة نرجسية، ويخلق الشقاق والعداوات بين الثقافات المختلفة. ومن ناحية أخرى فإن الرضا النرجسي بالثقافة يعوض المضطهدين بإعطائهم الحق في التباهي على غيرهم من الشعوب وازدرائهم، ويجعلهم يتقمصون معتقدات مضطهديهم (بكسر الهاء)، وأن يروا فيهم بالرغم من كراهيتهم قدوة لهم، وأن يصرحوا برضاهم وإن أضمروا الاستياء، وهذا سبب إستمرار الحضارات حتى الآن. ويخدم الفن الترضية النرجسية للشعب حين يخدم أهداف الثقافة.

وإذا كان يعيب الحضارة أنها تقوم على إنكار الغرائز والتسامي بها، فإنها مع ذلك لازمته، ولو فرضنا أننا أزلنا كل قيودها فلن يمكن إلا لإنسان واحد أن يتمتع بخيراتها وبالإباحة التي ستتيحها الإزالة، وهو الطاغية الديكتاتور الذي سيحتكر كل وسائل القسر والردع. ولو ألغينا الثقافة فلن يتبقى إلا الوضعية الطبيعية وهذه يصعب تحملها أكثر من الحضارة. والإنسان بالحضارة استغرق

وقتاً ليؤنسن الطبيعة ولا يخاف منها، واخترع آلهة يحاول أن يترضاها، وأنسن هذه الآلهة، واختراعه للآلهة كبديل لعبادة الطبيعة يصدر عن ميل طفولي فيه لطلب الحماية من الأب، والإله هو الأب الأكبر، وإضفاؤه الأبوة على قوى الكون التي لا يفهمها جعله لا يخافها. ورغم تقدم الإنسان فما تزال به حاجة إلى الأبوة والحماية، إلا أنه لاحظ أن الآلهة لم يقدموا شيئاً لحل مشكلاته، ونفض الإنسان يده من الاستعانة بهم، واستمر مع ذلك في الأخذ بالأخلاقيات الدينية، وجعلها أساس الحضارة. وتنبني على القول بالأصل الإلهي للحضارة مجموعة أفكار، منها أن الحياة في خدمة تدبير سام أعلى، وحتى الموت لا يعود نهاية للحياة بل بداية، ويجد الخير في النهاية ثوابه والشر قصاصه. وتتجسّد في الإله الواحد كل صفات الآلهة، وكان أول شعب يقول بذلك اليهود ولهذا يفخرون لأن علاقاتهم به وقد انفردوا بالتوحيد صارت كعلاقة الإبن بأبيه، ومن يبذل في سبيل الأب بقدر ما بذلوا لا بد أن تساوره الرغبة في أن يجد الثواب على ذلك، كأن يعتبر نفسه على الأقل الإبن الوحيد الأثير لدى الأب، أي الشعب المختار. وتعدّ الأفكار الدينية الحالية أثمن تراث للحضارة اليهودية المسيحية - حضارة الرجل الأبيض. والدين إبداع حضاري، وتنبع الأفكار الدينية من الحاجة نفسها التي تنبع منها سائر إنجازات الحضارة، وبها تصحح نواقص الثقافة، ويكون الدفاع عن النفس ضد تفوّق الطبيعة. والدين تراث الأجيال، والاعتقاد في الوحي جزء من أفكار الدين، ويسقط من الاعتبار عند دراسة الحضارة كل تطوّرها التاريخي. والإنسان في الحضارة أنسن الطبيعة ليسقط عليها ما هيته، وحين شخّص الطبيعة إقتدى بنموذجه الطفلي، فقد تعلم ممن يحيطون به أنه إذا كان يريد التأثير عليهم فلا بدّ أن يقيم معهم علاقة، والسيطرة النفسية على الطبيعة هي التي تمهّد للسيطرة المادية. ومضمون الأفكار الدينية أنها معتقدات تتعلّق بوقائع العالم الخارجي والدخلي، وتعلّمنا أشياء لم نكتشفها بأنفسنا وتتطلّب الإيمان بها. والفرق بين المعتقد الديني والمعتقد العلمي أن الأخير يقوم

على الملاحظة والاستدلال. ونتعلّم المعتقدات العلمية من المدارس لكن الطريق الشخصي للاقتناع بها مكفول للجميع، وليست هكذا المعرفة الدينية التي تطالبنا بالتصديق والإيمان لأنها أولاً ميراث السلف، وأدلتها وبراهينها قديمة، ومن ثم يحظر مناقضتها. وفرويد يخطىء إذ يدرج الإسلام في كتابه «موسى والتوحيد» ضمن الأديان التي تحظر التفكير الديني، فالقرآن لايحض فقط على التفكير الديني، بل ويأمر به. ويقول فرويد: إن المشكلة السيكولوجية للدين هي أنه يطالبنا بالتصديق على نصوص ليس من سبيل للبرهنة على أنها صادقة، وأن الحال معه تلخصها العبارة «أؤمن به لأنه محال» بمعنى أن مقولات الدين لا ينبغي أن تخضع لمقتضيات العقل. ويؤكد فرويد أنه لا ينبغي أن تعلو أي سلطة على سلطة العقل، ولا أن تسمو حجة على حجته. ثم إن هذا الفرض الديني يلزم العقلاء ولا يأخذ به إلا الصوفية، وهؤلاء وسيلتهم الوجد الصوفي وليس العقل الذي يلتزم به الأغلبية. وإذا قلنا إن الفروض الدينية برغم أنها أوهام إلا أنها لازمة لحفظ كيان المجتمعات، فإن هذا القول نفسه هو وهم من الأوهام. وبرغم أن الدين كان مجموعة أوهام إلا أنه لا يمكن إنكار أنه كنت له وما تزال قوة سيكولوجية باطنة، والسر في ذلك أنه بالدين تتحقق أقدم رغبات البشرية، وسر قوته هو قوة هذه الرغبات، فالإحساس المرعب بالخوف عند الأطفال يوقظ فيهم الحاجة إلى الحماية - حماية الحب، وهي حاجة وفّرها الأب. وإدراك الإنسان لنوازل الطبيعة ومخاوفه من الغير، ومن الموت، جعله يتشبث بأب أعظم قوة وأشدّ بأساً. ويطامن من قلق الإنسان الإيمان بالعناية الإلهية. والدين هو الذي وفّر النظام الأخلاقي الذي لم توفره الحضارة، والدين أطال الحياة على الأرض بالأمل في حياة مستقبلة بعد الموت، وقضى على الخوف من الموت فهو ليس نهاية الحياة، وتوفر به الوهم بإمكان تحقيق الرغبات في الآخرة إذا لم تتحقق في الدنيا، وكانت المنظومة الدينية هي الوحيدة التي تقدم نظرية متكاملة لأصل الكون وعلاقة الروح بالجسد.

ويصف فرويد موقف الذين يقولون إنهم يفضلون أن يختاروا الدين إذا كان في الدين يستوي أن يؤمنوا به أو يرفضوه، بأنه موقف فيه خداع للنفس، وتبرير للجهل، وتغرير بالآخرين.

وهذه الآراء التي يطرحها فرويد، رغم أنها كما يزعم نتيجة تطبيق لمنهج التحليل النفسي، فقد خشي منها أن تضر حركة التحليل النفسي والمشتغلين به، ويرتد على الذين يمكن أن يتهموا التحليل النفسي بأنه فضح نفسه، وأنه منذ البداية كان نظرية في الكون هدفها زعزعة إيمان الإنسان وتقويض الدين، إن التحليل النفسي كأداة بحث يمكن أن يستخدم الخصوم أيضاً في تفنيد مزاعم فرويد ضد الدين، وينسب إلى الدين أنه لم يحقق الغرض منه فما يزال عدد هائل من الناس يعيشون في بؤس بسبب تقييده للغرائز، وأن الناس به قديماً لم يكونوا أكثر سعادة ولا أكثر أخلاقاً، ويقول إن الدين لم تعد له ضرورة لأنه قد ثبت أن وعوده على الأرض لم تتحقق فكيف الإيمان بأنها ستتحقق في السماء؟

مراجع

- Allport, G. W.: The Roots of Religion. (1954)
- Jones, E.: Psychoanalysis and Religion. (1957)
- Bunker, H.A.: Psychoanalysis and the Study of Religion. (1951)

❖ ❖ ❖

- « المشكلة الاقتصادية في الماسوشية»...

- «The Economic Problem of Masochism» (E.);...
- «Le Problème Economique du Masochise» (F.);...
- «Das ökonomische Problem des Masochismus» (D.)...

هذا البحث نشره فرويد لأول مرة بالمجلة الدورية للتحليل النفسي سنة ١٩٢٤، والماسوشية انحراف جنسي

يرتبط بالتلذّذ بالألم واستعذاب المذلة والتحقير ينزلهما الغير بالماسوشي. وكان كرافت إيبنج أول من أعطى الوصف الدقيق لهذا الانحراف الجنسي، واشتق اسمه من إسم أحد المشهورين الذين عُرفوا به. وفرويد في هذا البحث يوسع من مفهوم الماسوشية بحيث تتعدى أنها انحراف جنسي، ويجعلها اتجاهاً يتمثل في الكثير من الأنشطة النفسية ونواحي السلوك، ويردّها إلى أصول أوّلية في الجنسية الطفلية، ويعرض لأشكال مشتقة منها، ويركز بالذات على نوع منها يطلق عليه إسم الماسوشية الأخلاقية Moral masochism، أساس مشاعر ذنب وحاجة إلى العقاب لا تتضمن أية لذة جنسية مباشرة.

والماسوشية باعتبارها طلباً للألم قد تبدو متعارضة مع مبدأ اللذة الذي هو الأساس في كل نشاط نفسي، حيث يكون المطلب الأول تحاشي الألم بخفض التوترات النفسية، ومثل هذه النظرة كمية فقط، والواجب أن تكون كمية وكيفية معاً، لأنه بالإضافة إلى أن كل خفض للتوترات من شأنه استحداث اللذة، فهناك مع ذلك توترات لذيذة كلما زادت، وقد يكون خفضها على العكس مؤلماً. ويميّز فرويد بين ثلاثة أشكال من الماسوشية، والأصل في الماسوشية هو الشكل الأوّلي أو الماسوشية الأوّلية Primary m.، ويفسرها فرويد فسيولوجياً بأن أي استثارة حتى ولو كانت مؤلمة، فإنها إذا تجاوزت في شدتهاحدوداً كمية تصبح لها مواصفات كيفية وترتبط لبيدياً بالجنس، وهذا النوع الشبقي هو أصل الشذوذ الماسوشي، إلا أننا في النوع الأخلاقي نصادفه أيضاً حيث نجد الألم فيها كذلك مرتبطاً باللذة الجنسية. وأما الماسوشية الثانية، كمقابل للماسوشية الأوّلية، فهي ما يتخلف من السادية ولا يتوجه إلى موضوعات العالم الخارجي وإنما يتوجه للداخل ويلحق بالماسوشية الأوّلية.

ولأن الماسوشية الأوّلية مرتبطة بالليبيدو فهي تمر مثله بمراحل تطوّره المختلفة، ولكل مرحلة لبيدية ماسوشيتها الخاصة، فالخوف من عدوان الحيوان الطوطم (الأب) يستمد من المرحلة الفموية البدائية، وهو خوف عند البدائي من أن يلتهمه الأب. والرغبة عند الطفل

أن يضربه الأب تُستمد من المرحلة التالية، وهي المرحلة الشرجية السادية، ويدخل الخصاء ضمن التخيلات الماسوشية كأثر للمرحلة القضيبية. وفي المرحلة التناسلية تتميّز المواقف الأنثوية.

والماسوشية النسوية Feminine m. من مشتقات الماسوشية الأوّلية، وهي أقل أشكال الماسوشية غموضاً، ويوحي إسمها بارتباطها بالإناث خصوصاً، إلا أنها مع ذلك إحتمال قائم عند كل إنسان، وظهورها في الذكور في مواقف تتميّز بشكل خاص بالنسوية وترتبط عملياً بالإساءة والتجريح والتحقير، وقد يمتد ذلك إلى الضرب والتشويه الجسدي. والماسوشي الأنثوي في الجماع يلعب الدور السلبي، وتخيلاته كما لو أنه أجري إخصاؤه، وقد يتخيل نفسه في الولادة أنه هو الذي يلد، ويصفها فرويد لذلك بأنها أنثوية متأخرة، رغم أن ما تتميّز به من سمات يرتبط أكثر بالطفولة، ويبدو بها الماسوشي وكأنما هو يحاول الاستمناء الطولي، ويتصرف ليعامل كطفل، وإنما طفل شقي يستوجب العقاب. ويشير المضمون الظاهري للتخيلات إلى أنها تعبير عن مشاعر ذنب يكفّر عنها الماسوشي بتعريض نفسه للعقاب، وينهض على عنصر الشعور بالذنب النوع الثالث الأخلاقي من الماسوشية، والمهم في هذا النوع ليس ارتباط الألم بالجنس، لأنه في هذا النوع لا يوجد محبوب يؤتمر بأمره، وإنما توجد مشاعر ذنب نتيجة إخفاق الأنا في تحقيق المتطلبات المثالية للأنا الأعلى، وهي المتطلبات التي تمثل السلطة الوالدية وأية سلطة أخرى شبيهة أو بديلة. ويقوم الأنا الأعلى بدور الأبوين في قسوتهما ومحاسباتهما وعقابهما، والوالدين ينتميان إلى العالم الخارجي وتختفي وراءهما كل تأثيرات التقاليد والأخلاق والعرف التربوي والديني والاجتماعي. والماسوشي الأخلاقي شديد الحساسية لوخزات ضميره، ويعاني من سادية الأنا الأعلى، ولم تكن نشأة الأنا الأعلى باعتبارها الممثل للسلطة الوالدية إلا بسبب التغلّب على عقدة أوديب وإفراغها من محتواها الجنسي. والأخلاق لم تبدأ إلا بعد التغلّب على عقدة أوديب. ويرى فرويد أن الطابع

النفسي يمكن أن يعود للأخلاق من جديد، لأن الإحساس اللاشعوري بالذنب عند الماسوشي الأخلاقي قد يعني أنه في حاجة إلى أن يناله الضرب من أبويه، وترتبط الرغبة في أن يُضرب بالرغبة في القيام بدور أنثوي سلبي، فكأن عقدة أوديب وملابساتها تعود من جديد، وكأن هذه الرغبة تعبير نكوصي عن العلاقة اللبيدية القديمة بالأب. وعادة ما يحدث أن الأنا في ظروف القمع الحضاري للغرائز يقوم بالحيلولة دون المكونات الغريزية التدميرية وأن تمارس نشاطها في الحياة. ويستوعب الأنا الأعلى هذه القوة التدميرية ويمارس بها تأثيراً مضاعفاً على الأنا، بالإضافة إلى ماسوشي الأنا أصلاً، والنتيجة أن تظهر هذه الماسوشية الأخلاقية بمظهر سلوكي حاد.

❖ ❖ ❖

– المشهد الأولي...

- Primal Scene (E.);...
- Scène Primaire (F.);...
- Urszene (D.)...

يظهر مصطلح المشهد الأولي في كتابات فرويد العلمية التي نشرها سنة ١٨٩٧، ويشير به إلى الخبرات الصادمة في حياة الطفل المتضمنة لمشاهدته للعمليات الجنسية بين والديه، أو التي يتصوّر وقوعها تخيلاً، ويستند استيعابه لها واهتمامه بها إلى ما يخبر من أحاسيس جنسية أوّلية تجاه أمه وما تولده عنده من رغبات تترتّب عليها. ولا نعثر على مصطلح المشهد الأولي في كتاب فرويد «تأويل الأحلام» (١٩٠٠)، إلا أنه ينبّه في هذا الكتاب إلى ما يمكن أن تثيره ملاحظة العمليات الجنسية بين الوالدين من أعراض حَصَرية، يفسرها بأنها نتيجة التهييج الجنسي الذي تستثيره هذه المشاهد الجنسية التي يعجز عن استيعابها، وبالتالي عن السيطرة على الحَصَر الذي تفجره، ومن ثم ينكر ما يشاهد وينفيه ويستبعد أن يتورّط فيه والداه.

ويصف فرويد المشهد الأولي ومترتباته في مقاله «رجل الذئاب» (١٩٢٨)، ويؤكد فيه أن هذا المشهد سواء كان خبرة حقيقية في الطفولة أو أنه

تخيل له أساس من الواقع مع ذلك، فهو مسألة يثبتها التحليل النفسي ويتأكد كظاهرة عامة لدى كل العصابيين كما هي على الأغلب عند كل البشر. والمشهد الأولى في البناء النفسي الفرويدي من التخيلات الأولية اللاشعورية، وهو موجود لدى كل إنسان مهما كانت طبيعة خبراته الشخصية، ويشكل تراثاً ينتقل عبر الأجيال، وفي مقال «رجل الذئاب» السالف يفهم الطفل الجماع بين والديه كاعتداء من الأب على الأم في علاقة سادية ماسوشية، كما أنه يستثيره جنسياً ويبرّر له لاشعورياً مخاوفه من الخصاء الذي يمكن أن يوقعه الأب به، ويدخله ضمن الإطار النظري الفرويدي لما يسمى الجماع الشرجي، وهو تخيل آخر لدى الأطفال باعتبار الشرج مكان الولادة، وإذن يكون أيضاً مكان الجماع. ويقوى من هذه التخيلات مشاهدات الطفل للسفاد بين الحيوانات والطيور، وربما لم يكن قد شاهد واقعياً مثل هذا الجماع بين الوالدين ولكنه تخيله استنتاجاً من مشاهداته على الطبيعة، أو ربما تحصل له هذا الاستنتاج من سماعه لأصوات الجماع بين والديه في حجرة مجاورة، ولا يستوعب الطفل كل ذلك إلا لاحقاً، ومهما كانت ضآلة خبرته بالمشهد الأولي فإن التخيل شرط ضروري فيه، وسواء كان عن حقيقة أو تخيلاً فإنه يشكل واقعاً نفسياً للطفل، ونسيانه أو كبته هو أساس التطوّرات العصابية اللاحقة والتعيّن بأحد الوالدين وتقوية الميول السادية أو الماسوشية والفوارق بين الجنسين، كما أنه قد يشكل تفسيراً لإخصاء الأم بالنظر إلى ما يخبره الطفل في المشهد الأولي من معاناة للأنثى مصدرها العدوان الذكري، وقد يدفع بالصغير إلى ممارسة الاستمناء، ولهذا يكون تخوّفه من الإخصاء، والإخصاء هو تخيل وارد عند الأطفال الذكور سواء كان هناك تهديد بإيقاعه أو لم يكن هناك، فالطفل يتخيّل هذا العقاب ربما نتيجة ما يكتشفه في الأم والإناث عموماً أنهنّ مخصيات، وربما يتحصّل له تخيل هذا العقاب بعضوه الذكري لتهديد الأبوين له بكسر أصابعه مع استمراره مصه لها، وينسب فرويد الإشباع التطلعي إلى مطالعة الأطفال لهذا المشهد الأولي.

مراجع

- Freud: Aus de Anfängen der Psycoanalyse, (1902)

❖ ❖ ❖

– المضحك...

- **Comic (E.);...**
- **Comique (F.);....**
- **Komische (D.)...**

هو صفة الموضوع الذي يدفع المشاهد أو السامع أن يرى فيه ما يُضحك، وينقل فرويد عن برجسون قوله إن الموقف يستدعي الضحك إذا احتمل تفسيرين متناقضين في الوقت نفسه. ويرى فرويد أن عنصر الإضحاك في الموضوع هو نفسه عنصر الإضحاك عند سماع النكتة وعند الترخّص في الكلام، وفي هذه الفنون الثلاثة فإن الاختصار الشديد الذي هي عليه، والمدة البسيطة التي يستغرقها، والمفاجأة التي تستثيرها الحبكة، كلها عناصر لا تستهلك الكثير من طاقة القائل والمستمع معاً، وذلك يريح الاثنين ويسعدهما. ومن رأي أيدلبرج أن الإضحاك عملية تمارس فيها المشاعر الطفلية بالقدرة المطلقة، فصاحب النكتة يسعده جداً أنه بها صار في وضع القادر قدرة مطلقة، وخاصة إذا شاهد أثر نكتته على الآخرين، والآخرون بدورهم يسعدهم أنهم استطاعوا أن يفهمونا ويتحصل لهم بذلك شعور بالتفوّق، ثم إن ما نجده مضحكاً يكشف عن البواطن التي تعتمل في الرائي أو السامع. والضحك خبرة حسيّة وفكرية، والمتعة المتحصلة به متعة جمالية، وفي الضحك يكون التصريف المتسامي للدوافع والرغبات اللاشعورية أو قبل الشعورية التي لم تجد التصريف إلا من خلال التقدير الجمالي للشيء المضحك. (أنظر أيضاً النكتة وعلاقتها باللاشعور).

مراجع

- Freud: Jokes and their Relation to the Unconscious. (1905)
- Eidelberg L.: Studies in Psychoanalysis. (1948)

❖ ❖ ❖

– «المعاناة في الحضارة»...

- **«Civilization and its Discontents» (E.);...**
- **«Malaise dans La Civilization» (F.);...**
- **«Das Unbehagen in der Kultur» (D.)...**

هذا الكتاب بدأه فرويد سنة ١٩٢٩ وانتهى منه على عجل، ولم يستغرق تأليفه إلا الشهر أو نحوه، واقترح أن يسميه في أول الأمر «البؤس في الحضارة Das Unglück in der Kultur»، ثم اختار له الإسم الألماني إياه، ونشر الكتاب سنة ١٩٣٠، ولما فكّرت جماعة التحليل النفسي في ترجمته إلى الإنجليزية احتاروا في نقل المعنى الذي تتضمنه لفظة Unglück أو لفظة Unbehagen فالكلمات الإنجليزية المساوية من أمثال dis-ease كانت قاصرة، واقترح فرويد نفسه للعنوان الإنجليزي «عدم الراحة في الحضارة Discomfort in Civiliztion»، ووافق أخيراً أن يكون العنوان «الحضارة وإزعاجاتها» وهو الذي نشرت به الطبعة الإنجليزية واشتهر به الكتاب، ومع ذلك فقد اخترنا له الإسم أعلاه بالنظر إلى مضمونه. وكان رواج الكتاب بالألمانية وبالإنجليزية عظيماً، حتى أنه بيع من الطبعة الألمانية وحدها اثنتا عشرة ألف نسخة في أولى إصداراتها وخلال سنة واحدة، غير أن النقّاد لم يعجبهم الكتاب وقالوا إنه دون مستوى فرويد، ولم يكن فرويد نفسه راضياً عنه، ولخصه في خطاب إلى لو أندرياس سالومي فنبّه إلى أنه مكمل لكتابه «مستقبل وهم» الذي كان قد أصدره سنة ١٩٢٧، وكان فيه يعرض لمسألة الدين واعتبره محاولة من الإنسان لأن يرسّخ اعتماديته ويركن إلى سلطة أعلى منه هي سلطة الله، لخوفه

من المسؤولية، ومن القلق الذي يمكن أن يُصاب به كلما فكّر أنه حر، وأنه مسؤول عن اختياراته، وهو لا يريد أن يكون مسؤولاً، ويرهب الحرية لهذا السبب ، ولا يرى في نفسه إلا أنه عاجز لا حيلة له أمام المرض مثلاً، وحيال القدر، وفي مواجهة الآخرين من بني جنسه.

والكتاب يتميّز بالأسلوب السهل، واستهدف به فرويد القارىء العادي، وبعد أن يطرح فيه مسألة الدين ويؤكد ما سبق أن ذكره في كتاب «مستقبل وهم» من حجج ضد الدين، يبدأ في مناقشة الوضع الوجودي للإنسان في الكون، وهل من مبرّر للاستمرار في الحياة، وماذا يريد الإنسان في حياته، وماذا يراد به فيها، وأسباب المعاناة التي يقاسيها، وما المخرج منها، وغير ذلك من الأسئلة التي يمكن أن تكون دافعاً للإنسان أن يكون قدرياً، وأن تتلبسه أحوال ميتافيزيقية كالتي تتلبسه حالياً.

والكتاب يعالج مشكلة الوجود في مجتمع، أو الوجود مع الآخرين، وهو على ذلك من مؤلفات فرويد التي تنتمي إلى مرحلة التنظير النفسي الفلسفي، أو كما يسميها فرويد نفسه المرحلة الميتاسيكولوجية، ومعنى ميتاسيكولوجي أنه الذي يتجاوز البحث فيه مجال علم النفس ويتناول قضايا «وراء» هذا العلم.

وكان فرويد عندما أصدر هذا الكتاب قد تجاوز السبعين من عمره ولكنه ما زال يمارس حياته العلمية ويواصل إبداعه، إلا أنه لم يرَ أن هذا الكتاب ينتمي إلى جموعة مؤلفاته التي يعتز ويفاخر بها، وهو كما وصفه من النوافل the Superfluous، أي لم تكن ثمة ضرورة ملحّة لتأليفه، أو أن الأفكار التي يعرضها فيه من الحواشي، واعتذر عن تأليفه بأنه لم يكن لديه عمل آخر يبذل فيه جهده ويقضي وقته بخلاف التدخين ولِعب الورق، ولم يكن بوسعه أن يمارس المشي لمسافات طويلة، ولم يعد يجد لذة في أغلب ما يقرأ، وآثر لذلك أن يكتب، وبهذه الطريقة كان الوقت يمضي به سريعاً وينصرم سهلاً.

ومع ذلك فالكتاب له أهمية، لأنه إبداع فرويد في مجال آخر هو مجال علم النفس الاجتماعي أو علم الاجتماع النفسي. وقد يبدو الكتاب وكأنه في غير

مجال فرويد، إلا أنه في الواقع من صميم مجاله، وينتمي إلى مجموعة مؤلفاته التي حاول فيها أن يطبّق النتائج التي توصل إليها في التحليل النفسي في غير المجال الكلينيكي أو المجال النفسي التنظيري، وهو من ثم يؤصِّل لما يسمى التحليل النفسي التطبيقي.

وكان رومان رولان قد ناقش مع فرويد الحالة الشعورية التي تلمّ بفئة المتصوفة، والتي يكونون فيها مستغرقين في الوجود، وأطلق فرويد على ذلك اسم الشعور الاستغراقي أو المحيطي Oceanic Feeling ووصفه بأنه نكوصي أو إرتدادي، بمعنى أنه من مرحلة سابقة من مراحل التطوّر البشري، وأنه شعور بدائي أو إبتدائي، يردّ صاحبه إلى الطفولة، وأنه شعور لا يقتصر على المتصوفة، وقد يشمل آخرين، والطفل لا يميّز بين ذاته والعالم الخارجي، ويتعامل مع هذا العالم كامتداد لجسمه، والدعوى بأن الصوفية وحدهم أو من على شاكلتهم مهتمون بالوجود، وأنهم غائيون، دعوى متهافتة، ويجرنا ذلك إلى التساؤل نحن أيضاً عن معنى الحياة، وهو سؤال لا معنى له، وينهض على مقدمات ليس لها ما يبررها، وفي عالم الحيوان لا يوجد سؤال كهذا، والأولى أن نسأل سؤالاً أقل تواضعاً وهو ماذا يريد الناس بما يسلكون، ويجيب فرويد بأن كل إنسان يسعى ليحقق لنفسه السعادة، وسلوكه هذا في الحياة هو هدفه، وليس ما ينشده هو السعادة بمفهومها الضيّق ولكنها أيضاً بمعنى الرضا عن نفسه وعمن حوله، وأن تتحصل له الطمأنينة وراحة البال، وأن يتحقق له رغباته وتُلبّى حاجاته. والحياة يحكمها مبدأ اللذة - الألم، بمعنى أننا نلحّ على ما يعطينا اللذة ونتجنب ما يكون لنا منه الألم، إلا أن اللذة المتحصلة فعلاً قليلة، ولا تأتينا إلا لماماً، والألم الذي نعانيه إنما هو الغالب، وهو ألم يتحصّل من ثلاثة مصادر - من الأمراض التي تصيبنا والآلام التي نتجرعها جسدياً، ومن أخطار العالم الخارجي التي تهدّدنا ويلحقنا منها الأذى، ومن علاقاتنا بالآخرين وما تتضمنه من صراعات وخلافات، وربما كانت هذه الخلافات هي أكثر ما نصاب من جرائه بالألم، وعلى ذلك فقد اتفق الناس وتعاهدوا على أن لا

يـؤذوا بـعضـهـم الـبـعض، وأن تـتـحـدّد مطالبهم من بعضهم البعض فلا تزيد. واعتبروا هذين المطلبين أهم من إلحاح حـاجـاتـهـم ورغـبـاتـهـم الـتـي يـكـون فـي تحقيقها وتلبيتها تحصيل اللذة المبتغاة.، وفَرض هـذان الـمـطـلـبـان نـفـسـيـهـمـا عـلـى الناس جميعاً، وحتى الأقوياء منهم الذين قد يفكرون في استخدام قوتهم لتحقيق مآربهم بصرف الـنـظـر عن نتائج ذلك على الآخرين، وهذا الاتفاق الجماعي هو الخطوة الحاسمة التي خطتها البشرية نـحـو الـتـمـدّن وإرسـاء قـواعـد الاجـتـمـاع، وتصحيح التوجهات لتأسيس الحضارة وإقامة الثقافة. ومضمون هذا الاتفاق نـفـسـي، لأن الـنـاس بـه قـد تـراضـوا فـيـمـا بينهم على تأجيل إشباع رغباتهم، أو على صرفها في قنوات إجتماعية يرتضونها، ولعلّ أول مطالب التحضر أو التمدّن أن يكون الناس سواء أمام القانون، وأن تكون العدالة هي الفيء الذي يتفيّأه الجميع ويظلهم بمظلته، بمعنى أن القانون وقد صيغت بنوده لمصلحة الجميع لن يجرؤ أحدهم أن يخرقه لمصلحته أو يفسره بحسب هـواه. وبـالـطـبـع سـتـكـون هـنـاك مخالفات وسيحاول البعض التحرّر من ربقة القانون والخروج عليه، بمعنى أنه سيكون هناك صراع بين مطالب الفرد ومـطـالـب الـمـجـتـمـع، ولـعـلّ أبـرز مـجـال لـلـصـراع هـو مـجـال الـجـنـس. ويـفـرض المجتمع قيوداً على الجنس منذ الطفولة، ومن ذلك عقوبة الزنا، وتحريم المحارم، وخـطـر الإبـاحـيـة والشذوذ، ومـنـع تـعـدّد الأزواج والـزوجـات، والـنـتـيـجـة أن الـحـيـاة الـجـنـسـيـة لا تـزدهـر بـسـبـب الـحـظـورات والـنـواهـي والـزواجـر، ويـبـدو الإنسان فـي بعض الأحيان وكأن وظائفه الجنسية قد ضمرت أو في طريقها للضمور، ويصاب بأنواع الأعصبة المنتشرة، ويعاني من ذلك، ويقلّ بالتبعية نشاطه الثقافي، فأين ينصرف الليبدو بعد أن حيل بينه وبين الهدف الأصلي؟ ليس هناك سوى العدوان مـمـارسـة الـعـنـف والـكـراهـيـة. وتـتـهـدّد الحضارة بهذه الممارسات العدوانية أو العدائية، وتستعين الحضارة أو المدنية بكل مـا يـسـعـهـا مـن وسـائـل لـتـحـول بـيـن الإنسان والسلوك العدواني، وهو أكثر ما يتهدّد الحضارة، ولعلّ أبرز هذه الوسائل الـمـزوّد بـهـا الإنـسـان بـالـفـطـرة هـي

استـدخـال الـمـحـظـورات والـنـواهـي والـزواجـر لـيـكـون بـهـا الأنـا الأعـلـى أو الضـمـيـر. والأنـا الأعـلـى بـدوره يـمـارس العدوان على الأنـا، كالعدوان الذي كان مـن الـمـفـروض أن يـمـارسـه الأنـا عـلـى الآخرين. ومن الصراع بين الأنا الأعلى والأنا تتكوّن مشاعر الذنب، وينشأ الشعور بالذنب لا من الخطيئة الأولى التي كانت لآدم، وإنـمـا نـتـيـجـة الـخـوف مـن فـقـدان المحبة، وعندما يتأكد تكوين الأنا الأعلى فإن الخوف من إغضابه يكون أقوى من الخوف من إغضاب الناس أو المجتمع، ولا يستشعر الضمير الرضا من مجرد انتهاء الفرد عن فعل الرذيلة أو ممارسة الحرام، لأن الرغبة أو النية أو الخاطر ما يزال موجوداً، ولا يخلصنا من هذه النوايا أو الـهـواجـس الـزهـد والـتـصـوّف والـتـزام العفّة واعتزال الناس والاستكفاء بالقليل، ولأن ذلك كـلـه يـرسّـخ الشـعـور بـالـذنـب ويزيده حدّة، باعتبار أن كل ما سبق هو عذابات يستنزلها الفرد بنفسه كعقاب يستحقه، وهـنـا يـقـتـرح فـرويـد الـفـكـرة الجديدة: أن الشعور بالذنب هو ردّ فعل لـلـغـضـب الـمـعـتـمـل فـي الـنـفـس، ولـلـمـيـل لـلـعـدوان بـعـنـف، ولأنـه غضبٌ وعـنـفٌ وعدوانٌ مكبوت فهو لا يظهر على السلوك إلا كمشاعر بالكدر وعدم الرضا والبؤس والشقاء والحزن. والفكرة التي يريد أن يطرحها في الكتاب إذن هي: أن الحضارة أو المدنية أو التمدن ثمنه الشعور بالذنب وفـقـدان السـعـادة. ويـنـهـي فـرويـد كـتـابـه بالتنبّؤ بمستقبل الإنسانية، بأنه ستحدث تغيّرات في المجتمعات وفي التوجهات الحضـاريـة، مـن شـأنـهـا إرضـاء وإشـبـاع حاجات الأفراد وإنهاء الكثير من أوجه الشكوى من النظم القائمة، وإنما يجب أن نعي جيداً أن هناك أنواعاً من القصور طبيعية في الأساس الاجتماعي، وفي طبيعة التحضّر الإنساني لن يمكن إصلاحها أو لا تقبل الإصلاح.

مراجع

- Freud: The Future of an illusion. (1927)

:Civilized Sexual Morality and Modern Nervous Illness. (1908)

❖ ❖ ❖

– المقاومة...

- Resistance (E.); (F.);...
- Wilderstand (D.)...

المقاومة المقصودة هي مقاومة المريض للعلاج أثناء التحليل النفسي، ويتحدث فرويد عن الرفض لأفكار التحليل النفسي الذي تبديه الأوساط العلمية كنوع من امتداد معنى هذه المقاومة السابقة. ويذكر في التأريخ لنشأة التحليل النفسي أنه لم يأخذ بالتنويم الإيحائي الذي قال به بروير رغم أنه كان سهلاً ومُيّسراً ولا يستغرق إلا وقتاً قصيراً نسبياً، لأنه كان من المحال فهم العوامل الدينامية في الأعصبة من خلال التنويم، فالنوم المغناطيسي يصدّ المقاومات فيَخفي وجودها على المحلّل، ولذلك فالتحليل النفسي لم يبدأ معناه الصحيح إلا حين تنكب الأخذ بالتنويم المغناطيسي.

ويبدي المريض كل مظاهر المقاومة اللاشعورية للعلاج، ويستهدف المحلّل النفسي تفطينه إلى أنواعها، وأن يحسب حسابها، وأن لا يحاول أن يخفي من أمر خواطره وتداعياته وأفكاره ومشاعره وذكرياته شيئاً، وأن يتبع هذه القاعدة الأساسية بأمانة، لأن نجاح العلاج ومدته رهن بالحرص عليها وتنفيذها حرفياً، إلا أن المريض عملياً لا يمكن أن يفعل ذلك، ويبرع المصابون بالحوار خصوصاً في إفشال تطبيق هذه القاعدة بإبداء صنوف الشك والارتياب إزاءها وتوجيه مقاوماتهم في شكل معارضات فكرية.

وليست المقاومة الفكرية هي أخطر أنواع المقاومات وأسوأها، وإنما هناك المقاومة الأخطر عن طريق طرح المريض لعواطفه واتجاهاته العدوانية ضد شخصيات من طفولته على شخص المحلّل، أو تطرح المريضة عليه مشاعر وديّة قد تغالي فيها ويشوبها الجنس. الأمر الذي يفسد العلاقة بين المريض أو المريضة والمحلل ويعطل عامل من أقوى العوامل المحركة للعلاج ويكون بمثابة المقاومة له. وما كانت هذه السمات الخُلُقية في المرضى لتظهر من دون العصاب، وهي ردّ فعل لمطالبه،

ويسميها فرويد سمات كامنة، وظهورها لايكون إلا في شكل مقاومة للتحليل.

ويتعلّل المريض بكل مناسبة تطرأ أثناء العلاج للانصراف عنه والتهوين من طريقة التحليل النفسي، وقد يتعلّل بحادث عارض، أو مرض عضوي طارىء، وقد يتعلّل بأي تحسّن في حالته، وتتخذ المقومات صوراً عديدة، ويشكل القول بالمقاومة أساساً ديناميأً لنظرة التحليل النفسي للأمراض النفسية.

وتختلف شدة المقاومة أثناء مدة العلاج، وتزيد كلما ظهر عنصر جديد في التحليل، وتصل إلى نهايتها العظمى من الشدة مع إمعان النظر في هذا العنصر وتقليب الفكر فيه، ثم تضعف وتخفت مع استهلاكه.

والكبت هو الشرط الأساسي التمهيدي لتكوين الأعراض، والأعراض بدائل عن شيء لم يتسنَ له أن يصبح شعورياً، فيظل لاشعورياً حين يواجَه بمقاومة عنيفة تحول دونه وولوج الشعور.

وتتأتى المقاومة التي يجب القضاء عليها في التحليل من الأنا، ويتحصن الأنا ضد اللاشعور بشحنات نفسيّة مضادة. وتظهر النزعات المكبوتة أثناء التحليل متعارضة مع الأنا، ومهمة التحليل إزالة مقاومات الأنا للنزعات المكبوتة لكي تسفر وينكشف أمرها ويستبصرها المريض. والمقاومة التي يبديها الأنا هي شيء لاشعوري فيه وتتصرّف تماماً كالشيء المكبوت.

ويتلاشى في النوم جزء كبير من الكفّ الذي يفرضه الأنا على اللاشعور، وتُسحب الشحنات النفسية التي تقوم بوظيفة المقاومة أو إضعافها، فتكون للاشعور بعض الحرية، وتخرج الرغبات والأفكار اللاشعورية في الصورة الحلمية المقنّعة.

وفي الهفوات وفلتات اللسان والنسيان وزلاّت القلم، يتداخل قصدان مختلفان يصادف أحدهما مقاومة لم تفلح في قمعه تماماً فتظهر الهفوة في شكل حلّ وسط يجمع بين القصدين.

ويميّز فرويد خمسة أنواع من المقاومة يصادفها المحلّل أثناء التحليل وعليه أن يزيلها، مصدرها ثلاث جهات هي الأنا والهو والأنا الأعلى، وتصدر عن الأنا ثلاثة أنواع منها تختلف كل منها عن

الأخرى من حيث طبيعتها الدينامية، الأولى منها هي مقاومة الكبت، والثانية هي مقاومة الطرح، وهي من طبيعة مقاومة الكبت نفسها إلا أنها متعلقة بالموقف التحليلي، والثالثة هي مقاومة من طبيعة مختلفة عن الاثنتين السابقتين بالرغم من أنها صادرة أيضاً عن الأنا، وتنشأ عن فائدة المرض، وتتوقف على استيعاب الأنا للعَرَض، وأما الرابعة فهي مقاومة خاصة بالهو، والخامسة تخص الأنا الأعلى وتصدر عن الإحساس بالذنب أو الحاجة إلى العقاب وتعارض أي نجاح للعلاج.

مراجع

- Freud: Introductory Lectures in Psychoanalysis. (1971)

: Inhibition, Symptom and Anxiety. (1926)

❖ ❖ ❖

– « مقدمة في التحليل النفسي وأعصبة الحرب»...

- «Introduction to Psychoanalysis and War Neuroses» (E.);...-

- «Introduction à la Psychoanalyse et les Nérvoses de Guerre» (F.);...

- «Einleitung zur Psychoanalye der Kriegsnurosen» (D.)...

كتب فرويد هذه المقدمة لكتاب إشترك فيه فيرينزي وأبراهام وسيميل وجونز بعنوان «التحليل النفسي وأعصبة الحرب»، ثم نُشرت المقدمة مستقلة ضمن مجموعة أعمال فرويد - المجلد الخامس. وكان موضوع أعصبة الحرب قد أثير في المؤتمر الدولي الخامس لتحليل النفسي، والذي عقد في قاعة الأكاديمي المجرية للعلوم في سبتمبر من عام ١٩١٨، وهو أول مؤتمر يحضره ممثلون رسميّون عن حكومات النمسا وألمانيا والمجر، كمحاولة لفهم حقيقة أعصبة الحرب التي ظهرت كمشكلة

خلال الحرب العالمية الأولى، فقد كان المصابون بها كُثْراً، وكانت حالاتهم تشخّص باعتبارها إدعاءات مرضية للهروب من ميادين القتال، وكان أطباء النفس ينصحون بعلاجها بالصدمة الكهربية. وغالى الأطباء الألمان في استخدام هذا العلاج ليجعلوا المريض يفكر ألف مرة قبل أن يقدم على ادعاء المرض النفسي، وقد أعد فرويد لذلك «مذكرة عن العلاج الكهربي لمرضى أعصبة الحرب» واحتجّ بشدة على استخدام هذا العلاج، وانتقده خصومه باعتبار أنه لم يحدث أن عالج حالة واحدة بهذه الطريقة، أو حتى حضر العلاج بها، لكن الطريقة نفسها هي ما كان يتصادم بشدة مع وجهة نظر فرويد ونظريته العامة في العصاب، ونظريته في أعصبة الحرب بالذات. ولقد ظن خصومه أن أعصبة الحرب تنقض نظرية فرويد في الأعصبة عموماً، واستوجب لذلك من فرويد أن يتقدم بالمزيد من الشروح لنظريته، ففي الأعصبة عموماً يتبين أن المريض يهرب إلى المرض، وذلك ما أخذ به أطباء النفس واعتبروه من أعصبة الحرب، غير أن التحليل النفسي إلى ما قبل ظهور مشكلة أعصبة الحرب خلال الحرب العالمية الأولى، كان يعتبر القوى الدافعة لتشكيل الأعراض في الأعصبة عموماً هي قوى جنسية، وأن الأعصبة تنشأ عن صراع بين الأنا والغرائز الجنسية التي ينكرها، والجنسية المقصودة هي بالمعنى الواسع وليس بالمعنى الضيق للتناسلية. وقد لاحظ جونز أن هذا التفسير لا ينطبق على أعصبة الحرب بالذات، ودافع فرويد عن نظريته بأن البحث في أعصبة الحرب وإن كان لم يتوافق مع النظرية الجنسية للعصاب، فإنه لا يثبت أن هذه النظرية غير صحيحة، وأنه كان ينبغي البحث في أعصبة الحرب كنوع من الأعصبة يتميّز عن أعصبة أمن السلم، التي تعتبر أعصبة صدمات تسهل الإصابة بها وتعززها الصراعات داخل الأنا. والصراع في حالة أعصبة الحرب يقوم بين الأنا المسالم القديم للجندي، وأناه الجديد المحارب، ويبدأ هذا الصراع بمجرد أن يدرك الأنا المسالم الخطر الذي يوقعه فيه الأنا الطفيلي

الذي تشكل فيه حديثاً، وما يمكن أن تتسبّب له مخاطر الحرب من فقدان لحياته. وعلى ذلك يمكن تشخيص الحالة بأن الأنا القديم يحمي ذاته من خطر الحرب القاتل بالهرب إلى عصاب الصدمة، أو أنه يدافع عن نفسه ضدّ الأنا الجديد ومجافاته التي يمكن أن تتهدّد بها حياته، ولذلك فاحتمالات الإصابة بعصاب الحرب ضعيفة مع أفراد الجيش المحترفين، وقائمة في حالة الأفراد المتطوعين والمجندين الجدد، وفي النوعين - أعصبة الصدمات وأعصبة الحرب - يدافع الأنا عن ذاته ضد خطر يتهدده من الخارج. وينبّه فرويد إلى أن كلا النوعين من الأعصبة ليس من الأعصبة التحوّلية التي تصدق عليها النظرية الليبيدية في الأعصبة، ومع ذلك إنه حتى في الأعصبة التحولية فبالإمكان اعتبار العدو الذي يدافع الأنا عن ذاته ضده هو الليبيدو، الذي تبدو مطالبه للأنا خطرة. وفي كل الأحوال يكون الأنا في حالة خوف من أن يلحقه الدمار، في حالة الأعصبة التحوّلية من خلال الليبيدو، وفي حالة أعصبة الحرب من خلال الخطر الخارجي، ومع ذلك فلم يكن فرويد يرى أن بالإمكان علاج أعصبة الحرب بالتحليل النفسي، لأن ذلك يستلزم وقتاً طويلاً لا تهيؤه الحرب للمريض ولا للمعالج.

❖ ❖ ❖

- « مقدمة في النرجسية»...

- «On Narcissism: An Introduction» (E.);...

- «Narcissisme: Une Introduction» (F.);...

«Zur Einführung des Narzissmus» (D.)...

هذه المقدمة كتبها فرويد سنة ١٩١٤، ونشرها ضمن الكتاب السنوي ضمن المجلد السادس، وأعيد طبعه ضمن مجموعة الأعمال الكاملة، وإسم النرجسية يعود الفضل في تعميمه كمصطلح علمي لناكه Näche، والجدير بالذكر أن فرويد صحّح ذلك فيما بعد

وأضاف إلى ناكه إسم هاڤلوك إليس. وفي النرجسية يكون موضوع الحب هو الذات، ويكون التقييم المبالغ فيه لصفات جسم المرء الخاصة حتى ليتخذ جسمه موضوعاً لحبه. والنرجسية بهذه الصفة إنحراف من الانحرافات، وقد نجدها عند الكثيرين ممن يعانون من الانحرافات كالمستجنسين، وقد يكون معناها أشمل من ذلك فلا تقترن بالاستثارة الجنسية. ويفرّق فرويد بين نزعات الأنا والنزعات الجنسية، ولاتعدو أي منهما إلا أن تكون وصفاً لمصادر الطاقة في الفرد، ويطلق إسم الليبدو على الشحنات الوجدانية للطاقة التي يفرغها الأنا على موضوعات نزعاته الجنسية، ويطلق إسم الاهتمام Interest على كل الشحنات الوجدانية الأخرى التي تصدر من غرائز الأنا. ويستطيع الليبدو المتعلّق بموضوعات تحقيقاً للإشباع عن طريقها - يستطيع أن ينصرف عن هذه الموضوعات ويستعيض عنها بالأنا نفسه. ويتميّز الطور النرجسي من أطوار النمو النفسي بالشهوية الذاتية، من حيث أن الكثير من النزعات الجنسية تظفر بالإشباع في أول الأمر من بدن الطفل نفسه، وذلك هو الأسلوب النرجسي في هذا الطور الشهوي الذاتي ويفسّر تأخر الطفل في التكيّف مع مبدأ الواقع الذي تفرضه التربية.

ويفرق فرويد بين النرجسية والأنانية Egoïsm، ويصف النرجسية بأنها التكملة الليبدية للأنانية، وتدور الأنانية على ما ينفع الفرد، وأما النرجسية فتتضمن بالإضافة إلى عنصر المنفعة السابق عنصراً آخر هو إشباع الحالات الليبدية، ومن الممكن أن يكون المرء شديد الأنانية ومع ذلك يكون شديد الإسراف في طاقته الليبدية المتوجهة للموضوع، طالما أن هذا الموضوع هو ما يحتاجه الأنا، وتكون أنانيته شديدة الحذر بأن لا يكون في طلب هذاالموضوع ما يضرّ بالأنا. وقد يكون المرء أنانياً وعلى درجة كبيرة من النرجسية، أي أنه لا يشعر إلا كفافاً بالحاجة إلى الموضوعات الجنسية، إما من ناحية الإشباع الجنسي المباشر، أو من ناحية النزعات المتسامية التي تنشق من الحاجة الجنسية، والتي اصطلح الناس على تسميتها بالحب للمباينة بينها

وبين الشهوانية الخالصة، وفي كل هذه الأحوال تكون الأنانية هي العنصر الثابت الواضح، بينما النرجسية هي العنصر المتغيّر. والغيرية Altruism هي المقابل للأنانية، ولا تعني إفراغ الليبيدو على الموضوع، كما أنها لا تلتمس الإشباع الجنسي من الموضوع. والغيرة في الحب تطابق تركيز الليبيدو على الموضوع، حيث يجتذب الموضوع الجنسي جزءاً من نرجسية الأنا، ومن ثم يكون الإغراق في تقدير القيمة الجنسية للموضوع، فإذا أضيف إلى ذلك غيرية أخرى مصدرها أنانية المحب ورغبته في الاستئثار، فإن الموضوع الجنسي تصبح له حينئذ القوة على استلاب الأنا تماماً وامتصاصه فيه. والألصق في النرجسية أن يكون الموضوع المختار من الجنس نفسه، ولذلك فعندما يرفض الأنا أن يكون إستجناسياً فإنه يسهل عليه أن يعود نرجسياً. ويطلق فرويد إسم النرجسية الثانوية Secondary n. على ارتداد الليبيدو المنسحب من الموضوع إلى الأنا، كما يطلق إسم النرجسية الأوّلية Primary n. على الحالة المبكرة التي يحصر فيها

الطفل توظيف طاقته الليبيدية في ذاته هو. ويتخذ إختيار الموضع بعد المرحلة النرجسية الأولية أحد شكلين أو نمطين، الأول هو النمط النرجسي Narcissistic Type حيث يكون اختيار الأنا لشخص يشبهه بقدرالمستطاع فيجعله موضوعاً لحبه بدلاً من ذاته، والثاني هو النمط التكافلي Anaclitic type فيكون اختياره لأشخاص يعتمد عليهم ويكفلون له إشباع حاجاته. وإذا تثبّت الليبيدو على النمط النرجسي في اختياره لموضوع الحب فإن ذلك يكون بمثابة الإرهاص بالاستجناس. والرجل عموماً أميل للنمط التكافلي، ويستمدّ اختياره للموضوع من نرجسيته الطفلية، ولذلك يبالغ في تقديره للموضوع، وهذه المبالغة هي أصل هذه الحالة المتميّزة من الحب التي تختص بالرجال دون النساء، وقد تكون إجباراً عُصابياً، ويترتب عليه سحب الليبيدو من الأنا لمصلحة موضوع الحب. وعكس ذلك تماماً مع النساء المتسمات بالأنوثة المفرطة، فمع البلوغ تتغير أعضاء المرأة الجنسية إلى النضج، وكانت قبل ذلك في حالة مكون، وتُشغَل بها وتكون محط

اهتماماتها، وتوقظ فيه نرجسيتها الطفلية فتتحوّل إلى جسمها وخاصة إذا كانت جميلة، وأمثال هؤلاء الجميلات يكن محبات لأنفسهنّ بدرجة كبيرة تقابل تدله الرجال في حبهن، ويتوجه اهتمام هؤلاء النسوة إلى طلب الحب ولا تكون بهن حاجة لأن يكن هن أنفسهن محبّات، وتكون أمثالهنّ محط جاذبية للرجال لأسباب جمالية ونفسية، إذ يبدو أن النرجسية عند البعض عموماً قد تستهوي آخرين قد تنأزلوا عن بعض نرجسيتهم بحثاً عن موضوع لحبهم.

ويبدو أن سحر الأطفال يكمن في نرجسيتهم واستكفائهم الذاتي وعدم قابليتهم للتواصل مع الكبار، وبعض الحيوانات كالقطط مثلاً لها هذه الجاذبية فلا يبدو عليها أنها مهتمة بمن حولها. وفي الأدب يستهوينا نمط المجرمين الكبار باهتمامهم الزائد بأنفسهم، وبسعيهم الدؤوب لتجنّب كل ما من شأنه الإقلال من إحساسهم النرجسي بأنفسهم وتصغيرهم في عين أنفسهم. وفي النساء النرجسيات قد تتحوّل اهتماماتهنّ النرجسية بعد الإنجاب إلى أطفالهنّ باعتبارهم إمتداداً لأجسامهنّ، ويصبح الطفل مع ذلك موضوعاً للحب بخلاف ذات المرأة الأم. وعموماً فإن الإنسان قد يُحب، طبقاً للنمط النرجسي، موضوعاً يشبهه، أو قد يحب موضوعاً كان يشبهه، أو قد يحب موضوعاً يتمنى أن يشبهه، أو قد يحب شخصاً كان جزءاً منه. وقد يحب الرجل طبقاً للنمط التكافلي إمرأة ترعاه، كما أن المرأة قد تحب الرجل الذي يحميها.

وتظهر النرجسية في حالة النوم، وينسحب اللبيدو من العالم الخارجي ويمتثل للرغبة في النوم. ويخدم النشاط في الأحلام هذه الرغبة، فكأن دوافع الحلم هي دوافع أنانية. وفي النوم ترتد كل الشحنات التي كانت منصبّة على الموضوعات تعود إلى الأنا فيمتصها، ولهذا يكون الشعور بالراحة والاستجمام في النوم، لأن الأنا فيه لا يتعلّق بأية مشغوليات، ويسترجع العزلة التي كانت له في الرحم، ويسترجع النرجسية الأوّلية والتي كان اللبيدو فيها مع اهتمامات الأنا في اتحاد لا تمايز فيه بينهما، ولعلّه لهذا تستطيع المادة اللاشعورية استغلال

الحالة التي عليها الأنا في النوم، أو غفلته خلال النوم، فتستحوذ على بقايا اليوم السابق وتكوّن رغبة حلم محظورة من هذه البقايا.

وتخلق حالات المرض العضوي، أو التهيّج المؤلم، أو التهاب عضو من الأعضاء، إنفصالاً للبيدو عن موضوعاته، يتوجه للأعضاء المريضة من الجسم فيتعلّق بها، ولعلّ ذلك هو سبب الوساوس المرضية عندما تصبح أعضاء من الجسم مصدر همّ وقلق للأنا مع أنها غير مريضة فعلاً.

وينبّه فرويد إلى أن بحوثه في الأعصبة الطرحية هي التي استمدّ منها تمييزه بين اللبيدو والاهتمامات وبين الغرائز الجنسية وغرائز حفظ الذات، ولا يولد انسحاب اللبيدو عن موضوعاته وارتداده إلى الأنا - لا يولد المرض مباشرة، وإنما تولده عملية كبيرة تجبر اللبيدو على الانفصال. وتراكم اللبيدو النرجسي تراكماً يفوق الحد هو الذي يدعو الأنا أن يطلب الموضوعات ليصرف فيها اللبيدو وليتفادى الآثار المرضية لتراكمه المفرط. وإذا حدث تثبيت للبيدو على المرحلة النرجسية الأوّلية فإن ذلك مدعاة للإصابة بالخبل المبكر مثلاً. وعموماً فإن مراكز تثبيت اللبيدو في حالة الأعصبة النرجسية (الذهانات) تقع في مراحل من التطوّر أسبق بكثير مما هي في الأعصبة الطرحية. ولا تقتصر الأعراض في الخبل المبكر على إكراه اللبيدو على التراجع عن الموضوعات وتراكمه في الأنا بصورة نرجسية، وإنما في محاولات اللبيدو للعودة إلى الصور الذهنية لموضوعاته فلا ينال منها إلا ظلالها، أي صورها اللفظية لا غير والكلمات المرتبطة بها. ويصل فرويد بين الخبل المبكر وبين البارانويا ويطلق على الاثنين إسم البارافرينيا. وترتبط البارانويا بمحتواها فيُقال بارانويا العظمة أو الاضطهاد أو الغيرة. ويرد التحليل النفسي مشاعر العظمة لتضخم الأنا باللبيدو المنتزع من موضوعاته، وعلى ذلك فبارانويا العظمة هي نوع من النرجسية الثانية تَعرِض كأنها بعث للنرجسية الأوّلية التي تميّز الطفولة الباكرة. وفي مرض الميلانخوليا الذي يتميّز بأوجه التبكيت واللوم من المريض

إلى نفسه، فإن المريض يسحب من الموضوع الجنسي الذي كان يحبه وفقده، أو فقد تقديره له لخطأ ارتكبه - يسحب منه ما كان متعلقاً به من لبيدو، ويستبدل نفسه بالوضوع فيما يسمى التعيّن النرجسي، وعندئذٍ يعامل أناه كأنه الموضوع المفقود أو المهجور. وتتميّز الميلانخوليا عموماً، والاضطرابات النرجسية الأخرى، بالتناقض الوجداني، أي وجود عاطفتين متناقضتين من المحبة والكراهية نحو شخص بعينه. وتساعد دراسة الاضطرابات النرجسية على استكشاف البناء النفسي، ففي ذهان المراقبة مثلاً يشكو المريض من قوة غير ظاهرة تراقب كل خطواته وتنتقده عليها، وهذه القوة هي أناه المثالي وقد خلقه بنفسه خلال نموّه وكان من شأنه أن يتحصل له به الرضا عن نفسه، وهو الرضا اللصيق بنرجسيته الطفلية الأولية، وهذه القوة هي ما عرفها باسم الضمير، وهي نفسها التي تراقب الأحلام والرغبات، ولكنها إزاء ما تلاقي من صدمات فإنها قد تنحل كما في هذاء المراقبة وتكشف عن أصلها باعتبار نشأتها بتأثير الأبوين عن طريق عملية التعيّن بما يعثر عليه الطفل من نماذج يتمثلها.

❖ ❖ ❖

- «ملاحظات عن حالة عصاب قهري»...

- «Notes Upon a Case of Obsessional Neurosis» (E.);...
- «Remarques sur un Cas de Nérvose Obsessionelle» (F.);...
- «Beurkungen über einen Fall von Zwangsneurose» (D.)...

هذه الملاحظات نشرها فرويد سنة ١٩٠٩ يواصل بها ما سبق أن أصدره عن العصاب القهري سنة ١٨٩٦، والحالة التي نحن بصددها إشتهرت باسم حالة رجل الفئران The case of the rat man أو Le cas de l'homme aux rats، وهي عن محام شاب في نحو الثلاثين كان يشكو من رغبات وأفكار قهرية وخوف قهري،

مضاد لها، وعندما عرض نفسه على فرويد كان المرض قد استفحل معه، والمرضى بالعصاب القهري عادة لا يطلبون العلاج إلا بعد أن يزيد بهم المرض، وهذا المريض سمع بفرويد وقرأ بضع صفحات له عن مثل حالته ولكنه لم يقرأ مؤلفاته، وعالجه فرويد لمدة أحد عشر شهراً إبتداءً من سنة ١٩٠٧ إلى أن شفي تماماً، إلا أن متابعة الحالة لمدة طويلة لم تتيسر بسبب وفاة المريض خلال الحرب العالمية الأولى.

والصراع الأساسي الذي كان يعاني منه المريض هو الصراع بين دوافعه الغريزية ونتائج هذه الدوافع التي لم يكن يشك أنها ستكون وخيمة عليه وعلى من يهمه أمرهم. وكانت دوافعه الغريزية قوية منذ كان في الرابعة من عمره، وكانت تأتيه رغبات لا يستطيع لها دفعاً أن يطالع عرى النساء، وأن يتناول أعضاءهن الجنسية، وفي السادسة كان يعاني من الانتصاب ومن هواجس لها صلة بأفكاره الجنسية واستطلاعاته، وكانت تستبد به فكرة تلحّ عليه باستمرار أن أبويه يقرآن أفكاره ومطّلعان على رغباته، وكان يفسر ذلك بأنه ربما كان ينطق بها بصوت عالٍ دون أن يسمع نفسه، وظن أن ذلك كان بداية مرضه عندما كانت تأتيه نوبات هاجسة بأن شيئاً ما يتحتم أن يقع لو استمرت به هذه الرغبات وداوم على أفكاره الغريبة، وكأنه كان يتحتم عليه أن يفعل شيئاً ليمنع وقوع هذا الشيء، كأن يموت أبوه مثلاً. ولم تكن هذه هي البداية كما يقول، بل كانت هي المرض نفسه، أي العصاب القهري مكتملاً لا ينقصه أيّ من عناصره الأساسية، إلا أنه كان في هذه السن المبكرة النواة للعصاب اللاحق، والأنموذج الأصلي لما سيحلّ به منه من بعد، وذلك لأن أنا الطفل لا يكون في هذه السن قد تهيّأ ليضع نفسه في معارضة تامة ضد هذه الرغبة، ولم يكن بعد قد اعتبرها شيئاً غريباً تماماً، إلا أنه رغم ذلك كانت هناك معارضة مستمرة، وكان الصراع يزدهر في نفسه، فمع الرغبة القهرية وفي ارتباط وثيق بها كانت تأتيه المخاوف القهرية، وفي كل مرة تنتابه الرغبة لم يكن بوسعه أن يدفع عن نفسه الخوف من أن شيئاً مروعاً سيقع، وهو شيء غير محدّد ومنذر، وله

طابع الغرابة والخرافة، ويولّد حفزات إلى عمل شيء لتفادي الكارثة. وتطوّرت هذه الحفزات إلى إجراءات دفاعية تبنّاها المريض، ولا بد أنه قد عانى قبل أن يبلغ السادسة أحداثاً صدمية وصراعات وكبت عفا عليه النسيان الطفولي وإن كانت هذه الأحداث قد خلّفت وراءها مضمون هذا الخوف القهري. ومن المحتمل أن لا يكون هذا النمط من العصاب القهري هو النمط الوحيد الممكن، ولم يكن هو ما ألجأ المريض لطلب العلاج، وإنما الذي ألجأه إليه أنه خلال فترة تجنيده جرت وقائع له لم يكن أمرها ولا نتائجها سهلة معه، فقد كان يرأسه نقيب تشيكي كان يخافه لقسوته، وحكى له هذا النقيب عن نوع من العقاب ينزله أهل الشرق بالمذنبين، فيخلعون ملابس المذنب ويقيدونه ويلقونه أرضاً على بطنه، ثم ينفذون في شرجه فئران تأكل منه. وكان يبدو على المريض الرعب وهو يحكي القصة، ولم يكن يريد أن يستمر فيها بفعل مقاوماته، إلا أن فرويد ذكّره بوعوده أن لا يخفي عنه شيئاً مهما ظهر له عديم النفع أو بلا معنى أو ممجوجاً، وفسّر فرويد تعبيراته إزاء القصة بأنها كانت مزيجاً من الرعب واللذة معاً لم يكن على وعي بهما، وطرأت في ذهن المريض آنذاك أن ذلك ما كان يحدث لشخص عزيز عليه فعلاً هي السيدة التي كانت تحظى بإعجابه، والفكرتان غريبتان إلا أنهما طرآ على ذهنه متواكبتين، وكانت هناك العقوبة التي كانت بمثابة الإجراء الدفاعي الذي يحول بين هذه التخيلة وأن تتحقق، فعندما حكى له النقيب القصة صدرت منه كلمة ولكن مصحوبة بإشارة استنكار، ونلاحظ أن الخوف الأول الذي أبداه كان الخوف من أن يموت أبوه عقاباً له، والخوف هذه المرة كان هو الخوف أن تعاقب هذه السيدة بهذه الطريقة، وفي الحالتين كان هو الخوف على من يحبهم، واعتقاده أن المصائب التي يتحتم أن تنزل بهم سوف تصيبهم في هذه الحياة والحياة الأخرى أيضاً، وقد جعله العصاب متديناً في الرابعة عشرة، ومتزمتاً، ثم انعتق من تزمته بمنطق تحلّل به من خوفه، أنه غير متأكد من أن هناك آخرة، وعدم اليقين هو سمة من سمات هذا العصاب، والمريض به يأخذ بالاحتمال

الأقل رجحاناً. وروى المريض لفرويد أنه في كل مرة يتداول مع نفسه تتعادل عنده حجتان متناقضتان، ولذلك كان يسلّم نفسه للعوارض بقدرية. ولما مات أبوه لم يكن حاضراً، وأنّب نفسه كثيراً، وبرغم أنه يعرف أنه مات إلا أنه استمرّ يتخيّل قدومه إلى حجرته، ويتخيّل أنه يكلمه، ويقص عليه مجريات أموره، وبدأ تقصيره في حق أبيه يلحّ عليه أكثر ويحاصره ويعوقه بشكل خطير عن العمل. وأفهمه فرويد أنه عندما لا يكون تأنيب الضمير والشعور بالذنب مسايراً لمضمون الفكرة التي تلحّ عليه، عندئذٍ لا بد أن يكون السبب أعمق من ذلك ويرتبط باللاشعور، وعلّق المريض أن ذلك لا يحدث إلا إذا كان هناك انشطار في الشخصية. ويفسر فرويد هذا الانشطار بتحديد الطابع القهري لنتاجات هذا العصاب، بأن مريضه كان منقسماً إلى ثلاث شخصيات، منها شخصية لاشعورية، وشخصيتان قبل شعوريتين يتأرجح شعوره بينهما، فشخصيته اللاشعورية تتضمن الحفزات التي عانت الكبت في الطفولة والتي يمكن وصفها بأنها شريرة ومشبوبة، وكان في شخصيته العادية طيباً ومرحاً، ومرهف الحس، وإنساناً مثقفاً ذكياً، وفي شخصيته الثالثة يتكشف مؤمناً بالخرافة وزاهداً، ومن ثم كان بوسعه أن يكون له رأيان في الموضوع، وتصوران للحياة، وهذه الشخصية الثانية والقبل شعورية تتضمن أساساً التكوينات الضدية لرغباته المكبوتة، والمفروض في هذه الأحوال لو ترك المريض نفسه للمرض أكثر من ذلك أن تبتلع هذه الشخصية شخصيته العادية.

وقد يبدو أن السبب المباشر لمرضه تردّده أن يختار كزوجة من يحبها، أو من وقع عليها اختيار أسرته، وكان أبوه قد عرضت في حياته مشكلة مماثلة واختار الثرية التي حازت رضا أهله، إلا أن هذا المريض حلّ الصراع بين رغباته ورغبات أبيه، وبين حبه وإرضاء أسرته، بأن وقع مريضاً فأفلت من عبء حل المشكلة بإرادته. وهناك خيط يربط بين هذا السبب المباشر لمرضه وبين طفولته، فقد وجد نفسه في موقف كالموقف الذي كان فيه أبوه قبل أن ينجبه، ولم يكن

صراعه الحالي في الرشد إلا مواصلة لصراعات قديمة في الطفولة، فالأب كان يتخذه صديقاً ويسّر إليه بكل أسراره ويشاركه فيها إلا في مسألة واحدة بسببها تمنّى موت أبيه، وهي مسألة عواطفه الجنسية المشبوبة، وأظهر التحليل أن الإبن ارتكب في طفولته شيئاً كشفه الأب وعاقبه عليه بقسوة وضربه بسببه ضرباً مبرحاً، وربما كان هذا الشيء هو الاستمناء، وربما كان هو استطلاعياته الجنسية الداعرة، وربما كان أنه عضّ أحداً، ويبدو أن ذلك كان قبل أن يبلغ سن السادسة، ويبدو أن العقاب عليه خلّف وراءه كراهية للأب لا تنمحي، وجعل صورة الأب صورة المعكر لصفو استمتاعه الجنسي. ولم يقرب المريض الاستمناء حتى في المراهقة، واستغرقه لما بلغ الواحدة والعشرين، وأثرت فيه واقعة الضرب حتى أنه غدا جباناً. ويقول فرويد إن هذا الحادث كثيراً ما يلتقي به المحلّلون النفسيون في التاريخ الباكر لطفولة المرضى النفسيين عندما يكون النشاط الجنسي الطفلي في أوجه، وينتهي غالباً نهاية صدمية بسبب عقوبة أو صدفة مؤسفة، ويخلف حساسية معقدة. ويعزو فرويد لهذه الحساسية الغضب الشديد للمريض لدى سماعه قصة العقاب بالفئران، واستوجبت القصة مستدعيات كثيرة واكتسبت دلالات رمزية كلما استغرقته التداعيات، وابتعثت فيه ما كان مكبوحاً من دفعات القسوة والكراهية والأنانية والجنسية، واستثارت عدداً من الغرائز. وذكر إمرأة الفئران لإبسن، وتذكر أنه كان يزور في إحدى المرات قبر أبيه فرأى فأراً يخرج منه، واعتقد أنه كان في الداخل يأكل جثة أبيه، والفئران لها أسنان حادّة تقرض وتعض، ولذلك يقتلها الناس كعقاب على قسوتها، وأبدى إشفاقاً بها مع ذلك، وقال عن نفسه أنه كالفأر، وأن الفئران كالأطفال، وربط بين ذلك وعزوفه عن زواج المرأة التي أحبها وحرمه منها أبوه، بأنها كانت لا تستطيع أن تلد أطفالاً فقد كانت مستأصلة للمبيضين، والأطفال يتخيّلون أحياناً أنهم يولدون من الشرج، ولذلك فحتى الرجال يمكن أن يلدوا أطفالاً، ويعلق فرويد أنه بحسب قواعد تفسير الأحلام بالضد فإن الخروج من

الشرج يكون أصلاً هو دخول من الشرج كما في عقوبة الفئران، وبذلك تكون الصورة مكتملة عن الطريقة التي تكوّنت بها الأفكار القهرية عند هذا المريض، فعندما سمع قصة العقاب بالفئران لم يستلفته منها إلا جانبها الشهوي الذي اتسم بالقسوة، وارتبط المشهد بمشاهد طفولته التي لها هذا الجانب الشهوي المتسم بالقسوة، وحلّ النقيب راوي القصة محل الأب، وتوجه المريض بغضبه للأب أصلاً عن طريق النقيب، وأكد ذلك أن أباه خدم في الجيش، ولهذه الفترة تعزى صرامته وقسوته، وكان يخاف عدوى الزهري في الجيش، واكتسب الفأر دلالة الزهري، وشبّهه بالقضيب الصغير الذي كان له في طفولته وكان يشكو شقاوته، وربط المشهد بمشهد ضربه لأنه قام بعض أنثى، ربما كانت المربية، ثم كانت قصة النقيب عن فئران تدور حول الشرج وتنبش فيه، ويذكره ذلك بأنه كان في طفولته قد أصيب بديدان شرجية كانت تفعل فيه الشيء نفسه، وكل هذه التخيلات شبقية شرجية، و قد حكى المريض أنها تذكره بموقف جماع عن طريق الشرج حكاه له أبوه بينه وبين المرأة التي أحبها ولم يتزوجها، واستثار ما حكاه نفوره من أبيه ومن هذه المرأة.

ولا يجعل فرويد طريقته في علاج هذه الحالة هي الطريقة النموذجية التي يجب أن تحتذى، ولا يقول بأنها مبرأة من النقد، ويؤكد أنها الطريقة التي وجد أنها تتكيف مع الصعوبات في الموقف التحليلي، وبعض هذه الصعوبات خارجية وبعضها من صميم الحالة.

وكان فرويد قد استطاع أن يعزل العصاب القهري خلال الأعوام ١٨٩٤/ ١٨٩٥، وجعله كياناً تصنيفياً قائماً بذاته، وميّزه قياساً إلى الهيستيريا بأنه أيسر على الفهم منها، وتُشتق لغته من لغتها، وقابلة للفهم أيسر لأنها أدنى ارتباطاً بأشكال التعبير التي يتخذها التفكير الشعوري، وليس فيها الانتقال من العملية النفسية إلى التعصيب البدني. والمرضى بالعصاب القهري أحرص على أن لا يطلبوا العلاج بالتحليل من مرضى الهيستيريا، ويجهدون أكثر أن يستروا مرضهم عمن حولهم، ولا يلجأون إلى

العلاج إلا بعد أن يكون المرض قد استفحل أمره فيهم، بحيث لو قارناهم مثلاً بمرضى السل الرئوي لأدى استفحال المرض إلى رفض قبولهم بالمصحة.

ويقدم فرويد دراسة ملحقة بهذه الحالة لبعض الخصائص العامة للتكوينات القهرية، ويقول إن التمييز بين الرغبات والدفعات والأفكار والنواهي والشكوك القهرية يتلاشى في الواقع بعد أن تتجرد من شحنتها الوجدانية وتصبح مجرد أفكار قهرية، ويقول إن هذه الأفكار القهرية تظهر لها تكوينات نفسية دفاعية مناهضة تستخدم أسلحة المنطق ولكن تندس فيها بعض مقدمات القهر الذي تناهضه، ويطلق عليها إسم «شبه الهذاءات». وتعاني الأفكار القهرية تحريفات شبيهة بالتحريفات التي تعاني منها أفكار الحلم قبل أن تصبح المضمون الصريح للحلم وتستخدم لذلك وسائل منها التحريف بالحذف أو الإضمار، وهي وسيلة نمطية في الأعصبة القهرية. وقد تقتحم الأفكار القهرية اللاشعورية طريقها إلى الشعور في صورتها غير المحرفة، وعندما يحدث ذلك فغالباً ما لا يتذكر المريض تاريخ تكوينها، لأنه في كل مرة يتذكر هذا التاريخ يتبين أن لهذا التاريخ تاريخاً أسبق منه، وهكذا، وينبّه فرويد إلى أن بعض الخصائص السيكولوجية للمرضى بالعصاب القهري، ومن ذلك إيمانهم بالخرافة لدرجة كبيرة على الرغم من تأكيدهم بالضد، حتى ليبدو أنهم يؤمنون بها ولا يؤمنون، وإيمانهم أو عدم إيمانهم يرجع إلى تفكير قهري، ويتصل بذلك الرغبة في الشك، ولذلك ينفرون من الساعات والمنبهات لأنها على الأقل يتحقق بها اليقين في الزمن، ويميلون إلى الموضوعات التي لا يمكن البت فيها برأي قاطع، ومن ذلك الأبوة، والعمر والحياة بعد الموت، والذاكرة، فهذه مسائل لا يوجد ما يقضي فيها يقيناً وإنما يمكن أن تكون محل جدل وخلاف، ونتعامل معها كواقع ولكن بدون ثقة في أنها مؤكدة. والمرضى بالعصاب القهري دائماً مشغولون بأعمار المحيطين بهم واحتمال موتهم، ويحاولون باستمرار أن لا يبتوا برأي في شيء وخاصة في أمور الحب، ويجدون راحة في فكرة الموت لهذا السبب، لأن

الموت يكون حلاً لصراعاتهم التي لم تُحلّ، ولذلك ففي كل صراع يدخلونه يتوقعون موت أحد المهمين في حياتهم، كأن يكون أحد الوالدين، أو منافساً لهم، أو واحداً من الذين تتراوح مشاعرهم تجاههم بين الحب والكراهية. وتمثّلت ازدواجية المشاعر أو تناقضها في الصراع عند رجل الفئران بين حبه وكراهيته لأبيه، وإن كانت الكراهية قد كبتته منذ الطفولة. وهناك صراعات وجدانية أخرى تتمثل في علاقات ليس بينها ارتباط، ففي حالة رجل الفئران يتناقض حبه لأبيه مع كراهيته للمرأة التي أحبها، كما أن حبه للمرأة يتناقض مع كراهيته لأبيه، وهذا التناقض ليس هناك ما يربطه من حيث الأصل أو المضمون، وهو طبيعي ويناظر التأرجح الطبيعي بين المرأة والرجل من حيث هما موضوعان للحب. وهذا الصراع نفرضه أولاً على انتباه الطفل عندما نواجهه بالسؤال التقليدي، أيهما تحب أكثر: بابا أو ماما؟ ثم يلازمه بعد ذلك طوال حياته وإن كان يُحسم عند الأسوياء بتقدير أعلى لجانب على جانب. وأما الحب والكراهية للشخص نفسه فقد يبدأ الحب بحسب الكراهية، وقد يعاني الحب من الحرمان فينقلب جزئياً إلى كراهية، وقد يسود الحب إذا نجح في دفع الكراهية إلى اللاشعور بكبتها. وتستمرّ الكراهية في اللاشعور حيث يمكن لها أن تزدهر وتنمو، وقد تعاود الظهور لذلك في الشعور. ويحتاج الحب لذلك إلى تغذيته باستمرار لكي يستطيع أن يستبقي خصمه الكراهية تحت الكبت، والشرط اللازم لحدوث وضع كهذا في الحياة العاطفية هو أن تنشطر العاطفتان في سن مبكرة جداً وتعاني إحداهما، وهي عادة الكراهية، تعاني الكبت. وهذه العلاقة بين العاطفتين هي من أهم خصائص العصاب القهري بروزاً وتواتراً، وربما كذلك من أكثرها أهمية. وعندما يكون هناك حب شديد تعارضه كراهية مساوية له في الشدة تقريباً كما في حالة رجل الفئران، وكان هذا الحب مرتبطاً بالكراهية ارتباطاً لا ينفصم، فإن النتيجة التي لا بدّ أن تترتب على ذلك هي الشلل الجزئي للإرادة، والعجز عن إصدار أي قرار في أي من الأفعال التي

يمكن أن يكون الدافع إليها الحب، غير أن هذا العجز سرعان ما يمتد بالتدريج إلى كل الأنشطة الأخرى كذلك، ومن ثم يسيطر الشك على المريض، لأن الشك هو النظير لحالة العجز عن البت في أي موضوع، وهو شك كان أصلاً بإزاء الحب ثم انتقل إلى كل شيء حتى أصغر التفاصيل، والفرد الذي يشك في الحب لا بدّ أن يشك فيما هو أقل منه قيمة. وهذا الشك نفسه هو الذي يكون به عدم التيقن حتى من الإجراءات الدفاعية، وإلى تكرار هذه الإجراءات ليتخلّص المريض من عدم اليقين، حتى يصل الأمر بالمريض إلى أن تصبح هذه الإجراءات نفسها مستحيلة التنفيذ، فإذا امتد شكه إلى الذاكرة لا يعود يعول عليها حتى فيما يتصل بالماضي.

والقهر عكس الشك، وهو محاولة للتعويض عن ولتصحيح الظروف غير المحتملة من الكف، فإذا توصل المريض بفضل النقل إلى أن يصل إلى قرار إزاء أحد نواياه المكفوف، فإنه حينئذٍ لا بدّ أن يقوم بتنفيذ هذه النية برغم أنها لم تكن النيّة المقصودة أصلاً، وإنما تتحين الطاقة المحبوسة الفرصة لتجد نفسها مخرجاً لا يمكن أن تفلتها فرصة استثماره لكي تفرغ نفسها فيه في الفعل البديل. وحتى الأفعال التمهيدية تصبح بفضل نوع من النكوص بدائل للقرار النهائي، ويحلّ التفكير محل الفعل وتؤكد أي فكرة نفسها بقوة القهر.

❖ ❖ ❖

– المناطق الشهوية...

- Erotogenic Zones (E.);...
- Zones Érogènes (F.);...
- Erogene Zonen (D.)...

المنطقة الشهوية أو الشبقية أو المولدة للغلمة هي العضو من الجسم الذي له غريزته الجنسية الجزئية المرتبطة به، ومن ذلك المنطقة الفموية، والمنطقة الشرجية، والمنطقة البولية التناسلية، وحلمة الثدي. وإشباع الفم كمنطقة شبقية مرتبط في أول الأمر بإشباع الحاجة إلى الغذاء. ويرتبط

النشاط الجنسي للمنطقة عموماً بالوظائف التي تخدم غرض حفظ الذات، ولا تصبح مستقلّة عنها إلا فيما بعد. ويوضح مص الإبهام لدى الأطفال الكثير مما يتعلّق بطبيعة المنطقة الشبقية، فهي جزء من الجلد أو الغشاء المخاطي تثير فيه منبّهات من نوع ما شعوراً باللذة من كيفية خاصة. وقد ترتبط خاصية توليد الشبقية ببعض أجزاء الجسم بطريقة واضحة جداً، وتجد مناطق شبقية مهيأة من قبل ومحتومة بهذه الصفة كما في مثال المص، غير أن هذا المثال ذاته يبين أيضاً أن أي جزء آخر من الجلد أو الغشاء المخاطي يمكن أن يقوم بوظائف المنطقة الشبقية بشرط أن يكون حاصلاً على بعض الاستعداد لهذا الاتجاه، وليس اختيار الطفل للإصبع كمنطقة شهوية إلا أنه استطلعه وثبت لديه هذا الاستعداد فيه، وإذا حدث أن اختار منطقة أخرى من بدنه لذلك فإنما لأنها كانت مهيّأة من قبل ونالت التفضيل من بعد ذلك. ومن الممكن أن ينتقل تفضيل لمناطق الشبقية من منطقة لأخرى، ويظهرذلك جلياً في عصاب الهيستيريا، حيث تنتقل الحساسية للتنبيه من منطقة لأخرى وتصبح قرينة للمنطقة التناسلية. وعلى أي الأحوال فإن البدن كله في الإنسان يمكن أن تكتسب فيه أي منطقة الحساسية نفسها للتنبيه الموجودة في المنطقة التناسلية وتصبح منطقة شبقية كما في حالة مص الإبهام، وتظهر المناطق الشبقية والمناطق المسبّبة للهيستيريا الخصائص نفسها. وعموماً فإن فرويد يجعل لجميع أجزاء البدن والأعضاء الداخلية أيضاً إمكانية أن تصبح مناطق شبقية، وتنبعث ما يسميه فرويد بالغرائز الجزئية للجنس إما مباشرة من الأعضاء الداخلية، أو تتكون من عناصر من هذه المصادر ومن المناطق الشبقية. وتتنوّع الجبلات الجنسية الفطرية، ويواكب هذا التنوّع إختلاف في ظهور هذه المناطق وشدة الحساسية فيهابحسب الأفراد. ويتضح الدور الذي تقوم به المناطق الشبقية في حالات الانحرافات التي تعطي أهمية جنسية لفتحتي الفم والشرج، وتتصرف هاتان الفتحتان من جميع الوجوه كأنهما جزءان من الجهاز الجنسي. وفي

الهيستيريا يصبح هذان الجزءان والمناطق المجاورة من الغشاء المخاطي مراكز إحساسات وتغيّرات في الإثارة العصبية، ومراكز عمليات يمكن مقارنتها بالانتصاب، كما يحدث للأعضاء التناسلية الحقيقية أثناء التهيّجات الخاصة بالعمليات الجنسية السوية، وتظهر أهمية المناطق الشبقية كأجزاء تابعة للأعضاء التناسلية وبديلة لها في الهيستيريا بالذات دون جميع الأمراض العصابية.

وتُحفظ منطقة حشفة القضيب والبظر في جراب من الغشاء المخاطي تستجيب بسرعة للتنبيه الذي تحدثه الإفرازات التي قد تثير التهيّج الجنسي في وقت مبكر، ويصبح النشاط الجنسي لهذه المنطقة التي تكون جزءاً من الأعضاء التناسلية الحقيقية هو البداية لما سيصبح فيما بعد الحياة الجنسية السوية. ويجعل الموضع التشريحي لهذه المنطق، وتدفق الإفرازات عليها، وعمليات الغسل والحك التي تتعرّض لها خلال تنظيف الطفل، والتنبيه العَرَضي (مثل تحرّكات الديدان المعدية في حالات البنات) - يجعل من المحتم أن يحسّ الأطفال حتى في مرحلة الطفولة الباكرة بلذة من كيفية خاصة تبعث الحاجة إلى تكرار استحداثها فيما يُعرف بالاستمناء الطفلي الذي لا يفلت من إتيانه فرد، ويدخل في خبرة الجميع وتتوطد به الأسس التي تقوم عليها سيادة المنطقة الشبقية التناسلية على النشاط الجنسي من بعد. وتخضع الحياة الجنسية في الطفولة أساساً لسيطرة المناطق الشبقية جميعاً وإن كانت هناك بدايات لاتخاذ الأشخاص موضوعات جنسية. واقتصار الجنسية الطفلية على المناطق الشبقية هو ما يعرف باسم الشبقية الذاتية. ويطلق فرويد على التنظيمين اللبيدين المتصلين بالفم الشرج أسمي التنظيم الفموي والتنظيم الشرجي، وهما تنظيمان قبل تناسليان، ويسبق التنظيم التناسلي تنظيم يتوسط بينه وبين التنظيمين السابقين، هو التنظيم القضيبي، وكل تنظيم من هذه التنظيمات كما أسلفنا له منطقته الشبقية، ولا تخضع هذه المناطق لرياسة المنطقة التناسلية إلا بعد البلوغ وفي

المراهقة، وعندئذٍ تصبح هذه المناطق ممهدة للوظيفة التناسلية ومؤدية إليه في خدمتها، وتسمى اللذة المرتبطة بالمناطق الشبقية الأخرى لذة أوّلية، مِنْ مِثل استشعار الجمال بالعين، واللذة المتحصلة التي تؤدي إلى زيادة التهيّج الجنسي أو إيجاده إذا لم يكن قد وُجِد، وقد ينتشر التنبيه من العين إلى اليد مثلاً عن طريق الإحساسات اللمسية، وزيادة اللذة الأوّلية تؤدي إلى كدر إذا لم يكن هناك تفريغ جنسي، والمرحلة النهائية التي تكون بها اللذة النهائية هي مرحلة التنبيه للمنطقة التناسلية ذاتها، وتصبح بذلك قاعدة الوظيفة التناسلية للمناطق الشبقية أنها تُستخدم من أجل إحداث مقدار أكبر من لذة الإشباع عن طريق اللذة الأوّلية التي يمكن أن تستمدّ منها. وهذه النظرية في المناطق الشبقية أو المناطق المولّدة للغلمة، يطرحها فرويد بإسهاب في كتابه «ثلاثة مباحث في نظرية الجنس» الذي نشره سنة ١٩٠٥، وكان قد طرحها في عدد من الرسائل إلى صديقه فليس قبل ذلك سنتي ١٨٩٦ و١٨٩٧، ولم تتغير نظريته فيها من بعد ذلك كغيرها من نظرياته الأخرى، ولعلها أوطد نظرياته على الإطلاق لذلك السبب.

مراجع

- Freud: Three Essays on the Theory of Sexuality. (1905)

: On the History of the Psychoanalytic Movement. (1914)

❖ ❖ ❖

– مؤتمرات التحليل النفسي الدولية في حياة فرويد...

- The Psychoanalystial International Congresses in Freud's Live

عُقد أول مؤتمر دولي للتحليل النفسي سنة ١٩٠٩ في سالزبورج، وحتى وفاة فرويد سنة ١٩٣٩ كانت قد عقدت ثماني

عشرة دورة لهذا المؤتمر في مختلف المدن الأوروبية بحسب هذا الترتيب:

- مؤتمر سالزبورج: عقد سنة ١٩٠٩ وأعدّ له فرويد ويونج.

- مؤتمر نوريمبرج: كان انعقاده في ثلاثين وواحد وثلاثين من مارس سنة ١٩١٠، وقدّم فرويد في بحثه «التوقعات المستقبلية للعلاج بالتحليل النفسي»، واقترح فيرينزي تكوين الرابطة الدولية للتحليل بنفسي، وأن يكون مقرها زيورخ ويرأسها يونج، وقد أثار ذلك أدلر وشتيكل وبدا واضحاً ولأول مرة أن هناك تعارضاً بين المدرستين السويسرية المسيحية والنمسوية اليهودية، وأن كليهما تحاول السيطرة على الاجتماعات، وأنهما تحاولان توجيهها وجهة تخدم أغراضهما. وعقد العلماء النمسويون اجتماعات جانبية برئاسة شتيكل، وكانوا جميعاً من اليهود، وحاول فرويد أن يقنعهم لذلك بأن يغطوا على يهودية حركة التحليل النفسي وأن يعطوها المظهر المسيحي، وأن يوافقوا على أن تكون رئاسة الرابطة وسكرتاريتها للمسيحيين دونهم ولا يعترضوا على ذلك، إذ أنه من مصلحة الحركة أن تباركها الحكومات، خاصة وأن رابطة التحليل النفسي الدولية سيكون لها فرع في العواصم الكبرى، وهذا ادعى إلى أن تبدو كحركة علمانية علمية خالصة. وتنازل فرويد عن رئاسة جمعية ڤيينا للتحليل النفسي لأدلر لكي يعوضه، كما أنه اقترح إصدار المجلة المركزية للتحليل النفسي Zentralblatt für Psychoanalyse برئاسة أدلر وشتيكل، في مقابل رئاسة يونج الكتاب السنوي Jahrbuch، وفي هذ الاجتماع أيضاً عيّن يونج ريكلين سكرتيراً ومسؤولاً عن النشرة التي تصدرها الرابطة والتي تعنى بأخبار البحوث والكشوف في التحليل النفسي، والاجتماعات التي تعقد، والإصدارات التي ينشرها الأعضاء فرادى أو عن طريق الرابطة. غير أن الأحوال بعد انفضاض المؤتمر لم تكن مؤاتية مع ذلك، فقد انسحب أدلر بعد عدة شهور من كل ما تعهد به، كما أن ريكلين لم يتوفر بجدية على واجباته المنوّطة به. وأعلنت جمعيات التحليل النفسي التي كانت قائمة قبل المؤتمر عن انضمامها إليه كفروع له، وتكوّنت

جمعيات جديدة، كما أن بلويلر وعلماء سويسريين آخرين أعلنوا انسحابهم من عضوية المؤتمر بدعوى أن عضويتهم لا تتوافق مع حياد بلادهم.

- مؤتمر ڤيمار: عقد في ٢١ و٢٢ سبتمبر سنة ١٩١١، وكان من أنجح الموتمرات، وأعاد إلى الذهن ما اتسم به المؤتمر الأول في سالزبورج من محبة وآمال واعدة، وشارك في هذا المؤتمر من الأميركيين بوتنام، وآمز، وبريل، نوبياتريس هينكل، وبلغ عدد الحضور خمسة وخمسين من الأعضاء والزائرين، وقرأ فيه أبراهام بحثاً عن جنون الهوس الاكتئابي، وقدم فيرينزي بحثاً عن اللواط، وساخس دراسة عن علاقة التحليل النفسي بالعلوم الأخرى، كما قرأ رانك ورقة في العري كفكرة تتردد في الشعور والأسطورة، وكان لهذه الورقة صدى واسعاً في الصحافة المحلية، ونشرت قطوفاً منها بعناوين مثيرة، الأمر الذي جعل رئاسة المؤتمر تصدر قراراً بألا يحضر الصحفيون الاجتماعات التالية. ولعلّ البحث الذي لفت نظر الجميع واستحسنوه كثيراً هو بحث بونتام عن «أهمية الفلسفة للتطوّر اللاحق للتحليل النفسي». وأما فرويد فقد قرأ على المؤتمر في اليوم الثاني بحثاً بعنوان «ملاحظات في التحليل النفسي عن التقرير الذاتي لحالة بارانويا، وأعلن يونج في المؤتمر أن عدد أعضاء الرابطة الدولية بلغ ١٠٦ عضواً.

- مؤتمر ميونخ: عقد في السابع من سبتمبر سنة ١٩١٣، وقرأ فيه فرويد بحثاً بعنوان «الاستعداد في العصاب الحوازي»، وحضر المؤتمر ٨٧ عضواً وزائراً، ولم تكن البحوث المقدمة عموماً على مستوى جيد، وأعيد انتخاب يونج رئيساً للمؤتمر، وكان واضحاً أنَّ أبراهام يناصبه العداء وحاول إسقاطه، وهاله من إرنست جونز أن يصوّت ضد يونج، وقال له مبهوراً «ظنتك مسيحياً» (يقصد أن جونز لأنه مسيحي كان من المفروض أن يؤيد يونج، فلما خذله اعتبره يهودياً قلباً وليس قالباً) ولم تعجب الملاحظة جونز.

- مؤتمر بودابست: عقد سنة ١٩١٨، وهو المؤتمر الأول بعد الحرب العالمية الأولى، وآلت فيه رئاسة الرابطة الدولية لإرنست جونز، وصدر قرار إنشاء مؤسّسة

النشر الخاصة بالرابطة والتي أطلقوا عليها اختصاراً اسم Verlag أي دار النشر، والجدير بالذكر أن انعقاد المؤتمر تم في القاعة الكبرى لأكاديمية العلوم المجرية، أي باعتراف الأكاديمية رسمياً بحركة التحليل النفسي.

- مؤتمر لاهاي: عقد في الثامن من سبتمبر ١٩٢٠، وهو المؤتمر السادس لحركة التحليل النفسي الدولية، وكان اقتراح عقده في لاهاي بهولنده لأنها بلد محايدة، واستمر المؤتمر أربعة أيام، وحضره ٦٢ عضواً، منهم إثنان من أميركا هما دوريان فيجينباوم ووليامن شتيرنت، وسبعة من النمسا، وخمسة عشر من انجلترا، وأحد عشر من ألمانيا (منهم جورج جروديك)، وستة عشر من هولنده (منهم يليجرسيما وڤان رينترجيم)، وثلاثة من المجر (منهم ميلاني كلاين)، وواحد من بولنده، وسبعة من سويسره. وبلغ عدد الزوّار سبعة وخمسين، على رأسهم أنّا فرويد، وجيمس جليڤر، وجون ريكمان، وقرأ فرويد بحثاً بعنوان «إضافات في نظرية الأحلام»، كما قرأ أبراهام بحثاً عن «ظواهر عقدة الخصاء الأنثوي»، وكان بحث فيرينزي «مزيد من التطوّر للعلاج النشيط بالتحليل النفسي»، وبحث روهايم عن «الطوطمية الاسترالية»، وقرر المؤتمرون أن تكون هناك نشرة منتظمة كل خمس عشر يوماً تقريباً بدلاً من النشرة الدورية، يتلقاها كل عضو وتحيطه علماً بمجريات الأمور في مجال التحليل النفسي.

- مؤتمر برلين: عقد في الخامس والعشرين حتى السابع والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٢٢، وكان آخر مؤتمر يحضره فرويد شخصياً، وقرأ بحثاً بعنوان «بعض الملحوظات في اللاشعور»، وهو شبه تلخيص لبعض أفكاره التي طرحها باستفاضة في كتابه اللاحق «الأنا والهو»، ويعتبر هذا البحث بداية للسيكولوجية الجديدة للأنا، وتعدّ تطويراً حقيقياً لنظرية التحليل النفسي، وقُدمت بحوث كثيرة لفرانز ألكسندر، وأبراهام، وفيرينزي، واستيڤان هولو، وكارين هورني، وميلاني كلاين، وهيرمان نينبرج، وبفيفر، ورادو، وروهايم، وجونز، وأعلن في المؤتمر أن عدد الأعضاء ارتفع

من ١٩١ إلى ٢٣٩ عضواً.

- مؤتمر سالزبوج: هو المؤتمر الثامن، وكان انعقاده في المدة من ٢١ مارس إلى الثالث من أبريل سنة ١٩٢٤، في مدينة سالزبورج التي عقد فيها أول مؤتمر، ولم يحضر فرويد لأول مرة لإصابته بالإنفلونزا، كما أنه بات واضحاً في هذا المؤتمر أن فيرينزي يزمع أن يستقل بنفسه ولو كان في ذلك مناصبة العداء لفرويد، وكذلك بات منتهياً أن رانك قد أتخذ طريقه الخاص، وأعلن استقالته وترك المؤتمر في اليوم الثاني وسافر إلى أميركا لأنه لم يشأ أن يشهد انتخاب أبراهام رئيساً للرابطة الدولية.

- مؤتمر هامبورج: عقد من الثاني حتى الخامس من سبتمبر سنة ١٩٢٥، وكان المفروض أن يرأسه أبراهام، ولكنه كان مريضاً، وحضره تحت المخدر، ورأسه آيتنجون، وكانت البحوث المقدمة كثيرة إلا أنها دون مستوى المؤتمر السابق، وظهرت بوادر الخلاف بين وجهتي النظر الأميركية والأوروبية حول امتهان غير الأطباء للتحليل النفسي، وإما قبولهم كأعضاء ولو منتسبين ضمن جمعيات التحليل النفسي وحضورهم للمؤتمرات والندوات الدولية. ووافق المجتمعون على أن تكون هناك لجان من المحلّلين الكبار تطوف مختلف العواصم حيث جمعيات التحليل النفسي، وتشرف على إعداد برامج تدريب المحلّلين وتخريج أعداد منهم. وفي هذا المؤتمر عهد فرويد إلى ابنته أنّا بقراءة بحثه على المؤتمر، ومواجهة أعضائه، فكان ذلك إيذاناً منه لابنته بأن تكون ضمن الثقات أو الصفوة من المحيطين به، وتعريفاً بها للمؤتمرين، وكان بحث فرويد حول الفوارق التشريحية المميّزة للجنسين.

- مؤتمر إنزبروك: كان انعقاده في سبتمبر سنة ١٩٢٧ برئاسة ماكس آيتنجون، واحتدمت فيه المناقشات حول امتهان غير الأطباء للتحليل النفسي، وكان الوفد الأميركي معارضاً لما أطلق عليه فرويد إسم المحلّلين العلمانيين، أي غير المهنيين، وطلب آيتنجون فتح باب المناقشة في هذه المسألة على أوسع نطاق على صفحات المجلة الدولية للتحليل النفسي، ولم يكن هو شخصياً من المؤيدين لفرويد، ورفض بشدة طلب

الرابطة الأميركية للمحللين غير الأطباء الاعتراف بها والانضمام إلى المؤتمر الدولي.

- مؤتمر أوكسفورد: عقد في سبتمبر سنة ١٩٢٩، وظهر واضحاً فيه أن فيرينزي قد تنكب نظرية فرويد، وجاء بحثه في المؤتمر يعارض فيه النهج الفرويدي ويقول إنه يذهب إلى رأي فرويد القديم أن العصاب سببه المعاملة السيئة التي يعامل بها الطفل من ذويه، وأنه لذلك يتوجب تعويضه وهو راشد عن هذا الحرمان من الحب، ويتوجب على المعالج أن يظهر للمريض العطف والفهم، وأن يعطيه من الاهتمام أكثر مما يقول به فرويد.

- مؤتمر ڤيسبادن: عقد في سبتمبر ستة ١٩٣٢، ولم يكن فيه ما يلفت النظر إليه، إلا بعض القرارات الإدارية كتحديد قيمة الاشتراك الشهري بثلاثة دولارات لمدة سنتين على الأقل، لمواجهة التوسعات في دار النشر خصوصاً.

- مؤتمر مارينباد: عقد في الثاني من أغسطس سنة ١٩٣٦، وكان اختيار مارينباد لانعقاد المؤتمر حتى لا تبعد أنّا فرويد كثيراً عن مكان تواجد أبيها المريض في حالة استدعائها المفاجىء. ورأس المؤتمر إرنست جونز، ومما قاله في خطاب الافتتاح أن تشيكوسلوڤاكيا التي منها مارينباد، تعتبر للحرية وسط خضم من الدول المستبدة، فأدرجه النازي ضمن القائمة السوداء التي ستصير تصفية المدرجين فيها.

- مؤتمر لوسيرن: عقد في ٢٦ أغطس سنة ١٩٣٨، وفيه أقر الحاضرون الاقتراح بأن تنضم كل جمعيات التحليل النفسي الأميركي في جمعية واحدة، وقدم وليام رايخ استقالته من الرابطة الدولية.

- مؤتمر باريس: عقد في الأول من أغسطس سنة ١٩٣٩، وكان آخر مؤتمر يعقد قبل الحرب العالمية الثانية، ويظهر فيه الخلاف حاداً حول المشكلة القديمة لامتهان غير الأطباء للتحليل النفسي، وهي المشكلة التي فجرها الأميركيون، وانتهى المؤتمرون إلى تأليف لجنتين، واحدة أوروبية، وواحدة أميركية للبت فيها، وكان أنصار فرويد قد سبق أن ناقشوا معه هذه المسألة في الرابع من ديسمبر من عام ١٩٣٨، ثم في العشرين

من يوليو سنة ١٩٣٩، وانتهى فيها فرويد إلى الرأي المعروف عنه. وكان هذا المؤتمر آخر المؤتمرات التي شارك فيها آينتجون حيث ارتحل إلى فلسطين.

❖ ❖ ❖

- «الموجز في التحليل النفسي»...

-«An Outline of Psychoanalysis» (E.);...

- «Abrégé de Psychoanalyse» (F.);...-

- «Abriss der Psychoanalyse» (D.)...

هذا الكتاب ألّفه فرويد عام ١٩٣٨ وكان عمره وقتذاك ثلاثاً وثمانين سنة، وجاء تأليفه في لندن، ونشره باللغة الألمانية سنة ١٩٤٠ بعنوان «الموجز في التحليل النفسي»، في حين أن الطبعة الإنجليزية صدرت بعنوان «معالم التحليل النفسي»، ويصف الغرض من الكتاب بأنه جمع نظريات التحليل النفسي وتوضيحها في إيجاز لا يخل بالمعنى ويحل إشكالية غموض بعض المصطلحات. والكتاب عبارة عن ثلاثة أبواب، وفي الباب الأول يشرح تركيب الجهاز النفسي كما يراه التحليل النفسي من الناحية الطبوغرافية، من الهو أو الإيد id الذي يحتوي على الموروث وما هو موجود منذ الولادة وثابت في تركيب البدن، ويضم لذلك الغرائز التي مبعثها البدن وتجد التعبير لها في الهو أولاً. ومن الهو وتحت تأثير العالم الخارجي الواقعي يتخارج الأنا، وله سلطة الإشراف على الحركات الإرادية، ومهمته حفظ الذات من أخطار العالم الخارجي، ومن الرغبات الغريزية التي مصدرها الهو الداخلي، إما بتأجيل إشباعها، أو بقمع تنبيهاتها، ويطلب الأنا اللذة ويتجنب الألم. ويتخارج الأنا الأعلى من الأنا بتأثير التربية، ومن عمل الأنا التوفيق بين رغبات الهو ومطالب الأنا الأعلى، ومن الممكن افتراض أن هذا الجهاز النفسي تتميّز به كل الحيوانات العليا التي تشبه الإنسان نفسياً.

وحاجات الهو أو الغرائز بطبيعتها

محافظة، أي أنها تميل بالإنسان كلما ابتعد عنها أن يعود إليها، ومن الممكن أن تحلّ غريزة محل غريزة. ويفترض فرويد غريزتين أساسيتين هما الإيروس وغريزة الهدم، هدف الأولى البناء والتوالد والتكاثر، وهدف الثانية هدم كل ذلك والعودة بالحياة العضوية إلى اللاعضوية التي كانت عليها في البداية. وقد تتعارض الغريزتان الأساسيتان في الوظائف البيولوجية، وقد تأتلفان. وطاقة الإيروس هي ما يطلق عليه فرويد إسم الليبدو، وتوجد منذ البداية في الهو أولاً، وأما طاقة الهدم فلا يجد لها فرويد إسماً وإن كان اتباعه أطلقوا عليه إسم ديسترودو أو مورتيدو (طاقاة هدم أو طاقة إفناء)، وعمل غريزة لهدم داخلي وفي صمت، ولا يُفطن إليه إلا إذا اتجه للعالم الخارجي في شكل عدوان.

وعندما يتكون الأنا يتجمع فيه قدر من الليبدو يكون به تعشق الأنا لنفسه، وهي الحالة التي يسميها فرويد النرجسية الأولية، وتستمر حتى يبدأ الأنا في الاتجاه نحو موضوعات خارجية يشحنها بالليبدو، ويتحول من عشق الذات إلى عشق الموضوعات، وطاقة الليبدو متجدّدة بالتهيّج الذي تستحدثه استثارة المناطق الشهوية من الجسم.

وتنشأ الوظيفة الجنسية من الطفولة الباكرة، وتزيد تدريجاً حتى الذروة في نهاية العام الخامس، ثم تأتي فترة كمون يتوقف فيها النمو الجنسي، وتعقب ذلك فترة المراهقة، أي أن الإنسان يتميّز وحده دون سائر المخلوقات بمرحلتين جنسيتين، وتضيع حوادث المرحلة الأولى في غمرة نسيان الطفولة الذي يميزها، ويسبب ذلك الكثير من الأمراض النفسية، واكتشاف ذلك النسيان هو عمل العلاج بالتحليل النفسي.

والفم أول منطقة شبقية تظهر بعد الولادة، ورغباته اللبيدية تلحّ على الطفل لإشباعها، وهذا الإشباع له جانبه الفسيولوجي، كما أن له جانبه السيكولوجي، لأن عملية الإشباع تتحصل بها اللذة ويمكن وصفها بأنها لذة جنسية، ثم تظهر الرغبات السادية عندما تظهر الأسنان، وتزداد الرغبات السادية في المرحلة الإستية، لأن الطفل يسعى للحصول على اللذة الشرجية بالتحكم

فيها والسيطرة على المحيطين به من خلال معاندتهم بسببها. والمرحلة الثالثة هي القضيبية وهي قمة الحياة الجنسية بالنسبة للطفل، ومن بعد هذه المرحلة يختلف مسار الأطفال من حيث هم صبيان أو بنات، فالصبي باكتشاف قضيبه يدخل المرحلة الأوديبية، ويتهدده الخصاء، والبنت تعاني حسد القضيب ويؤثر ذلك على تكوين شخصيتها.

ولا تتابع هذه المراحل بدقة، وفي المرحلتين الأوليين تكون الغرائز الجزئية مستقلة في سعيها للحصول على اللذة، وفي المرحلة القضيبية يبدأ نوع من التنظيم بينها يخضعها لسلطة الأعضاء التناسلية، ويجعل اللذة في خدمة الوظيفة التناسلية، ولا يبلغ ذلك كماله إلا في مرحلة المراهقة وهي المرحلة التناسلية، وفي هذه المرحلة تعترض النزعات الجنسية الكثير من أنواع الكف الذي يظهر في صورة اضطرابات جنسية مختلفة وأحياناً يحدث تثبيت لليبدو على مرحل سابقة ويكون الانحراف الجنسي.

وإذا كانت العمليات النفسية للجهاز النفسي بأقسامه الثلاثة تتحكم فيها العلاقات الكمية لليبدو، فإن هذه العمليات لها جانبها الكيفي في العمليات الشعورية وقبل الشعوية واللاشعورية، ويخطىء من يجعل كل الحياة النفسية شعورية، لأن هذه الحياة لها جوانبها اللاشعورية كذلك، وما هو قبل شعوري يمكن أن يصبح شعورياً، وما هو لاشعوري يمكن أن يتحول بمجهودنا إلى شعوري بعد أن نتغلب على المقاومة المعهودة التي تعترض تحويل اللاشعوري إلى شعوري. والعمليات الشعورية تقع طبوغرافياً على سطح الأنا، وكل ما عدا ذلك في الأنا لاشعوري، ومن الممكن للعمليات الداخلية في الأنا أن تصبح أيضاً شعورية. ويميّز اختبار الواقع بين ما يأتي من الخارج وبين ما يأتي من الداخل، واللاشعور هو الكيفية الوحيدة التي تسود الهو. وبعض الشعور يتراجع إلى ما قبل الشعور، وبعضه يُدفع إلى اللاشعور ويُكبَت،.. والطاقة النفسية للعمليات اللاشعورية طاقة حرة. بينما الطاقة النفسية للعمليات الشعورية طاقة مقيّدة. وتتبع العمليات اللاشعورية قوانين تخالف قوانين العمليات الشعورية، ويطلق فرويد

على الأولى إسم العمليات الأولية، وعلى الثانية إسم العمليات الثانوية.

والأحلام مجال يُثبِت هذه التقسيمات والعمليات النفسية السابقة. وتتميّز الأحلام بأنها حالات مألوفة للمرضى وللأسوياء، والحلم له ظاهر ومضمون، ودراسة عمل الحلم - أي تحويل المادة الكامنة إلى مادة ظاهرة - هي مَثَل رائع للطريقة التي تندفع به المادة اللاشعورية من الهو نحو الأنا وتصبح قبل شعورية، وتحدث فيها تحريفات الحلم. ومن وظائف الحلم حراسة النوم، والنوم بمثابة العودة إلى الرحم، وتتعطل وظيفة الأنا أثناء النوم، ويزول جزء من الكف المفروض على الهو أو اللاشعور، وتُسحَب الشحنات النفسية التي تقوم بوظيفة المقاومة، وبذلك تنطلق نزعات الهو اللاشعورية في حياة نسبية، وفي الأحلام تعود الذكريات المنسية واللاشعورية. ولغة الحلم لغة رمزية قديمة تعود لمرحلة نشوء الكلام، وبعض مادة الحلم ميراث فطري لخبرات الأسلاف وتاريخ الإنسانية، وتحمل المادة اللاشعورية طرقها الخاصة في الحلم. وقوانين العمليات اللاشعورية التي نتوصل إليها من دراسة الأحلام كالتكثيف مثلاً، هي قوانين غير منطقية، وكل ذلك يثبت ما سبق أن نوّهنا عنه من وظائف أو تقسيمات نفسية، تيسر التثبت منها من خلال دراسة الأحلام.

ويتضمن الباب الثاني من الكتاب الذي نحن بصدده حرفية التحليل النفسي، ويقوم المحلل باستنهاض همّة المريض وإلزامه بالقاعدة الأساسية للتحليل، وهي أن يقول كل شيء، ما يعرفه وما لا يعرفه، وكل ما يجول بذهنه من أفكار وذكريات ومشاعر واستجابات. وتفيد ظاهرة التحويل في العلاج النفسي، فهي من جهة تضمن اتجاهات إيجابية للمحلل، ومن جهة ثانية فإنها ظاهرة لها سلبياتها، وتحلّ المعالج محل السلطة الوالدية، وقد تصبح بها للمريض إتجاهات عدوانية للمعالج. وقد يطرأ التحسن على المريض نتيجة الإيحاء، وقد يحدث من جراء التحويل السلبي أن يترك المريض العلاج، ونقطة البدء في العلاج تقوية أنا المريض بزيادة معرفته بنفسه نتيجة المعلومات والذكريات والتداعيات الحرة

التي يمارسها، وما يعلمه من تفسيرات لأحلامه، ولأخطاء وفلتات اللسان، ولتناقضاته الوجدانية التي يظهرها التحويل. ويلتزم المحلل بأن لا يسبق إلى إخبار المريض برأي لا بد أن يهتدي إليه هو بنفسه. وتظهر مقاومة المريض للشفاء بالدفاع عن نفسه ضد اللاشعور والهو المكبوت بما يصدره من شحنات نفسية مضادة، ويطلق فرويد إسم المقاومة الكابتة على نوع المقاومة التي تظهر أثناء العلاج. وكلما تقدم العلاج ظهرت عوامل أخرى ضد تحقيقه، منها رغبة المريض في استمرار المرض، ورغبته في أن يشعر أنه يتعذب، ويتعطل شفاؤه باستمرار شعوره بالذنب. وأفضل ما يمكن أن يقدمه المحلّل للمريض هو أن يساعده على تحويل المادة اللاشعورية المكبوتة إلى مادة قبل شعورية، وبذلك تصبح تحت سيطرة الأنا، وقد يظهر على المريض قصور نفسي نتيجة خمول *الليبدو* وعدم رغبته *في التخلي* عن تثبيتاته، ويفيد المريض قدرته على التسامي بغرائزه، وعلى التغلّب على بدائيتها.

ويرجع فرويد سبب متاعب المرضى النفسيين إلى فشلهم في التغلّب على رغباتهم الغريزية، والدوافع الغريزية القوية لها تأثير الصدمات التي تصدر عن العالم الخارجي، ويحمي الأنا الضعيف نفسه من المشاكل بمحاولات الكبت. ولتأثير الحضارة دورها في الإصابة بالأمراض النفسية. وهناك دائماً تجربة محورية في مرحلة الطفولة لها تأثيرات معيّنة على كل الأطفال، وهذه التجربة هي عقدة أوديب وعلاقة الطفل بالأم نموذج لكل العلاقات المستقبلية بين الجنسين، ولتهديد الطفل بالخصاء نتائج خطيرة سواء للولد أو للبنت، وليست الآثار التي تتركها عقدة الخصاء عند الولد في الخوف على قضيبه أو ذكورته. فإنه تتمثل في البنت في حسد القضيب. وإذا استمرت البنت في تشبثها أن تكون صبياً فقد تتحول إلى الجنسية المثلية، وفي الحالات العادية تتخذ البنت الأب هدفاً *لحبها* كتعويض *لها* عن شعورها بالنقص. والأمر الغريب أن التهديد بالخصاء يخلّص الصبيان من عقدة أوديب، بينما الشعور بالخصاء يدفع

البنات إلى عقدة أوديب. ويطلق فرويد على عقدة أوديب النسوية إسم عقدة إليكترا، وإذا استمرت هذه العقدة عند البنت فإنها تقوم باختيار زوجها على أساس ما عنده من صفات الأب، وتخضع لسلطته. ومن الأمور المستعصية على الحل عند المحلّلين النفسيين علاج إمرأة تعاني من حسد القضيب وترغب أن يكون له قضيب، وعلاج رجل مخنث له ميول جنسية مثلية، وهو اتجاه نتيجته الحتمية فقدانه للقضيب.

ويتناول الباب الثالث والأخير من الكتاب النتائج النظرية لكل ما سبق، وهي نتائج تخص العالم الخارجي للمريض كما تخص عالمه الداخلي، فأولاً قد ثبت أنه من غير الممكن أن نضع حداً فاصلاً بين ما هو سويّ سيكولوجياً وبين ما هو شاذ، وأن هذا التميز ليست له إلا قيمة إصطلاحية فقط، وقد ثبت ثانياً أن الحالات المرضية التي تصيب الأنا إنما تنشأ نتيجة انقطاع علاقة الأنا بالعالم الخارجي، أو تراخي هذه العلاقة، فإما أن الواقع أصبح مؤلماً بدرجة لا تُحتمل، وإما أن الغرائز قد أصبحت شديدة الوطأة بدرجة قاسية، والذي يحدث في جميع حالات الذهان انقسام العقل فيتكوّن اتجاهان عقليان بدلاً من اتجاه واحد، ويهتم أحدهما بمراعاة الواقع بينما الآخرن تحت تأثير الغرائز يفصل الأنا عن الواقع، ويعيش الاتجاهان جنباً إلى جنب. وتتوقف الحالة على القوة النفسية للإتجاهين، فإذا أصًبح الاتجاه الثاني أقوى فقد توفر الشرط اللازم للذهان، وإذا انعكست العلاقة فإن المريض يتجه للشفاء من أوهامه. والشيء نفسه يحدث في حالات العصاب، فالأنا غالباً يجد نفسه في مرحلة من الحياة في موقف المعارض لبعض مطالب العالم الخارجي التي يشعر بوطأتها عليه، فيلجأ إلى إنكار الإدراكات الحسيّة التي تجعله يشعر بها، وليست الأمراض العصابية إلا حلولاً نصفية ومحاولات ناقصة للانفصال عن الواقع. ومن خصائص الأمراض العصابية وجود إتجاهين مختلفين في حياة الشخص العقلية بالنسبة لنوع واحد من السلوك بحيث يتعارض الاتجاهان ويستقل كل منهما بنفسه، يكون أحدهما تابعاً للأنا، والاتجاه المعارض هو الاتجاه

المكبوت ويتبع لذلك الهو. ومهما كانت دفاعات الأنا عن نفسه، فإن نجاحه لا يكتمل أبداً والاتجاهين سيظلان موجودين، ويؤدي الاتجاه المهزوم والاتجاه الآخر المنتصر إلى اضطرابات نفسية.

ومن ناحية أخرى يقوم الأنا الأعلى أو الضمير بدور العالم الخارجي تجاه الأنا بالرغم من أنه جزء منه، وما دام الأنا يعمل في اتفاق مع الأنا الأعلى فليس من السهل التمييز بين مظاهرهما، ولكن التوترات والخصومات تبدأ بينهما وتتضح عندما يخالف الأنا الأنا الأعلى. فإذا نجح الأنا في ألا يفعل ما يعترض عليه الأنا الأعلى فإنه يشعر باحترامه لنفسه كأنما قد اكتسب شيئاً ثميناً. والأنا الأعلى يمثل سلطة الماضي والحضارة السابقة وآثار الطفولة وخصائص الوالدين، ولا شك أن بعض مكتسبات الحضارة قد ترك آثاره في الهو، ويتولى الأنا الأعلى إيقاظ صدى هذه الآثار في الهو. وتزداد بعض خبرات الطفل شدة لأنها تكرار لبعض الخبرات الفطرية القديمة للنوع الإنساني، وهكذا يتخذ الأنا الأعلى موقفاً وسطاً بين الهو والعالم الخارجي، لأنه يجمع سلطات الحاضر والماضي معاً، وظهور الأنا الأعلى هو مثال للطريقة التي يتحوّل بها الحاضر نحو الماضي.

❖ ❖ ❖

– « موسى الإنسان وديانة التوحيد»...

- «Moses and Monotheism (E.);....
- «Moise et le Monothéisme» (F.);...
- «Der Mann moses und die Monotheistische Religion» (D.).

يعتبر فرويد كتابيه «الطوطم والمحرّم» (١٩١٣) و«موسى والتوحيد» (١٩٣٩) من أخطر ما كتب من مؤلفات، ويستخدم في الكتابين نهج التحليل

النفسي، ويعتبرهما من مؤلفات المرحلة التي كان قد بدأ فيها تطبيقاته على التحليل النفسي، وخطورة الكتابين أنهما ضد الديانتين المسيحية والإسلام. وفي كتابه الأخير موسى والتوحيد يهاجم فرويد الإسلام ويصفه بأنه نسخة ممجوجة من اليهودية، وكان قد كتب إلى صديقه أرنولد ڤايج يصف ما يمكن أن يترتّب على كتابه هذا الأخير بأن من الممكن أن يُحظَر التحليل النفسي في النمسا بسببه، وأن يستعدي الكنيسة الكاثوليكية. ويُلاحق بسببه المشتغلون بالتحليل النفسي. وكتب إلى آيتنجون أن الكتاب ضد الدين صراحة، وأنه يعتقد أن القصص الديني وإن كان به بعض الصدق تاريخياً، إلا أنه في مضمونه غالباً ليس إلا أساطير وتخيّلات، وقال إن كتابته عن موسى وهو غير المتخصّص سيجعل الكتاب مستهدفاً بالنقد الشديد، وانتقد القصة التاريخية لموسى باعتبار أن أحداثها تفتقر إلى ما يعزّزها ولذلك فإن الاعتماد على هذه الأحداث في إثبات نتائج التحليل النفسي قد يكون عليه الكثير من التثريب، ومع ذلك فإن فرويد يذكر في كثير من مراسلاته مع أصدقائه وحوارييه أنه ليكون على مستوى الحدث الذي سيكتب عنه وهو قصة النبي موسى، واضطر ليقرأ كل ما كتب حوله من كتابات يهودية، وعندما قرأ عن اكتشافات تل العمارنة في مصر حول الملك تحتمس تمنى لو يكون هو نفسه النبي موسى، وخاطب المختصين في المعهد اليهودي بلندن فافتخر بيهوديته، وقلّل من شأن تحذيراتهم بخصوص آرائه في الكتاب، ويقول فرويد عن ديانة أخناتون أنها أصل اليهودية، وأنها أنقى صورة للديانة التوحيدية، وأن ما قالت به من توحيد دفعت إليه ظروف تاريخية وسيكولوجية، ويقول إن موسى أصله مصري، وأن ابنة فرعون ما كان من الممكن أن تلقبه باسم يهودي لأنها لا تعرف العبرية، وأن اسم موسى مصري ونصادفه في الكتابات المصرية، وهو اختصار لإسم رع موزيز أي عبد الإله رع (كما نقول الآن عبد الله ونختزل ذلك فنقول عبده أو عبد فقط كعادة أهل الشام). ويقول إن شعب إسرائيل لا بدّ قد قتل موسى، تماماً كما في كل الديانات الطوطمية، لأن موسى

كان بمثابة الأب، وديانته لذلك هي ديانة أبوية، أما ديانة المسيح فديانة أخوية، لأنه بعد مقتل الأب يقتسم الإخوة السلطة، وذلك بسبب ارتباط الديمقراطية بالمسيحية، لأن الديمقراطية هي الفلسفة السياسية للديانة المسيحية –ديانة الإخوة. ويطبق فرويد أفكاره في الطوطمية وعودة المكبوت ومشاعر الذنب وتكوين العصاب وفترة الكمون على قصة النبي موسى، ويفسر العداء للسامية بأنه من تأثير غيرة الشعوب الأخرى من أن اليهود كانوا أول شعب بشّرهم الله بالتوحيد وخاطبهم جهاراً، ولذلك أصروا على نقائهم العرقي لهذا السبب، وعزلوا أنفسهم بعادات على رأسها الختان الذي نفرّ منهم بسببه الشعوب الأخرى، وربما كان تفسير هذا النفور أن الختان يذكّر هذه الشعوب بفكرة الإخصاء المرهوبة، وبأشياء ترجع إلى ماضيها البدائي الذي تحاول باستمرار نسيانه. ويقول فرويد إن المسيحيين في الحقيقة، تحت قشرة المسيحية الرقيقة، ظلوا على إشراكهم الهمجي كما كان أسلافهم، فقالوا إن المسيح ابن الله، ولم يتغلّب إيمانهم بالمسيح على حقدهم وحسدهم لليهود أنهم الأصل، وأنهم موحدون، وسهلت هذه الحكايات التي يروونها في الأناجيل عن اليهود أن يسقطوا كراهيتهم للمسيحية على الشعب اليهودي، والحقيقة أن كراهيتهم لليهودية هي في صميمها كراهية للمسيحية. والملفت للنظر أن فرويد أقام تشابهاً بين عمليات العصاب وبين الأحداث الدينية، ونقل معنى الأحداث من مجال علم النفس الفردي إلى مجال علم النفس الجماعي. ويحلّل فرويد طبيعة الشعب اليهودي، ويرجعها إلى التجارب الأنوية المبكرة في تاريخ هذا الشعب، والكبت الذي عانى منه، غير أن إيمانه بأنه شعب الله المختار هو الذي جعله أكثر شعوب المنطقة صموداً، وهو الشعب الوحيد الذي لم يندثر كالشعوب الأخرى القديمة، وتحدى سوء الطالع وسوء المعاملة، واكتسب صفات خاصة، وكسب كراهية كل الشعوب لهذا السبب. ويقول فرويد إن اليهود كانوا دائماً يسلكون مسلكهم الحالي نفسه: إنهم شعب قد قربّه الله منه، وهو ما يملأهم

فخراً وثقة، ويرجع فرويد فضل ذلك إلى النبي موسى، لأنه أكد لهم خصوصيتهم وأعلنهم شعباً مقدساً، وفرض عليهم اعتزال غيرهم، وأن يتمسكوا بالتوحيد لأنهم به يتمايزون عن غيرهم، وهو ما جعلهم يظنون أنفسهم أسمى وأعلى وأرفع. وموسى هو الذي خلّصهم من الأسر، وأعادهم من النفي، ووطّنهم بعد الشتات. هذا الإنسان الواحد موسى هو الذي خلق هذا الشعب، وله يدين هذا الشعب بصلابته على تحمّل الحياة (أنظر ترجمة الدكتور الحفني لكتاب موسى والتوحيد).

❖ ❖ ❖

– ميد مارجريت...

- Mead, Margaret.

(١٩٠١ – ١٩٧٨) من أبرز المشتغلات بعلم النفس الثقافي، وتعارض نظرياتها الكثير من مقولات فرويد في الشخصية، وفي الطفولة وللمراهقة، ولها كتاب «بلوغ الرشد عند الساموا» (١٩٢٨) تثبت فيه أن الانتقال من الطفولة إلى المراهقة لا يشترط فيه كما يذهب إلى ذلك فرويد، أن تكون فيه صدمات نفسية، وأن أزمة المراهقة التي تعرفها مجتمعاتنا غير موجودة في مجتمعات أخرى. وتؤكد ميد في مؤلفاتها من أمثال «النمو في غينيا الجديدة» (١٩٣٠)، و«الجنس والمزاج في ثلاثة مجتمعات بدائية» (١٩٣٥)، و«الذكر والأنثى»: دراسة في الجنسين في عالم متغير» (١٩٤٩) على أن الشخصية بنت التربية، وأن التربية أكثر أثراً من الطبع، وأن الميول الأساسية للفرد تتوجه إلى ما تصنعه منها الثقافة، وأن الهوية الجنسية والشخصية والأدوار الجنسية تتحدد على عكس ما يذهب إليه فرويد – ليس من داخلنا، وإنما من خارجنا، تعبيراً عن ملابسات الثقافة الاجتماعية، ومعنى ذلك أنه لا موجب للتشاؤم من الطبيعة البشرية، ومن سيادة الصراع عند الإنسان، ومن تشكّله بالعدوان، وميد في ذلك نقيض تشاؤمية وحتمية فرويد.

مراجع

- Mead: Growing up in New Guinea. (1930)

: Sex and Temperament in Three Primitive Societies. (1935)

: Male and Female: A study of the Sexes in a Changing World.(1949)

: Cultural Contexts of Puberty and Adolescence. (1959)

❖ ❖ ❖

– مينرت، تيودور...

- Meynert, Theodor...

(١٨٣٣ - ١٨٩٢) أستاذ فرويد في الطب النفسي وفي التشريح ويُطلَق اسمه على نوع من الضعف العقلي Meynert's amentia، ومنه أخذ فرويد مفهوم إشباع الرغبة الذي دارت حوله بحوثه من بعد في اللاشعور، وعرف سيكولوجية هيربرت من خلاله، وعرف منه مفاهيم أساسية للتحليل النفسي كاللاشعور، والكبت، والكف، والمقاومة، إلا أن علاقة فرويد به ساءت بعد عودته من باريس وتلقيه على شاركو، فقد كان مينرت ضد استخدام التنويم في العلاج، وعاب على فرويد لجوءه إلى هذه الطريقة الاصطناعية، واعتبر ذلك منه هبوطاً بمستواه، وعارض آراءه في الهيستيريا التي نقلها فرويد عن شاركو باعتبار أن الهيستيريا إضطراب يلحق الذكور والإناث على السواء ولا يخصّ الإناث وحدهن، وتحدّى مينرت فرويد أن يعرض عليه حالة هيستيريا واحدة لرجل.

❖ ❖ ❖

- ن -

حرف النون

– النرجسية...

- **Narcissism (E.);...**
- **Narcissisme (F.);...**
- **Narzissmus (D.)...**

(أنظر مقدمة في النرجسية، والعصاب النرجسي)

❖ ❖ ❖

– النسيان الطفولي...

- **Infantile Amnesia (E.);...**
- **Amnésie Infantile (F.);...**
- **Infantile Amnesie (D.)...**

نسيان خبرات الطفولة الباكرة، وخصوصاً الفترة حتى سن الخامسة تقريباً، مسألة عادية ومعروفة ويُفسّر بأن الطفل في هذه السن لم تكن وظائف الذاكرة عنده قد نضجت بما فيه الكفاية، ولم يتضح فهمه للأمور وتقديره لها. إلا أن فرويد أولى عنايته بالنسيان النفسي، ويفسّر سيولوجيا بأنه كبت، وهذا الكبت يتم لاشعورياً، ويتوجه أصلاً للخبرات الصادمة، وينسحب من بعد على كل تجارب الطفولة تقريباً، وخاصة التجارب المتعلقة بالجنس أو لها صلة بالأذى البدني الذي يقع للطفل ويلحقه منه أذى نفسي أو أذى أنوي، ويتناول فرويد هذا النوع من النسيان خصوصاً في كتابه «ثلاث مقالات في نظرية الجنس Three Essays in the Theory of Sexuality» الذي نشره سنة ١٩٠٥.

❖ ❖ ❖

– نظرية الغرائز...

- **Theory of Instincts (E.);...**
- **Théorie des Instincts (F.);....**
- **Triebetheorie (D.)...**

تعتبر هذه النظرية أهم أركان نظرية التحليل النفسي عند فرويد، ومع ذلك فهي أقل هذه الأركان تكاملاً، لأن مدارها على الغرائز، والغرائز من المفاهيم المختلف بشأنها كثيراً في البيولوجيا، وثار حولها الكثير من الجدل في علم النفس، وزاد المشكلة أن فرويد استخدم

لفظة Trieb ولم يستخدم Instinkt، وكلاهما لفظتان ألمانيتان، إلا أن Trieb جرمانية في حين Instinkt إغريقية الأصل. وترجمة Instinkt بالغريزة صحيح، إلا أن ترجمة Trieb بها خاطىء، والأولى أن تترجم دفعة أو اندفاعة أو نزوة أو نزعة pulsion 'Pulsion; impulse (E.) (F.)، لأن Trieb هي شحنة الطاقة المتجهة لموضوع بسبب إستثارة جسدية، ويهدف تسكين الاستثارة، بإفراغ الشحنة في الموضوع أو من خلاله، بينما Instinkt هي تلقائية موروثة عند الحيوان خصوصاً، للسلوك بمسلك متخصّص وبآية باطنة إزاء الحاجات الحيوية للحيوان من تغذية وتناسل ولعب وتواصل، إلخ. وفرويد نفسه إستخدم Instinkt للدلالة على السلوك الحيواني الوراثي والثابت، بينما Trieb عنده هي القوة التي تعمل من خلال الجهاز النفسي بأقسامه - الهو والأنا والأنا الأعلى - كباعث دينامي وانفعالي وليس مجرد باعث بيولوجي. واختار أن يُسقط من بنائه التنظيري كل الغرائز الحيوانية في الإنسان ويحصرها في مجموعتين من الغرائز أعطاهما إسماً فلسفياً وأسطورياً ليعطيهما بُعْداً ميتاسيكولوجياً (أي بُعداً يتجاوز المجال السيكولوجي)، فأطلق على المجموعة الأولى إسم غرائز الإيروس، وأدرج ضمنها غرائز الأنا وحفظ الذات والجنس، واشتهرت هذه المجموعة باسم غرائز الحياة، وأطلق على المجموعة الثانية إسم غرائز الثاناتوس، وأدرج ضمنها غرائز العدوان والتدمير والموت، واشتهر هذه المجموعة باسم غرائز الموت.

والإيروس عند الإغريق هو إله الحب، واستخدم أفلاطون الإيروس كمبدأ حياة من شأنه أن يؤلّف، ويجمّع، ويوحّد، ويزاوج، ويولّد، ويكاثر. وفرويد يذكر صراحة أن مصدره في الإيروس هو أفلاطون. وأما الثاناتوس فرغم أنه لم يذكره في كتاباته إلا أنه تحدث به إلى تلاميذه، وهو عند الإغريق إله الموت، وتوأمه هو الهيبنوس إله النوم، والموت والنوم من طبيعة واحدة، فإن شئت قلت النوم موت أصغر، وإن شئت قلت الموت نوم أكبر، وثنائية الإيروس والثاناتوس تصنع الجدلية النفسانية

للميتاسيكولوجية الفرويدية. ويدين بالقول بهذه الثنائية للفيلسوف أمبادوقليس اليوناني الذي قال بمبدأين يحكمان الوجود، أحدهما المحبة وهو مبدأ يؤلف ويقارب ويوحد ويزاوج ويوالد ويكاثر، تماماً كمبدأ الإيروس عند أفلاطون، والثاني مبدأ الشقاق أو الكراهية، وهو مبدأ نقيض يعكس كل ما يفعله المبدأ الأول، ثم تعود الدورة من جديد للتأليف ثم نقض التأليف وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية. والإيروس إذن صانع للحياة، والثاناتوس هادم لها، وغاية الثاناتوس العودة بالحياة العضوية إلى اللعضوية التي كانت لها من قبل. ويحكم ذلك مبدأ إجبار التكرار، فالذي يولد يموت، والمقدور عليه الموت يولد منه الحي. ويحكم الإيروس مبدأ اللذة، فكل فعل فيه إثراء للأنا، وتأكيد للذات، وتنفيس عن رغبة من رغبات الهو، أو أمر من أوامر الأنا الأعلى، هو فعل لا بدّ أن تتحقق به لذة، ويكون به تفادي التوتر وإزالة الألم.

ويفترض فرويد أن الغريزة أو بالأحرى هذه الدفعة الحيوية تشحنها طاقة يعطيها كعادته الميتاسيكولوجية إسماً لاتينياً هو اللبيدو، وفي كتاباته الأولى التي كان يركز فيها على الغريزة الجنسية جعل اللبيدو طاقة جنسية، ثم في كتاباته الأخيرة التي عدّل فيها نظريته في الغرائز وقال بغريزتي التدمير والموت، وعدّل فيها تركيبة الجهاز النفسي إلى التركيبة الثلاثية الطبوغرافية - الهو والأنا والأنا الأعلى، جعل اللبيدو طاقة حيوية كلية، وعلّل استخدامه لمصطلح الإيروس بأنه مصطلح راقٍ يُرضي الذين لم يعجبهم مصطلح الغريزة الجنسية، وإن كان استخدام الإيروس يضلّل عن المضمون الجنسي الذي تؤكده نظرية التحليل النفسي الفرويدي،واعتذر فرويد عن استخدام إسم اللبيدو كطاقة تدميرية لقصور فيه عن العثور على إسم بديل دلالي. وقد وجد تلميذان له هما ڤايس وفيدرن الإسم البديل، فاقترح ڤايس إسم ديسترودو Destrudo كإسم للطاقة التدميرية أو طاقة غريزة التدمير، بينما اقترح فيدرن إسم مورتيدو Mortido كإسم للطاقة الإفنائية أو طاقة غريزة الموت. والإسمان لاتينيان أيضاً

ومتضمنان للمعاني التي يدلان عليها، وفيهما من قِدم اللغة اللاتينية ما يضفي عليهما أصالة ويستوفي الغاية من استخدامهما.

والقول بنظرية الغرائز يستتبع القول بجهاز نفسي يناسبها، فالليبيدو في الطفولة الباكرة طاقة عامة تتعلق بمناطق شهوية في الجسم تشحنها شحناً لبيدياً أو شهوياً، كالفم للرضاعة والشرج للتبرز، إلخ. والليبيدو له طبيعة مائعة حيث يتدفق حسب الحاجة في مناطق الجسم المختلفة بحسب النمو، وتكون الغرائز في البداية كلها مطالب جسمية وتتعلّق بالهو، وعن النمو يتكوّن الأنا وتتوجه بعض طاقة الليبيدو المتجهة أصلاً للموضوعات الخارجية - إليه، ويصبح لدينا الليبيدو للأنا، والليبيدو للموضوعات. وتجد الغرائز أول تعبير لها بعد الولادة في الهو كما ذكرنا، ويعمل الإيروس والثاناتوس عملهما من الهو إبتداءً، فالإيروس يتوجه للنمو والمحافظة على البقاء، وله مظاهر خارجية ونشاط ملحوظ، والثاناتوس يعمل من الداخل وفي صمت وبطء، ولا نفطن لفعله إلا إذا اتجه به للخارج في شكل سلوك عدواني ويصبح غريزة عدوان، وفي صورة سلوك هدّام يصبح غريزة هدم، ويستخدم العضلات يتوسل بها للعدوان والهدم ويحقق الإفناء، أي يصبح غريزة موت. والغرائز لها تبدلات وتقلّبات، والليبيدو يتدفق طوعاً مع هذه التقلّبات والتبدّلات، وقد يشترك الإيروس والثاناتوس في الفعل الواحد لإحداث دورة جدلية فيها الأطروحة ونقيضها ومركب الأطروحة والنقيض، وهكذا دواليك، فلكي نعيش لا بد من أن نطعم، والحصول على الطعام فيه جهاد، وطحن الطعام فيه عدوانية، واللذة مؤجلة ولكن تحقيقها مؤكد في النهاية، لأنه بإشباع الجوع يزول التوتر وينتهي الألم. ودفعات العدوان الغريزية قد تفيد وقد تضر، والعدوان ضروري للحفاظ على الحياة، وكبت العدوان قد يضر بالصحة ويسبّب الأمراض النفسية، والعدوان الذي لا يخرج إلى موضوعات خارجية قد يتحول بالكبت إلى النفس يكون عنصر إضرار وإهلاك لها. وما يتولّد من مشاعر الذنب وتأنيب الضمير قد يكون أيضاً من عناصر الهدم للنفس.

ويتأكد القول بمبدأ إجبار التكرار كأحد مبادىء نظرية الغرائز من شواهده الدالة عليه في ألعاب الأطفال التي يكرّرونها رغم أنها قد تكون بها استعادة لخبرات مؤلمة، فإذاكان مبدأ اللذة هو المبدأ المتحكم في الغرائز، فإن مبدأ التكرار قد يبدو النقيض له، إلا أنه رغم ذلك فإن العبرة بالغاية، وإجبار التكرار قد يكون لهدف أكبر وهو سيطرة الطفل - أو الفرد عموماً - على الخبرة المؤلمة من خلال استعادتها، ومن ثم التعامل معها مجدداً تعاملاً إيجابياً، وتلك غاية التحليل النفسي بتذكر الخبرات الصادمة الماضية،والتي كانت السبب في المرض النفسي، لفك الخوف منها وإزالة آثارها المدمرة عن طريق استبصارها بشكل صحيح وفهم مناسب، والتدريب على التعامل مع مواقفها التعامل الواجب.

والدوافع الغريزية وهي تعمل من الداخل مثلها مثل الصدمات التي تستحدثها المؤثرات الخارجية، وللدوافع الجنسية خصوصاً دورها المتميّز في تكوين الأمراض العصابية. وفي المرحلة القضيبية من مراحل النمو اللبيدي تظهر العلامات الأولى لنوع من التنظيم يخضع الغرائز لسلطة الأعضاء التناسلية سعياً وراء اللذة، وتبرز به الوظيفة الجنسية، ولا يبلغ هذا التنظيم كماله إلا في المراهقة في المرحلة التناسلية. وأعراض الأمراض العصابية إما أنها إشباع بديل لبعض الدوافع الجنسية، وإما أنها وسائل لمنع هذا الإشباع، وإما أنها حل متوسط بين البديلين السابقين.

وعمليات الهو الغريزي عمليات أوّلية، يعني أنها غير منطقية، على عكس عمليات الأنا فهي ثانية ومنطقية في الحالات السوية. والأنا هو المسؤول عن تنظيم الإشباع للغرائز، وهو المنوط به السيطرة على الرغبات اللبيدية من الهو، وقد يؤجل الإشباع، وقد يقمع الرغبة، ومن الممكن أن تكون للغريزة قوة طاقة مفرطة تضغط على الأنا، وخاصة في مرحلة الطفولة عندما يكون الأنا ضعيفاً، والأنا يلجأ إلى الكبت كوسيلة دفاع، إلا أن الرغبات المكبوتة في الطفولة قد تنشط من جديد في المراهقة وتقوى، وإذا لم يكن الأنا مستعداً لهذه المرحلة التناسلية، أو إذا كان قد تأخر في النمو،

فذلك ما يساعد على استحداث الأمراض العصابية بسبب عدم التناسب بين قوة الأنا وقوة الرغبات الغريزية.

ومن رأي فرويد أن هذا الكبت المبكر للدفعات الغريزية هو الذي يمكّن من النمو الثقافي، لأن الرغبات إذ يُحال بينها وبين الإشباع تتخذ لنفسها اتجاهات بديلة تؤدي إلى إشباع بديل، وقد يحدث أثناء هذا التحوّل أن تفقد الرغبات الجنسية عنصرها الجنسي، وتضعف علاقتها بالأهداف الغريزية الأصلية، وتستحيل غريزة العدوان إلى غريزة إيجابية. وليس البناء الثقافي، والبناء الحضاري الإنساني الموروث إلاّ بسبب هذا القمع أوالكبت للرغبات والدوافع الجنسية والسيطرة عليها من قِبَل الأنا.

ويرجع السبب في المتاعب والآلام التي يعاني منها العصابيّون إلى عدم التناسب في كمية الطاقة في كل غريزة من الغرائز، فقد يحدث أن تكون إحدى الغرائز قوية جداً بالفطرة، أو ضعيفة جداً، والاختلاف الكمي ينشأ عنه اختلاف النتائج عند مختلف الأفراد، كما يترتّب عليه أيضاً التداعي بالأمراض النفسية التي لا يتداعى بها آخرون. وهناك رغبات غريزية يفشل إشباعها، ورغبات تؤجل، ورغبات إشباعها ناقص. وتتوقف نتيجة العلاج بالتحليل النفسي على استبصار المريض باضطراباته الغريزية، وقدرته على التغلّب على بدائية الغرائز، وللتسامي بها دوره الهام في نجاح العلاج.

(أنظر أيضاً الإيروس، والثاناتوس، وغرائز الحياة، والموت، والتدمير، والعدوان، والجنس، والأنا، ومبدأ اللذة، وإجبار التكرار).

مراجع

- Freud: Instincts and their Vicissitudes. (1915) Three Essays on the Theory of Sexuality. (1905)
: New Introductory Lectures on Psycho-analysis. (1933)

❖ ❖ ❖

– نظرية الليبيدو...

- Libido Theory (E.);....
- Théorie de Libido
- Libidotheorie (D.0...

الليبيدو مصطلح لاتيني، ويكتب أيضاً Lubido، ويرادف الشهوة، واللذة الجنسية، والغُلمة، واستخدمه فرويد بمعنيين، ففي كتاباته الأولى عن الغريزة الجنسية كان معناه الطاقة النفسية المنصرفة في خدمة هذه الغريزة، وفي كتابته اللاحقة التي طوّر فيها نظريته في الغرائز وصار المعنى الطاقة النفسية عموماً والمنصرفة لأي نشاط بدني نفسي، وميّز بين نوعين من هذا النشاط، فالنوع الابتنائي الذي يؤكد معنى الحياة، ويدعم الذات، ويُبقي على الأنا، ويكون به التكاثر وممارسة الجنس، هو النشاط الإيروسي، ويخدم غريزة الإيروس، والليبيدو المتعلّق به هو الليبيدو الإيروسي Erotic L.، والنوع الهدمي يتجه إلى النكوص بالحياة إلى اللاعضوية أي الفناء والموت، ويتوسل بالعدوان، ويخدم غريزة الثاناتوس، والليبيدو المتعلّق به هو الليبيدو الثاناتوسي Thanatos L..

ويرد لفظ الليبيدو لأول مرة في خطابات فرويد لصديقه فليس، نقلاً عن مول، وكان ظهوره منشوراً سنة ١٨٩٥. وفي البداية إنتقد يونج إستخدامه لليبيدو قاصراً على طاقة الغريزة الجنسية. وأطلقه يونج على الطاقة النفسية عموماً، وجعله طاقة حيوية كلية، وشاملة لكل النشاطات النفسية البدنية، ومن ذلك النشاط الجنسي الذي قيل إن فرويد قصر معنى الليبيدو عليه. وكان بحث يونج المشهور «رموز الليبيدو Symbols of the Libido» (١٩١١) خروجاً صريحاً على نظرية فرويد في الليبيدو في ذلك الوقت، حتى أن جونت اضطر إلى الرد على يونج في مؤتمر التحليل النفسي المنعقد سنة ١٩١٣ ببحث مضاد. ولم يعدّل فرويد في نظريته في الليبيدو إلا سنة ١٩٢٤ عندما عدّل نظريته في الغرائز، فأطلقه عموماً على الطاقة النفسية المتعلّقة بغرائز الهو وغرائز الأنا، وبغريزة الثاناتوس وغريزة الإيروس، أي جعله طاقة لكل نشاط مهما كان.

ويذهب فرويد في نظريته في اللبيدو إلى النشأة الأولى له في الهو، ففي البداية يكون كل التجمع للنشاط اللبيدي في الهو (.The Primal L أو اللبيدو الأولي) عندما يكون الأنا ما يزال في مرحلة التكوين ولم يستكمل قوته بعد، ثم يأخذ الهو يرسل بعضاً من هذا اللبيدو إلى الشحنات النفسية المتجهة نحو الموضوع، بينما يأخذ الأنا، بعد أن صار قوياً، في محاولة الحصول على هذا اللبيدو المتجه نحو الموضوع، وبذلك يتمايز لدينا نوعان منه بحسب متعلقاتهما، فنوع هو لبيدو الموضوع، ونوع هو لبيدو الأنا، ولأن هذا الأخير هذه هي صفته فهو لبيدو نرجسي، وبه يكون تعشق الأنا للذات، وقد يكون في ذلك إعلاءً للبيدو بأن يوجهه الأنا نحو أهداف أعلى وأسمى. ويطلق فرويد على تجمّع اللبيدو في الأنا إسم النرجسية الأولية، وهي حالة مرحلية تستمر مع الأنا حتى يبدأ في شحن الموضوعات التي تعرض له باللبيدو، أي أن يستبدل بحب الذات حب الموضوع. ويظل الأنا المخزن الأكبر لكل الشحنات النفسية اللبيدية المتجهة إلى الموضوع، فإذا أحب أحد الناس فإن أكبر كمية من اللبيدو تتجه منه من موضوع إلى موضوع، وهو ما يطلق عليه حراكية أو تنقلية اللبيدو Mobility of .L، وقد يحدث أحياناً تثبيت للبيدو .Fixation of L على بعض الموضوعات فيكون تعلّقه بها لفترات قد تطول، وقد يستمر هذا التثبيت مدى حياة الفرد، وقد يقوم الأنا بسحب اللبيدو عن الموضوع فيرتد اللبيدو للأنا. وموضوع اللبيدو .L Object هو الذي يتجه إليه اللبيدو، أي الذي يثير اهتمام الأنا، أو يكون به استثارة الهو ونشاطه الغريزي، ويقال إن الموضوع قد شُحن أو تلبدَن Libidinized. وإذا شُحِن موضوع رمزي شحناً لبيدياً للمماثلة بينه وبين موضوع لبيدي أصلي، فيُقال إنه مكافىء اللبيدو، L. Analogue أي المكافىء للموضوع الأصلي ويمكن لبدنته بالتبعية.

وترتبط الاستثارات والإشباعات اللبيدية بمناطق الجسم المعروفة باسم المناطق الشبقية، وتتراتب بحسب النمو، إبتداءً من الفم، ثم الشرج، فالقضيب (أو البظر في حالة البنت)، حيث أن الفم أول منطقة شبقية تطالب بعد الولادة بإشباع

رغباتها اللبيدية. وعندما تظهر الأسنان في الفم يدخل الطفل المرحلة السادية بممارسة العض، والسادية عند فرويد لبيدية عدوانية، وعموماً فالأطوار اللبيدية Libidinal phases للنمو اللبيدي هي الأطوار الفموي، والشرجي، والماسوشي، والقضيبي، والأوديبي الابتدائي، والكموني، والأوديبي الثانوي أو البلوغي، والتناسلي، ولكل منطقة رغباتها اللبيدية التي قد تتثبت. وإذا كان لنا أن نتتبع اللبيدو في شواهده المبكرة جداً فلربما يكون علينا أن نقرب أن بدايته في الحيوان وحيد الخلية تؤكد أنه لبيدو غير جنسي .Asexual L، وأنه كذلك دائماً، لولا أنه يفيض عبر قنوات جنسية تطبعه بهذا الطابع، حتى لنتوهمه جنسياً وننسب إليه أحياناً أنه لبيدو ذكوري أو أنوثي، ولربما يكون وصفنا له بذلك لارتباطه بالعمليات الجنسية الذكورية أو الأنثوية، إلا أن اللبيدو في ذاته ليس من هذا ولا من ذاك.

وللبيدو مطواعية .Plasticity of L على التصريف بحسب الطرق التي تتهايأ للغرائز، فقد يجد المنصرفات المباشرة، وقد لا يتيسر له إلا منصرفات غير مباشرة كما في الكبت، وقد يتحول كما قلنا من موضوع إلى موضوع، أو يتوجه إلى الذات بدلاً من الموضوع، ويُطلَق على ذلك تبدلات اللبيدو .Vicissitudes of L، كما يُطلق على خاصيته الترحيلية هذه إسم إحلالية اللبيدو .Displaceability of L، بمعنى أن طبيعته مائعة كالسوائل، ومن ثم كانت هذه الاصطلاحات من مثل الإعاقة اللبيدية Libidinal blocking أو الانسداد اللبيدي، وإعادة التقنية اللبيدية Libidinal recanalization بما يعني تحوّل اللبيدو من منطقة إستثارة أو إشباع إلى منطقة أخرى، والنقص اللبيدي Libido deficiens بما يعني تهافت الدفعة اللبيدية، والشحن اللبيدي Libidinal cathexis أي إعطاء طاقة لبيدية، كأن يكون الشحن أنوياً - أى للأنا، أو يكون لموضوع ما، واللزوجة اللبيدية Vscosity of libido بمعنى أنه رغم السائلية التي عليها اللبيدو إلا أنه بطيء في تحركه بسبب طول المدة من الطفولة حتى النضوج، ويميل إلى البقاء في مكان ما استطاع ذلك طالما لم يُستثر، فإذا

استثير فإنه لأقل سبب قد ينكص إلى طور سابق من الأطوار الطفولية للنمو اللبيدي يتحقق له فيها التصريف والإشباع، والرغبة اللبيدية Libido wish هي دفعة غريزية تطلب الإشباع.

ويقول فرويد بثلاثة أنماط لبيدية من الشخصية (١٩٣١) هي: النمط الشبق Erotic type الذي للبيدو الهو عنده الكأس المعلّى، فهو دائم الرغبات الجنسية وأن يُحب ويكون محبوباً، وإذا تداعى بالمرض النفسي فإنه أميَل لأن يُصاب بالهيستيريا، والنمط الحوازي Obsessional type أي الوسواسي، ولذلك فاللبيدو عنده يتركز في الأنا الأعلى، وللمجتمع والقيم والتقاليد إعتبارها عنده ويداوم على مراعاتها والتشكّك إزاءها، وأمراضه النفسية حوازية (وسواسية)، والنمط النرجسي Narcissistic type وللأنا فيه أكبر نصيب من التوزيع الكمي للبيدو، والفرد من هذا النمط مهموم بنفسه وأموره الخاص، ومن أجل ذلك هو نشيط ويحرز المناصب ويحصل على الرياسات، وأمراضه في الغالب ذهنية. وهذه الأنماط الثلاثة لا توجد نقية وإنما تختلط ببعضها، والنمط المختلط الغالب هو النمط النرجسي الشَبِق، وهو محب لنفسه ومحب لمن يحب نفسه، وهناك النمط الحوازي الشَبِق ويتراوح في سلوكه بين الاندفاع الشهوي وبين الامتثال لتقاليد المُثُل، وهو وسواسي ومتردّد. ويُعتبَر النمط النرجسي الحوازي أهم الأنماط المختلطة بالاعتبارات الحضارية، لأنه نمط من دأبه أن يفيد نفسه والناس، ودوافعه فيه حب الذات، إلا أنه يلتزم بإملاءات الأنا الأعلى وقيم المجتمع والدين، ومن هؤلاء فئة العلماء والمخترعين والمفكرين.

ويردّ فرويد الأعراض النفسية المرضية إلى سوء توظيف للطاقة اللبيدية ناشىء عن سوء توجيهها أو تصريفها بشكل ناقص. ويتواكب المرض النفسي مع تغيير توزيع كمية اللبيدو، ويرتد اللبيدو عند المرضى النفسانيين عن أهدافه الخارجية الطبيعية ويتوجه إلى أعضاء الجسم. وفي النظرية القديمة للقلق كان فرويد يقول إن اللبيدو الخاص بالدافع المكبوت يتحوّل إلى قلق، وفي النظرية الجديدة يذكر أن الأنا هو مصدر

القلق الذي يستشعره كرد فعل لخطر خارجي، والأنا عموماً هو الذي يستشعر القلق من ناحية رغبات اللبيدو.

مراجع

- Freud: Psychoanalyse und Libidotheorie. (1922)
: New Introductory Lectures on Psychoanalysis. (1933)
- Jung, K.: Symbols of the Libido. (1911)

❖ ❖ ❖

– نظرية المخرج...

- Cloaka Theory; Cloakal Theory (E.);...
- Théorie Cloakale (F.);...
- Kloalentheorie (D.)...

المخرج أو المَذْرَق Cloaka المقصود به الفجوة التي تقع فيها المجاري البولية والتناسلية وكذلك المستقيم في الفقاريات عدا الثدييات، ويتم من خلاله إخراج الفضلات. ويتحدث فرويد في كتابه «ثلاثة مباحث في الجنسية» (١٩٠٥) عن نظريات كثيرة في الطفولة الباكرة حول الولادة واهتمام الأطفال الشديد بالتساؤل عن المصدر الذي يأتون منه، وهو تساؤل يميّز ضمن تساؤلات أخرى هذه المرحلة من العمر، والإجابات التشريحية عليه تكون كثيرة، ومن ذلك أن الأطفال يأتون من الصدر، أو أنهم يُقتطعون من الجسم، أو أن السُرَّة تتفتح ليخرجوا منها. ومن النادر أن يذكر أي منا ما كان يعتقده كجواب لهذا السؤال الملحّ الذي يخطر باستمرار على بال الأطفال كلما قيل لهم أن إمهاتاهم سيرزقون بطفل، وغالباً ما يكون تذكرنا لأسئلة هذه المرحلة في مواقف التحليل النفسي، لأنها من خبرات الطفولة التي ننساها بتأثير الكبت، ويبدو أن الإجابات على هذا السؤال وإن تنوّعت إلا أنها تتشابه في مضمونها: أن الناس يمكن أن يتحصلوا على الأطفال عن طريق تناول أطعمة معيّنة. ويرد مثل ذلك كثيراً في

قصص الأطفال الخيالية، أو أن الأطفال يولدون عن طريق الأمعاء بالشكل الذي يكون به التخلّص من البراز. وتقوى تصوّرات الطفل على أن البطن مجرد وعاء يدخله الطعام ويُخرج الفضلات، فإذا كان هذا البطن هو الذي يحوي الطفل وبه ينمو في جسم الأم فلا شك أنه يرتبط بفكرة الأكل والإخراج، ومن ثم يتعادل الوليد والفضلات. وفي بحث لإرنست جونز إستطاع أن يحشد عدداً من الكلمات تبين أصولها الارتباط بين المواليد وبين الفضلات. وينسب فرويد هذا الاتجاه عند الأطفال إلى غريزة المعرفة التي تكون في هذه السن شديدة الانجذاب إلى المسائل الجنسية بدرجة غير متوقعة.

ويشرح فرويد ما يطلق عليه إسم نظرية المخرج في مقالته «عن النظريات الجنسية للأطفال» المنشورة سنة ١٩٠٨ باعتبارها النظرية الجنسية الغالبة عند الأطفال، حيث لا يخطر ببالهم التمييز بين الشرج والمهبل، وكأنه لا وجود إلا لفجوة واحدة أو ثقب واحد عند النساء، يخرج منه البراز، وما دام الأمر كذلك فهو المخرج أو مكان الولادة أيضاً الذي يأتي منه الأطفال ويكون فيه الجماع، ويقوّي هذا التصوّر مشاهدتهم لعمليات السفاد عند الطيور والحيوان، وأنها تتم في المخرج، ثم مساعدتهم عمليات التبويض والولادة وتصوّرهم أنها تكون أيضاً من المخرج. ولا تكون لدى الأطفال في هذه السن الباكرة أية فكرة عن المهبل وعما يوجد وراء الفرج، ويذهب خيالهم إلى أن الأطفال يُطردون من البطن كما يُطرد البراز، وذلك هو التفسير الوحيد المقنع الذي تقوّي معقوليته عندهم مشاهداتهم بين الحين والحين. وتثبت بحوث التحليل أن الإخراج يرتبط باللذة الجنسية عندهم في هذه السن المبكرة ويقدّم لما بعد ذلك من أنشطة جنسية تتصل بالمخرج وبالمبال الذي يصبح فيما بعد المجرى السوي لعمليات الجماع والتبوّل. ونظرية المخرج لها أسانيدها التشريحية في التنظيم الجنيني، ففي الجنين يكون للمستقيم والقناة البولية فتحة مشتركة، وفيما بعد يكون انفصالهما. وينفي الاتصال بين مجرى البول ومجرى الإنسال أن

الوظيفتين غير مترابطتين، ويظل الجهاز التناسلي بالنسبة للأطفال تذكاراً يؤكّد نظرية المخرج. وفي رأي فرويد أن المهبل وهو اشتقاق من المخرج يتأتى له أن يصبح منطقة شبقية بحكم هذا الاشتقاق، لأن اللذة بالنسبة للطفل لا تتأتى أولاً إلا بالمخرج، وتنسحب من بعد إلى المهبل فيكون التمايز بين المنطقتين. ومن شأن الاهتمام المبالغ فيه للوالدين بهذه المنطقة ومخرجاتها في هذه السن أن يتحصل للطفل الوعي بعداء المحيطين به لعملياته فيها، ويحاول أن يداريها ما استطاع، ويمارس عليها القمع ويكبت ما يتأتى له منها من لذة، ومن ذلك الوقت يصبح كل ما هو مخرجي رمزاً لكل ما ينبغي استبعاده. ويقول فرويد إن الاكتشاف المتأخر للمهبل ووظيفته هو الذي يدعم التفسير الوحيد المتاح: أن المخرج هو كل شيء، وأن جميع الكبار على السواء يمكن أن ينجبوا أطفالاً، وأن الأطفال يمكنهم من ذلك أيضاً. ويتثبت هذا التصوّر عند عدد قليل من المصابين بالعصاب، والغالبية يتصرفون باعتبار المهبل والمستقيم متماثلين، ويبدون نفوراً من المهبل على هذا الاعتبار، ويستخدمونه كمستقيم أو يستخدمون المستقيم كمهبل، باعتبار هذا التماثل بينهما، ومن ثم يبدو من السلوك الجنسي وكأن بهم ثنائية جنسية، ومن الممكن أن يقوموا بدور الأنثى وبدور الذكر في الوقت نفسه، وأن يتصوّروا بأنفسهم الحمل سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً، وحملهم ذاتي في تصورهم.

مراجع

- Freud: Three Essays on the Theory of Sexuality. (1905)

: On the Sexual Theories of Children. (1908)

❖ ❖ ❖

– النفاس الدفاعي...

- Defence Neuropsychosis (E.);...

- Neuropsychose de Défense (F.);...

- Abwehr - Neuropsychose (D.)...

إستخدم فرويد مصطلح النُفاس الدفاعي في السنوات من ١٨٩٣ إلى ١٨٩٦ في مقالين الأول بعنوان «الذهانات

الدفاعية العصبية» والثاني بعنوان «ملاحظات إضافية عن الذهانات الدفاعية العصبية»، وجعل الدفاع هو محور نوع من الأعصبة يضم فيه الهيستيريا والوساوس والحالات الحادة من الخلط الهلاسي، وقصد بالدفاع هذا النوع منه الذي يتصدى للاستثارات المفرطة. وطبقاً لمبدأ الثبات فإن الأفكار والخبرات غير المحتملة يتم استبعادها من الشعور أو أنها تُسلَب فاعليتها المؤثرة، وقد جعل النفاس باعتباره من الأعصبة النفسية يتميّز بالذات عن نوع الأعصبة الحاضرة من حيث أن الإصابة به تتهرب أصلاً على صدمة في الطفولة نتيجة غواية يتعرض لها الطفل قبل البلوغ ويأتيه منها الحَصَر الشديد، إلا أن تأثيرها لا يظهر إلا بعد البلوغ، وهو تأثير ذكروي نتيجة لاستعادة الخبرة بتأثير التعرّض لضغوط المراهقة ونوع الحَصَر الذي يستشعره المراهق بسببها، إلا أن فرويد تبين له من بعد أن خبرات الغواية في الطفولة قد لا تكون خبرات واقعية، إنما من باب التخيلات، وربما هي من مثل تخيلات الجماع الأولى بين الوالدين، وتخيلات الخصاء، وعلى ذلك أسقط استخدام اصطلاح النفاس الدفاعي، باعتبار أن الدفاع قاسم مشترك في كل الأعصبة، وتراجع مصطلح النفاس الدفاعي الذي كان له ما يبرر قيمته استكشافياً لصالح مصطلح «النفاس» فقط.

مراجع

- Freud: Neuropsychoses of Defence, (1894)
: Further Remarks on the Neuropsychoses of Defence. (1896)

❖ ❖ ❖

– «النكتة وعلاقتها باللاشعور»...

«Jokes and their Relation to the Unconscious» (E.);...
- «Le Mot d'Esprit et ses Rapports avec L'Inconscient»(F.);...
-«Der Witz und seine Beziehung zum Unbewussten

كان عام ١٩٠٥ عام رخاء بالنسبة

لفرويد، وكما يقول هو نقلاً عن التراث اليهودي فإن عام الرخاء لا يأتي إلا كل سبع سنوات، وفي هذا العام صدر له كتابان وأربعة بحوث، وأول الكتابين ربما كان كتاب «النكتة وعلاقتها باللاشعور» الذي يشتهر باسم كتاب النكتة فقط، وربما كان كتاب «ثلاث مقالات في نظرية الجنس» فلا شيء مؤكد في هذه المسألة، والمهم أن الكتابين كان يكتبهما فرويد في آن واحد، ويضع أصول أحدهما في درج، وأصول الآخر في درج ثان، ويتباعد الكتابة عليهما معاً بحسب مزاجه وكلما أرهقه التفكير في موضوع أي منهما، وربما كانت هذه المزاوجة بين الكتابين لتشابه موضوعيهما.

وكتاب النكتة من الصعب ترجمته لأنه يتناول الفكاهة الألمانية ويورد النكات التي يوردها بالألمانية ويستحيل ترجمتها أو نقلها إلى روح اللغة الأخرى المترجم إليه. ثم إن ما يورده فرويد في الكتاب إنما هي نكت يهودية، وهذه صعوبة أخرى تنضاف إلى الصعوبة الأولى. والصعوبة الأهم هي ترجمة عنوان الكتاب نفسه، فاصطلاح der Witz يترجم إلى الإنجليزية Wit يعني الظُرف أو خفة الدم، ولكن المقصود في الكتاب هو مناقشة النكات وما تتضمنه، وكلمة Wit الإنجليزية لمستوى من الفكاهة أرفع مما يقصد إليه فرويد، ومن ثم رأت أنّا إبنة فرويد أن تكون الترجمة إلى Jokes بمعنى النكات، وبدلاً ن الصفة الألمانية Witzig رُؤي أن تكون الصفة Joky، لاكما نقول «ظريف» أو «مداعب» وإنما ما هو مشهور «إبن نكتة» أو «له قفشات».

والكتاب على أي الأحوال صعب ولم يُقبل الجمهور على قراءته، ولم يعجب فرويد نفسه، وإن كان بعد نحو عشرين سنة قد عاد إلى الموضوع نفسه وتناول الكفاهة ككل في بحث صغير بالعنوان نفسه «Der Humor» (١٩٢٧)، إلا أنه قد ذكر عن كتاب النكتة أنه خرج به عن الخط الفكري الذي ارتسمه لنفسه.

ويبدو أن فكرة الفكاهة أو النكتة قد راودت فرويد طويلاً، وأورد منها الكثير في كتابه «تفسير الأحلام» (١٩٠٠)، حتى أنه لما أرسل مخطوطة الكتاب لصديقه فليس ليقرأه ويبدي ملحوظاته عليه نبّهه إلى ما فيه من نكات كثيرة، وهذا التنبيه

هو الذي حدا به أن يتناول موضوع النكتة في بحث مستقل.

وجاء تأثير ثان حدا بفرويد ليكتب في النكتة، فقد قرأ لتيودور ليبس (١٨٥١ - ١٩١٤) شيئاً عن اللاشعور (١٨٩٧)، وتناول فرويد في كتابه «تفسير الأحلام» آراء ليبس في ذلك، وليبس أيضاً كتب في موضوع النكتة والفكاهة وما هو مضحك، وكتابه «Komik und Humor» (١٨٩٨) هو الدافع الثاني الذي جعل فرويد يدلي بدلوه في هذا الموضوع.

وكعادة فرويد فإنه يبدأ الكتاب بفذلكة تاريخية حول المؤلفين الذين تناولوا النكتة وآرائهم في ذلك، ثم يتصدى بالشرح للتقنيّات التي يمكن أن تتوسل بها النكتة لتوصيل الأثر المراد توصيله، أو للتعبير عن المشاعر أو الفكرة المراد التعبير عنها، ومن ذلك أن النكتة بما هي كذلك تتميّز بالإيجاز، ويستخدم فيه التكثيف والإبدال، وتشبه النكتة في ذلك عمل الحلم. والنكتة قد نلجأ فيها إلى كلمة ونريد بها معنى مخالفاً. والنكتة كلام له معنى خبيء لا يظهر من الصياغة الظاهرة، ويقال حينذاك إن صاحب النكتة يلعب بالألفاظ. وقد تكون في النكتة إحالة إلى أمور باستخدام عنصر المماثلة أو التشابه القريب أو البعيد. ولعلّ أهم ما في النكتة أنها منصرف نفسي، ولكنها أيضاً منصرف إقتصادي، بأقل عدد من الكلمات، وباختصار المواقف. وتستخدم النكتة عنصر المغالطة، ومن عناصرها كذلك الإزاحة، والتوحيد، والتماثل. وبعض النكت فيها السخرية واضحة.

والنكتة منها النوع البسيط والصريح، ومنها النوع الذي يبلغ غاية معيّنة، وهي غاية ممنوعة، أو أن النكتة تعبير عن رغبات أو أفكار مكفوفة. وبعض النكت لفظية، وبعضها فكري يحتاج لجهد لفهمه. وغاية النكتة التسلية، أو أن غايتها استحداث حالة من الانسجام لا نستشعرها إلا لدى المطالعة الجمالية، لأن صياغة النكتة عملية جمالية إبداعية، وفي النكتة نستطيع أن نخبر ما لا نستطيع أن نخبره في الأحوال العادية، وأن نصرح بما لا نستطيع أن نصرح به. وبعض النكت جنسية، وبعضها عدوانية، والنكتة الجنسية، تستمد اللذة التي تستحدثها

من تناولها لأمور فاضحة ومحرّمة، والنكتة العدوانية ممارسة للطاقة العدوانية في شكل نقد أو سخرية. وفي النكتة الجنسية يمكن أن يكون موضوعها رجالياً محضاً، ويمكن أن يكون حريمياً، ويمكن أن تكون النكتة للجنسين معاً. وهناك علاقة في النكت «الوسخة» بين الجنس والخراء، وفي الأعصبة لا تتمايز المنطقتان التناسلية والإخراجية. وهذا النوع من النكت كأنه التعرّي، من اضطرابات الجنس، حيث أن قائل النكتة يتعمد أن يُخجل المستمعين، ولذلك فالغالب أنه في النكتة من هذا النوع أفرادها ثلاثة، قائلها، والمتلذذ بها للصياغة المتميّزة بها، ثم الذي لا يرى فيها إلا أنها نكتة تعرض للمحرّم وللدنِس. وبعض النكت نمارس إزاءها الكبت، ونحاول أن لا نظهر أننا مسرورون بها، أو أنها فعلاً تستنفر ميكانيزمات الكبت عندنا فنصاب إزاءها بالكدر. والكبت أيضاً هو الذي تخرج النكتة بسببه مموّهة ومقنّعة. وبعض النكت فيها استهزاء بالقدر، أو السخرية من الدين، وبعضها فيه عنصر السخف أو اللامعقولية.

وتتأتى اللذة الجمالية التي تتوخاها النكتة إذن من جهتين: صياغتها وغايتها، فالصياغة فنية جمالية، فيها الإيجاز، واللعب بالألفاظ، والتعديل ، والإبدال، والإزاحة، والتكثيف، والتلميح، والمماثلة، والتقريب. ومستمع النكتة يستملحها عندما يفهمها، وفهمه لها يسعده باعتباره عند مستواها. والنكتة يجد فيها صدى لمشاعره إزاء موضوع، وهي لغة تواصل بين القائل والمستمع، وكلاهما يعبر فيها عما كان لا يستطيع أن يعبر عنه، وإنما هذه المرة بطريقة فنية. والكلمة في النكتة لها معنى ولها جرس أيضاً. والنكتة قد تستخدم القافية، وقد تكون يها أوزان. واللذيذ في النكتة أننا فيها نعيد اكتشاف شيء نعرفه. وبعض النكت سارة لأن أطرافها أحداث مهمة وشخصيات لها وزنها، وهي لذلك نكت وقتية مرهونة بأسبابها، والنكتة لها عُمْر، وقد تُستَهلك وتُنسى وتصبح بلا موضوع وليس لها ما يسوغها. والبعض يلخص السرور بالنكتة بأنه سرور للاشيء.

ويرد فرويد استخدام الألفاظ في النكتة هذا الاستخدام المبهج إلى ما كان

يحدث معنا ونحن أطفال، عندما كنا نجرب قدرتنا على الكلام باستخدام الألفاظ كيفما نشاء، والمهم هو أن نتكلم بها، والمهم أن الجميع يستملحون ذلك ويشجعونه، إلى أن يأتي وقت ينهوننا عن ذلك، ولكننا عندما نكبر ننكص إلى الطريقة السابقة ونركّب من الألفاظ ألفاظاً، ومن الأصوات كذلك، لنستحدث التأثير المبهج الذي خبرناه قديماً، وإنه لحكمة صائبة تلك التي تقول إن الإنسان باحث عن اللذة مثابر على البحث عنها وبأي طريقة، ولذلك فإنه بعد أن يتعلم المنطق ويمارسه يلذّ له أحياناً الخروج عليه باللجوء إلى سخافات كسخافات الطفولة، فتعطيه راحة نفسية. واللعب عادة للأطفال، وهناك مبدأ يقول إننا نميل إلى أن نكرر أنفسنا، ونكرر المواقف التي مرت بنا ولم يتحصل لنا منها إلا الألم، ولكننا نكررها هذه المرة لننزع منها عنصر الألم وتصبح في النهاية عنصر لذة. واللعب بالألفاظ والأفكار من ذلك، وإعادة اكتشاف ما عرفناه قديماً يعطينا اللذة.

وهناك فرق بين الهزل والمداعبة والنكتة، ففي المداعبة نكشف ما نعرفه، وفي النكتة تتميّز الصياغة، وفي الهزل نكشف المستور. والميزة في النكتة أن لها شكلاً ومضموناً.وهي على ذلك أرقى أنواع الهزل، وليس كل أحد قادر على إلقاء النكتة أو صياغتها لهذا السبب. والنكتة لها قوة، والنكتة البسيطة لعب الألفاظ، والنكتة «الشديدة» لها أهداف أبعد، وتدخل مناطق محرّمة وممنوعة، وهي تتحدّى الكف والكبت. وصائغ النكتة وراويها إنسان مبدع، ولو جاز استخدام هذا الاصطلاح القديم - إصطلاح الملكة - لقلنا إنه إنسان يمتلك ملكة النكتة، ومع ذلك فالنكتة لها أبعاد شخصية، وحبكة النكتة عمل فني، إلا أن عمل النكتة، أي مضمونها، لشبيه بعمل مرض العصاب، ولن ندهش لو علمنا أن مخترع النكتة عانى أساساً من اضطرابات عصابية، وأنه يتوسل بالنكتة للتعبير عن المكبوت،أو الدوافع والرغبات المكبوتة، أو أنه في حالات النكتة البريئة يتوخى الإظهارية أو الاستعراضية والتباهي بذكائه وملكاته. ولا يسر صاحب النكتة أن يخترع النكتة لنفسه وإنما هي أصلاً لكي

يسمعها منه الآخرون ولو كان في ذلك تضحية ببعض الاعتبارات. والشيء المضحك يمكن أن يدخل البهجة على الرائي فقط، وأما في النكتة فلا بدّ أن يكون لها المستمع. ولا يكتمل البناء النفسي للنكتة إلا بأن يكون لها المستمع، وسرور المستمع يُدخل السعادة على قائل النكتة، وقائل النكتة لا يضحك عليها هو نفسه، على عكس الموقف الضاحك الذي قد نضحك له ولا يمنعنا أن نحكيه للآخرين ونشاركهم الضحك منه مرة أخرى.

ومع أن النكتة كما أسلفنا تستعين بميكانيزمات الأحلام من تكثيف وإزاحة وإبدال وتحريف، إلخ، إلا أن الحلم مسألة خاصة بالفرد الحالم، في حين أن النكتة إجتماعية ولا بدّ فيها من مستمع يشارك ملقي النكتة الانفعال بها، والحلم يحتاج إلى تأويل، وغالباً يكون غير مفهوم، في حين أن النكتة لا بدّ أن تكون مفهومة، إلا أنه في النكتة والحلم يكون تصريف طاقة حبيسة ويُرفع الكف عن مسألة ما. والحلم يفصح عن رغبة مكبوتة، والنكتة نوع من اللعب المتطوّر.ونحن نحتاج إلى أن ننام ولذلك نحلم، ولكننا في النكتة نستمتع بممارسة نشاط لا يصدر عن حاجة معيّنة. والحلم محاولة لتجنّب الألم، والنكتة محاولة لتحصيل اللذة.

والفرق بين النكتة والموقف الضاحك والفكاهة أن اللذة في النكتة مصدرها أننا نرفع الكف أو القمع بأقل طاقة ممكنة، وهذا هو ما يريحنا. وأما في الموقف الضاحك فاللذة مصدرها أننا نشحن الموضوع المثير للضحك بأقل قدر من الطاقة، وأما في الفكاهة ففيها المشاعر، ونحن نبذلها بأقل قدر ممكن من الطاقة.

مراجع

- Freud: Humour. (1927)

❖ ❖ ❖

– النكوص...

- **Regression (E.;D.);...**
- **Régression (F.)...**

النكوص عودة إلى أشكال سابقة من النمو والتفكير وعلاقات الموضوع. ويشرح فرويد فكرة النكوص التي يقدمها في كتابه «تفسير الأحلام» (١٨٩٩) لينبّه إلى صفة أساسية في الأحلام، باعتبار أن فعل الحلم في جملته نكوص يعود به الحالم إلى أقدم أوضاعه، وهو بعث جديد لطفولته، وللدفعات التي تسيطر على هذه الطفولة، ولوسائل التعبير التي كانت في متناوله وقتها. ومن وراء هذه الطفولة الفردية طفولة النوع، وتطوّر الجنس البشري الذي لا يخرج تطوّر الفرد إلا أن يكون ترجيعه المختصر المتأثر بملابسات حياته العارضة. وكان نيتشه مصيباً إذ يقول إن الحلم بقية من الإنسانية الأولى، ولنا أن نتوقع أن يقودنا النكوص في الأحلام إلى معرفة التراث الأول للإنسان، فالأحلام وكذلك الأعصبة تنبهه من خلال النكوص إلى المخلفات النفسية القديمة.

ويفسر فرويد الهلاوس في الهيستيريا والبارانويا، وكذلك الرؤى عند الأسوياء نفسياً، بأنها نكوصات، أي أفكار تحولت إلى صور، سوى أن الأفكار التي يصيبها هذا التحوّل إنما هي المرتبطة أشد الارتباط بذكريات كبتت أو ظلت لاشعورية.

والنكوص يفيد في ربط ظاهرة نعلمها من قبل، وله في نظرية تكوين الأعراض العصابية دور لا يقل أهمية عنه في نظرية الحلم. ويشتد الميل إلى النكوص تحت تأثير جذب الدافع المكبوت. وتدلل بحوث التحليل النفسي على أن النكوص في العصاب القهري يحدث للدوافع الغريزية إلى مرحلة جنسية سبقة، ويقوم هذا النكوص بالعمل نفسه الذي يقوم به الكبت. ومن الممكن في العصاب القهري أن تتحول دوافع الحب إلى دوافع عدوانية تتجه ضد الموضوع، وذلك بالنكوص إلى التنظيم السابق للمرحلة التناسلية، ولا يتم تحوّل الحب إلى عداء على يد الأنا ولكنه نتيجة نكوص يحدث في الهو.

وعادة لا تكون العمليات اللازمة لتمام النمو موجودة كلها، كما أنها لا تكون غائبة كلها، وتتوقف النتيجة النهائية على هذه العلاقات الكمية، وعلى ذلك قد يبلغ الفرد مرحلة التنظيم التناسلي، ولكن هذا التنظيم يكون ضعيفاً بسبب تلك

الأجزاء من الليبيدو التي لم تتقدم تقدماً كبيراً، وإنما ظلت ثابتة عند بعض الموضوعات والأهداف في المراحل السابقة للمرحلة التناسلية، ويظهر هذا الضعف فيما يبديه من ميل إلى النكوص إلى شحناته النفسية السابقة للمرحلة التناسلية إذا حُرِم إشباع رغبته التناسلية أو صادف عقبات في العالم الواقعي الخارجي.

وقد يحدث النكوص نتيجة عامل زمني إذ ربما تبدأ مقاومة الأنا مبكرة جداً. ويذهب فرويد إلى تفسير النكوص ميتاسيكولوجياً بانفصال الغرائز، أي انفصال العناصر الجنسية التي تبدأ تتصل بالشحنات النفسية في مرحلة سابقة. وبتحقق النكوص يسجل الأنا انتصاراً في حرية الدفاعية ضد رغبات الليبيدو، وقد يحدث عند القضاء على عقدة أوديب أن يرتد الليبيدو في صورة نكوص، وفي خواف الأماكن الفسيحة مثلاً يحدث نكوص زمني إلى الطفولة أو إلى أيام قبل الولادة في الحالات المتطرفة، أي إلى زمن كان فيه الفرد في رحم أمه، وفي حالة الرجل الذي كفّ تهديده بالخصاء قدراته الجنسية، يصب البديل عنده لعملية الجماع - وفي رأي فيرينزي وفرويد - أنه يتخيل النكوص إلى رحم أمه، باستخدام عضوه التناسلي كممثل له، ويأخذ في إحلال جسمه كله محل ذلك العضو طريقة نكوصية.

ويفرّق فرويد بين ثلاثة أنواع من النكوص:

١ - النكوص الطبوغرافي باتجاه الأفكار والمشاعر نحو الأجهزة الحسيّة، وتنزع الأحلام إلى أن تصب محتواها الفكري في صورة حسيّة نتيجة لمقاومة تحول دون تقدم الفكرة إلى الشعور. وتتيح الحالات المرضية إستثمار الأنظمة الإدراكية إستثماراً هلوسياً كاملاً كما في الأحلام.

٢ - النكوص الزمني من حيث أن الأمر يتعلّق بالرجوع إلى أبنية سيكولوجية أقدم عهداً.

٣ - النكوص الشكلي حيث تحلّ أساليب بدائية من التعبير والتصوير محل الأساليب المألوفة. وهذه الأنواع الثلاثة واحدة في جوهرها، وتقع مجتمعة في الغالبية الغالبة من الحالات، فالأقدم

في الزمن هو في الوقت عينه البدائي في شكله، وهو الأقرب إلى الطرف الإدراكي من حيث الطبوغرافية النفسية.

والنكوص كما ذكرنا من أهم الخصائص السيكولوجية لعملية الحلم. وفي أحوال التهيّجات الذاتية التي تطرأ على أعضاء الحسّ خلال النوم يحدث إحياء نكوصي للذكريات التي تعمل عملها وراء الحلم. وييسِّر عامل الانفصال عن العالم الخارجي نكوص التصوير الحلمي.

مراجع

- Freud:Interpretation of Dreams. (1899)
: Introductory Lectures on Psychoanalysis. (1917)

❖ ❖ ❖

-نيتشه، فريديك...

- Nietsche, Freidrich...

(١٨٤٤ - ١٩٠٠) أكثر الفلاسفة تأثيراً في نظرية التحليل النفسي عند كل من فرويد وأدلر، ويشتهر بأنه فيلسوف إرادة القوة، وتابعه على ذلك أدلر، وقال مثله بدافع للعدوان، وعقدة للتفوق يجعلها مبدأ للكفاح من أجل التفوّق. ويعرض إرنست جونز في نقده لأدلر بأنه أخذ عن نيتشه إرادة القوة وجعلها دافعاً للعدوان فسرّ به حتى الرغبة الجنسية. ويذهب الكثير من النقاد إلى أن فرويد كان كثير الإعجاب بفلاسفة القوة ومنهم نيتشه، وأحب الإسكندر الأكبر لهذا السبب، فلما سأله أبوه يوماً عن إسم لأخيه المولود طلب من الأب أن يسميه الإسكندر وفسّر له اختياره بأنه كان فاتحاً عظيماً، وأطلق فرويد نفسه على إبنه إسم عمانوئيل تيّمناً باسم عمانوئيل كرومويل حاكم إنجلترا المطلق. ويورد إرنست جونز مؤرّخ فرويد في كتابه عنه أنه أرسل خطاباً إليه وهو في الثامنة والسبعين يدور حول نيتشه، ويعترف فيه فرويد صراحة بأثر نيتشه عليه فكرياً وعَقلياً ونفسياً، فلولا نيتشه ما كان إصراره وجهاده ونضاله من أجل تأكيد ذاته، ونيتشه هو الذي وجّهه وجهته الخاصة في تقويمه للحب والحرب والموت، وبسبب

نيتشه مجّد الغرائز باعتبارها قوة تجدّد، ونيتشه الذي نبّهه إلى التسامي بالغرائز، وكشف له عما في كثير من المعاني من أنانية وعدوانية، كما أنه نبّهه إلى أن الأنا الأعلى الضمير هو المسؤول عن القمع والكبت ومشاعر الذنب، وقال مثله إن الحضارة دَعا إليها الكبت للغرائز، وألهمتها التربية التي تحضّ على معاندة كل ما هو غريزي. ونيتشه هو الذي اكتشف اللاشعور ووسّع في مفهومه باعتباره من محدّدات السلوك، ونبّه إلى اللامعقول في كثير من القيم النفسية، وكان أسبق من فرويد في التوصل إلى مفاهيم كثيرة نفسية حول الثقافة، والدين، والمحرّم، والمحلّل، واللذة والألم، والجنس والشعور، والأنا، والإرادة، والحتمية، ومعنى الحياة. وفرويد مدين له بالكثير من هذه المفاهيم. ويستخدم نيتشه إصطلاح الهو ويقصد به مجموع الدوافع الغريزية اللامعقولة التي تصطرع داخلاً ولا نعيها. ووجد فرويد في نيتشه مثالاً ومبرّراً له ليكره المسيحية والقيم التي تمثلها. وكان نيتشه بمفهوم أدلر نموذجاً لما يمكن أن تصنعه إرادة التفوّق وعقدة النقص اللتين قال بهما، فقد كان نيتشه يشكو آلاماً مبرحة بالرأس والعينين والمعدة، فكان المرض شاحذاً لإرادته ويدفع به إلى تأكيد ذاته. وعندما كثر المنشقون على فرويد أخذ بمبدأ الصفوة الذي قال به نيتشه، وأنشأ لجنة من صفوة المحلّلين من خلصائه ليكونوا مشرفين وسدَنة لحركة التحليل النفسي في حياته ومن بعده.

مراجع

- E. Jnoes: The Life ad Work of Signund Freud. (1953)
- Nietzche: Der Antichrist. (1902)
: Ecce Homo. (1908)
-Freud: Beyond the Pleasure Principle.(1920)

❖ ❖ ❖

- هـ -

حرف الهاء

- هارتمن إدوارد ڤون...

- Hartman, Eduard Von...

(١٨٤٢ - ١٩٠٦) قيل إن فرويد عرف بهارتمان عن طريق أستاذه مينرت، وهارتمان كان أسبق من فرويد في القول باللاشعور، إلا أن حديث هارتمن فيه كان أقرب إلى الفلسفة، بينما كان حديث فرويد في اللاشعور ضمن ما أطلق عليه إسم ما وراء علم النفس. وتقوم شهرة هارتمن على أنه فيلسوف اللاشعور، بينما تقوم شهرة فرويد على أنه واضع سيكولوجية اللاشعور. ومن النقّاد من يجزم بتأثر فرويد بهارتمن، خاصة أن هارتمن لم يكن فيلسوفاً فقط، ولكن كان أيضاً عالم نفس، وله كتاب «علم النفس الحديث»، وفي هذا العنوان هو ما روّج له فرويد لمذهبه التحليلي، فقد كان يُطلق عليه إسم علم النفس الحديث، وكان أتباعه يطلقون عليه الإسم نفسه، ويقصدون بمذهب فرويد سيكولوجية اللاشعور، التي قال بها، ولهارتمن كتاب «فلسفة اللاشعور» (١٨٦٩). وإن كان من كتب الفلسفة، إلا أنه كتبه بروح عالم النفس، وقد ذاع اصطلاح اللاشعور واللاشعوري في ألمانيا عن هارتمن، وكتب إيبنجهاوس رسالته للدكتوراه في فلسفة اللاشعور عند هارتمن، وحتى ڤنت نبّه إلى عمل اللاشعور، وكل من سبق فرويد وكتب في اللاشعور تناوله من زاوية أو أخرى وحدّد مفهومه بحسب مكانة اللاشعور في سياقه الفكري، إلا أن فرويد هو الذي تناوله من وجهة نظر نفسية محضّة.

مراجع

- Hartman: Die Moderne Psychologie. (1901)
- Philosophie des unbewussten (1869)

❖ ❖ ❖

- «Delusions and Dreams in Literary Works» (E.);...
- «Délires et Rêves dans les œuvres Littéraires» (F.);...
- «Der Wahn und die Träume in Literaturwerke» (D.)...

صدر لفرويد سنة ١٩٠٧ كتاب

«الهذاءات والأحلام في رواية جراديڤا ليانسن»، وهو من مؤلفاته التطبيقية في مجال الأدب، وحاول فيه تحليل هذه الرواية باعتبارها «فانتازيا» من النوع الإبداعي الأدبي، بمعنى أنها تقوم على تخيلات بها بعض الواقع وكثير من أحلام اليقظة، والتفكير فيها اجتراري أو تفكير راغب. ويُقارن فرويد في هذا الكتاب بين أحلام التخيل الهاجسة والأحلام التي تكشف عن صنعة وإبداع، ويستخدم في تحليل أحلام بطل الرواية منطقه التأويلي الذي عرضه باستفاضة في كتابه «تفسير الأحلام». والرواية برمتها عبارة عن دراسة سيكولوجية بالمعنى العلمي وإن أطلق المؤلف عليها إسم فانتازي بالمعنى الأدبي. ويعقد فرويد مقارنة بين عمل الروائي وعمل الطبيب النفسي، ويقول إن الاثنين مجالهما الحياة النفسية، وما يصل إليه الطبيب النفسي فيها بالعلم يبلغ الروائي أو الأديب إلى مثله بالحدس، وليس على الطبيب النفسي أن يأخذ بالمنهج الأدبي، كما أن الأديب ليس عليه أن يتبع المنهج العلمي للطبيب النفسي، ويستطيع أي أديب أن يتناول قضية من القضايا السيكولوجية ويكتب فيها من منظوره الأدبي أو الفني دون أن يكون في تناوله قضية من القضايا السيكولوجية، ويكتب فيها من منظوره الأدبي أو الفني دون أن يكون في تناوله للقضايا العلمية أي انتقاص للناحية الجمالية. ويصف فرويد رواية جراديڤا بأنها تصوير شعري لملاحظة كلينيكية، وعلاج نفسي من زاوية فنية محض. وبانتهاء الرواية يكون أبطالها قد تحصل لهم التنوير، وتحقّقت لهم البصيرة، وصارت لهم السوية. كما أن القارىء يتلاشى توتره مع الخاتمة، وتكون له رؤية أفضل. والتفسير الذي يقدمه فرويد للأحلام في الرواية هو محاولة منه لتطبيق المصطلحات العلمية على مفردات هذه الأحلام، ولا يبدي اعتراضاً على تسمية المؤلف لحالة البطل بأنها هذائية، والهذاءات أعراض لاضطرابات لا تصيب البدن إصابة مباشرة، وتتسم بالاستقلالية وتصير لهامصداقية بالنسبة للمريض بها حتى لتوجه سلوكه وتفكيره. وهذاءات البطل فيتشية شهوية، وهو يتعبّد إلى تمثال لامرأة يهيم بها وبالحركة التي تفتعلها

والمصوّرة في التمثال بحس مرهف وإجادة مرموقة، وتساعده الأحلام التي تأتيه على الرجوع القهقري إلى طفولته الأولى وحبه الأول في صباه، وتوافيه الذكريات، ومع تواردها يتحول هيامه بالحجر إلى هيام حقيقي بالفتاة التي عليها مدار الأحلام ويمثلها التمثال. ويرجع فرويد والفيتشية إلى الإنطباعات الشهوية من عهد الطفولة، ويصف الذكريات التي تطرحها الأحلام بأنها لاشعورية، ويفرّق بين المكبوت واللاشعوري، فاللاشعوري مصطلح وصفي محض وغير محدّد من أكثر من زاوية، وهو مصطلح ستاتيكي إن جاز التعبير، وأما المكبوت فهو مصطلح دينامي يكشف عن صراع بين القوى النفسية،وعن مقاومة لردود الفعل النفسية. وفي حالة بطل الرواية يكشف عثوره على التمثال وهيامه به عن لاشعور مكبوت. والكبت يطول المشاعر والعواطف فقط، ولا تُقاس القوى النفسية إلا بقدرتها على إيقاظ المشاعر والعواطف، وأما التصوّرات فالكبت لا يطولها إلا لارتباطها بهذه المشاعر والعواطف، وأيضاً فإن إدراك المشاعر والعواطف لا يتم إلا مرتبطاً بالتصوّرات. واكتشاف البطل للتمثال يوقظ فيه الشهوة ويعيد إلى ذكريات الطفولة نشاطها وفعاليتها. ويقول فرويد أن أدوات الرائي للكشف عن المكبوت ومنهجه في علاج المرض الفسي يتواكب مع منهج التحليل النفسي وأدواته. ويقرر فرويد في كتابه الذي نحن بصدده أن بيير جانيه كان أول من أرجع الأمراض العصبية، وبخاصة الشواهد الهيستيرية، إلى قوة الأفكار اللاشعورية، وأن قواعد التفسير للأحلام تنطبق عليها. ويستخدم الحلم ميكانيزمات كالتحوير والنقل والتمويه. وللحلم مضمون ظاهر ومحتوى كامن، ولغة رمزية. والتشويهات التي تكون عليها الصور الحلمية أساسها الرقابة، ومن النادر أن يكون الحلم تمثيلاً لفكرة واحدة، بل هر إخراج مسرحي لسلسلة أفكار. وفي تفسير الحلم علينا أن نستبدل بكل عنصر من عناصر الكمون الظاهر أفكاراً لاشعورية. والكلمات التي يسمعها الحالم في حلمه هي في أصلها كلمات سمعها أو نطق بها في حالة اليقظة.

وحلول شخص محل آخر في الحلم، أو اندماج شخصين في شخص احد، يعكس تكافؤاً بين الشخصين، أو حتى توافقاً بينهما. ومن ميكانيزمات الحلم التكثيف، أي صهر حادثين من أحداث النهار في موقف واحد. وحين تنطوي أفكار الحلم على استهزاء وازدراء فإنها تأخذ أشكالاً لامعقولة، وهي وسيلة تمثيلية يستعان بها لتحريف الواقع.

وينبّه فرويد إلى منهج التنفيس أو التفريغ الذي يتبعه المؤلف مع البطل ليحقق له التنوير والاسبتصار، ويقول إن هذا المنهج هو نفسه الذي أدخله بروير إلى الطب النفسي سنة ١٨٩٥، ورواية جراديقا صدرت سنة ١٩٠٣. ومنهج التنفيس هو منهج التحليل النفسي إياه بعد تطويره. وعندما سُئل المؤلف عن ذلك إستنكر أن يكون قد قرأ عن أي من هذه المتاهة، وإذن فنن الممكن أن يصدر ذلك عن الأديب بالحدس، ومخيلته هي التي تبدع ذلك، والأديب وعالم النفس كلاهما يصدر عن منبع واحد، وفي التحليل النفسي يُخضع المحلل موضوعه للملاحظة الواعية ليحزر قوانينها، ويسلك الأديب مسلكاً آخر، ويركز انتباهه على لاشعور نفسه بالذات، ويصيخ السمع لقواه المضمرة، ويمنحها التعبير الفني بدل أن يكبتها بالنقد الواعي، ويعلم من داخل نفسه ما يعلمه المحلّل النفسي من الآخرين عن القوانين التي تحكم حياة اللاشعور، ولا حاجة به إلى صياغة هذه القوانين أو التلميح إليها، ولا حتى إدراكها بوضوح، بل هي تندمج بذكائه في إبداعاته، وأما المحلّل النفسي فيستخلص القوانين من تحليل الأعمال الأدبية مثلما يستشفها من الحالات المرضية الحقيقية.

❖ ❖ ❖

– الهفوات...

- Parapraxes (E.);...
- Actes Manqués (F.);...
- Fehllestungen (D.)...

كانت ترجمة المصطلحات الألمانية الفرويدية عملاً شاقاً كثيراً ما اختلف

حوله أتباع فرويد، وعند ترجمة كتاب «سيكوباثولوجية الحياة اليومية» (١٩٠٤) إتفقوا بعد لأي على أن تكون ترجمة الهفوات Parapraxe ومعناها الحرفي أشباه الأفعال، باعتبارها أفعالاً خاطئة نأتيها عفواً، وغير مقصودة، وإنما لها معنى مع ذلك ، وتدخل فيه زلاّت اللسان والقلم، وأخطاء التصرف، وإعاقات التذكر، والحوادث الصغيرة مما لا تقتضيها المواقف ولا تتناسب معها، وقد نعزوها إلى عدم الانتباه أو الصدفة. كما اتفق المترجمون الفرنسيون على ترجمتها Actes manqués، أي الأفعال غير المقصودة التي نأتيها في غير انتباه.

وتنضوي تحت الكلمة الألمانية كل الزلاّت التي يجمعها المقطع الاستهلاي الألماني Ver كما في زلّة اللسان Versprehen، وزلّة القلم Verschreiben، وزلّة القراءة Verlesen، وزلّة الذاكرة Vergressen، وزلّة التصرّف Vergreifen، وإضاعة الأشياء Verlieren. وكمثال للهفوة أن ينطق المرء أو يكتب كلمة غير التي يريد أن ينطق بها أو يكتبها، سواء لاحظ ذلك أم لم يلحظه، ونسميها عادة فلتات اللسان وزلاّت القلم، أو أن يقرأ شيئاً مؤقتاً، كأن لا يتذكر إسماً يعرفه، أو ينسى أن يقوم بأداء شيء مكلّف به أو قرّر أن يقوم به، وقد ينسى أين وضع الشيء. وهذه الأحداث لبسيطة من باب الهفوات أو الهنات لا تبدو لها أهمية خاصة، ومع ذلك فلها بالقطع دلالة كبيرة. ومع ذلك فقد نرتكب أمثال هذه الحوادث إذا كنا متعبين أو منفعلين بشكل خاص، أو مشتتي الفكر وغير منتبهين، وقد يحدث ذلك في حالات الاضطرابات من مثل اضطرابات الدورة الشهرية، أو الدورة الدموية عموماً وتغيّر توزيع الدم في الجهاز العصبي، إلا أن ما نعنيه من الهفوات هي تلك التي يأتيها الأصحاء غير المتعبين، أو الذين لا يشكون مرضاً أو همّاً، والتي سببها دوافع وصراعات لاشعورية.

وفلتات اللسان يمكن إستثارتها عن طريق الإيحاء، ومن ميكانيزماتها الإبدال Interchane بمعنى أن نضع كلمة أو مقطعاً أو حرفاً محل آخر، والسبق Anticipation أي أن يسبق لساني الترتيب المنطقي للجملة فتأتي الكلمة في غير محلها،

والإلحاح Perseverence أي أن تلح عليَّ الكلمة فأنطقها برغم عدم مناسبتها، والتراكبية Compounding أي أن تتراكب الكلمات والحروف والمقاطع، والإحلال Substitution أي أن يحلّ حرف أو مقطع أو كلمة مكان أخرى، والاختزال Contraction أي إختزال كلمتين في كلمة واحدة.

وأظهر فلتات اللسان ما ينطق فيها المتكلم بكلمة عكس المعنى الذي يريده، واختياره للكلمة العكس يحكمه تشابه في صوتي الكلمة المرادة والكلمة العكس، أو تشابه في التركيب، على غير ذلك من التداعيات. وكل هفوة هي بمثابة فعل نفسي مكتمل، له معنى، ويهدف لتحقيق غاية، وله مضمون ودلالة. وقد تكون الهفوة سلوكاً يتسم بكل ما يتسم به السلوك، سوى أنه سلوك قد أتى على غير قصد ولم يتوقعه المرء من نفسه. ويستخدم الشعراء ومؤلّفو المسرح الهفوات كوسيلة من وسائل التعبير الفني، إلا أنهم يقصدون إليها ويستخدمونها بغرض، كأن يدع المؤلف شخصية من الشخصيات تخطىء عن عمد ليكشف أمرها للمتفرج أو للآخرين معها في المسرحية، وقد يفعل ذلك الشاعر كاستدراك له مغزاه وتأثيره في توضيح المعنى.

والهفوات إستوفاها فرويد شرحاً وتعليقاً وأمثلةً في كتابه الذي نوّهنا عنه في البداية «سيكوباثوجية الحياة اليومية» أي «الهنات النفسية المرضية في الحياة اليومية»، وهو من أهم مؤلفاته، ويأتي في الرواج عند القرّاء بعد كتابه «تفسير الأحلام»، وبعض النقاد يعتبره أروج مؤلفاته إطلاقاً، وذلك لأنه يتناول ناحية من نواحي حياتنا النفسية اليومية، وكان آخرون قد نبّهوا إليها، إلا أن أحداً منهم لم يحدث أن جمع بين كل هذه الهفوات وضرب لها كل هذه الأمثلة.

وزلات اللسان بتحريف الأسماء أو الإتيان بإسم مضاد لإسم أمر شائع، إلا أن الغالب أن يأتي التحريف باسم يحط من شأن صاحبه، كأن أقدّم الدكتور جاد فأخطىء وأقول الدكتور جاز، أو أنادي على زاهية فأقول يا داهية، ولذلك فالغالب أن تكون فلتات اللسان بقصد سيء، وأن يكون التحريف الذي يتناول الأسماء هو مسخ لهذه الأسماء، وذلك

شأن الهفوات الأخرى كزلّات القلم، وعثرات القراءة، وأخطاء تنفيذ ما نؤمرَ به، ونسيان ما نحفظ من أشياء.

وتنشأ الهفوات من تداخل قصدين أو نزعتين مختلفتين، إحداهما النزعة الدخيلة، والأخرى المدخول عليها، وقد تتناقضان، أو تصحح الدخيلة المدخول عليها، أو تكملها، وقد لا تكون بينهما صلة تداعٍ وإنما صلة إصطناعية، وقد يتعرّف المرء فوراً على القصد من التداخل ويعترف به، وقد ينكره، وحينئذٍ يكون استكناه الدافع من شواهد الموقف النفسي والمشاعر التي تكتنفه، ومن السهل افتراض وتخمين معنى الهفوات التي تتكرر معنا، وكلما كان تكرارها كلما كان ذلك دليلاً على صدورها عن نزعة ملحة.

ويفاخر فرويد بأنه بكتابه عن الهفوات وهو «الهنات أو الظواهر النفسية المرضية للحياة اليومية» يضيف إلى علم النفس المرضي ظواهر جديدة لم تكن تنتسب له، وهناك مجموعة تشبه الهفوات يسميها الأفعال العارضة Acts accidental أو العرضية Symptomatic acts تبدو لأول وهلة لا دلالة لها ولا دافع وراءها، وليس وراءها مقصد ثان يعارض المقصد الأول، إلا أنها مع ذلك تتداخل مع تعبيراتنا الحركية الانفعالية كأن نفرك أيدينا أو نعبث بزرار السترة، إلخ، أو يكون بأيدينا شيء فنعبث به، أو نغني لأنفسنا، وكلها ظواهر لها معنى ويمكن تفسيرها على منوال الهفوات، وهي أفعال نفسية كاملة.

والذي يحدث في الهفوة أن النزعة المدخول عليها تمارس القمع الشعوري المتعمد أو الكبت التلقائي اللاشعوري على النزعة أو القصد الدخيل، بمعنى أن النزعة الدخيلة تُكرَه على الارتداد والتراجع، لأن المتكلم مثلاً قد قرّ قراره على أن لا يفصح عنها، ولكنها مع ذلك تشق طريقها إلى لسانه فتختلط وتلتبس صيغتها بصيغة النزعة المدخول عليها، ويقدر قوة وإلحاح النزعة الدخيلة بقدر التمويه على مرتكب الهفوة وعدم إدراكه للوهلة الأولى بما ارتكب أو بأسبابه. والشرط الضروري للهفوة هو القصد إلى شيء، ثم قمع هذا القصد، والهفوة في هذه الحالة هي حل وسط حيث تكسب

النزعة أو القصد الدخيل نصف المعركة، والنزعة أو القصد المدخول عليه النصف الآخر، فلا النزعة أو القصد الدخيل قُمِع برمته فاختفى، ولا هو بقي بقوته فأسفر عن نفسه كما هو. وتقرن الهفوات عادة بمظاهر وجدانية لها أهميتها أيضاً، ومن ذلك إنكار صاحب الهفوة أنه ارتكب هفوة، وربما لم يلحظ فعلاً تورطه في الهفوة، إلا أنه مع ذلك لا يغفل عن هفوات غيره. ثم إن الهفوات تنتقل بالعدوى إلى حد ما، فقد نأتيها لمجرّد أن نراها في الآخرين، والذي يخطىء في إسم، فلكي يصحّحه فقد يخطىء مرة ثانية، وهذا التحريف التعويضي له أيضاً سبب، فهو يريد به أن ينبّه السامع إلى أنه ما يزال مصراً على التحريف الأول، بمعنى أن قصده الأول الدخيل ما يزال موجوداً ويعمل فيه بقوة. وقد يحدث أن يملّ المرء جملة طويلة فيسرع لسانه بآخر كلمة فيها، أو تؤثر هذه الكلمة على نطق أخرى، وذلك دليل مقاومة داخلية للاستمرار وعزوف عن توصيل المعنى أو عن الحديث كلية. ويحدث الشيء نفسهفي زلاّت القلم، فالسبق إلى الكلمة يدلّ إلى إعراض عن مواصلة الكتابة والرغبة في الانتهاء منها سريعاً. وفي عثرات القراءة تكون عملية الإبدال هي العملية النفسية الظاهرة، أي إبدال كلمة بكلمة لتشابه بينهما، أو تكون العملية النفسية الظاهرة هي الحذف، أي حذف كلمة بما يغير المعنى إلى نقيضه.

وأما نسيان مواعيد، أو نسيان فعل شيء وُعِد أو أُمِر به، فذلك لوجود نزعة دخيلة، إلا أن المعنى قد يزيد على ذلك كأن يكون هناك عدم استلطاف بين المرؤوس والرئيس، وربما يتسبّب في النسيان كراهية باطنة لمكان الميعاد لذكريات مؤلمة نُسيت أو لم تُنسَ. ويروي جونز أنه كتب خطاباً لشخص لم يكن يحبه، وانتهى من الخطاب ووضعه في المظروف، ومع ذلك ظلّ على المكتب مدة، ولما قرّ قراره أن يرسله أعيد إليه الخطاب لأنه نسي أن يكتب العنوان، فكتبه، ثم أعيد إليه الخطاب مرة ثانية لأنه نسي أن يضع طابع البريد، وعندئذٍ علم أن رغبته في عدم إرسال الخطاب أقوى من رغبته في إرساله.

وبالمثل فإن نسيان أسماء الأعلام

والأماكن قد يكون لنزعة مضادة ضد الإسم أو المكان تصدّ الذاكرة عن استحضار المشاعر والذكريات المؤلمة المرتبطة به، وقد يمكن تفسير النسيان على هذا الأساس بمبدأ تفادي الألم، وباعتبار النسيان وسيلة دفاعية للوقاية من المشاعر والانطباعات والذكريات المؤلمة، إلا أن التفسير الديناميكي هو الأرجح باعتبار النسيان تزاحم الصراعات بين النزعات غير المتوافقة والتي تتشكل في أزواج من الأضداد.

وضياع الأشياء، وإسقاطها وإتلافها وتحطيمها، ربما لأنها من أشخاص تقطّعت بنا وبهم أسباب المودّة، أو أن مناسباتها كانت بحيث لا نحب أن نذكرها، وقد تكون تكفيراً عن مشاعر ذنب مرتبطة بذكريات حول هذه الأشياء، وكأننا بضياعها أو إتلافها نكفّر عن ذنوبنا، وقد نخطىء في تنفيذ بعض الأعمال نتيجة تداخل رغبة عكسية، ومن ذلك سوء الأداء عند الخدم، وكثرة إتلافهم وتحطيمهم للأشياء الثمينة، والحوادث التي ننجرّ إليها ونوقع بها الضرر والأذى بأنفسنا.

مراجع

- Freud: Psychopathology of Everyday Life. (1904)

❖ ❖ ❖

– الهو...

- **ID (E.);...**
- **Ça (F.);...**
- **Es (D.)...**

ينقسم الجهاز النفسي طبوغرافياً إلى أنا وهو، ويقابل هذا التقسيم التمييز الكيفي بين «ما قبل الشعور» و«اللاشعور» والهو أقدم القسمين، ويحوي كل ما هو موروث، وما هو موجود منذ الولادة، وما هو ثابت في تركيب الجسم، ولذلك فهو يحوي قبل كل شيء الغرائز التي مصدرها الجسم والتي تجد أول تعبير نفسي لها في الهو. وإسم «الهو» من الضمير الغائب، أي أنه مجهول ولاشعوري. ومن الهو، من الجزء الذي كان طبقة مزوّدة بأعضاء استقبال المنبّهات وبجهاز الوقاية من التنبيه،

نشأت منظمة الأنا لتعمل كوسيط بين الهو والعالم الخارجي. وفي الأصل لم يكن هناك إلا الهو ثم أخذ الأنا ينشأ عن الهو تحت التأثير المتواصل للعالم الخارجي، وتحوّل جزء معيّن من مادة الهو إلى حالة ما قبل الشعور وانضم إلى الأنا، وأسقط الأناع جزءً من المادة التي اكتسبها من الهو ودفعها إليه ثانية، واستبعد الكثير من الإحساسات الجديدة ودفعها إلى الهو، ويسمّى هذا الجزء بالمكبوت، فكأنه أصبح لدينا في الهو نوعان من المادة، أحدهما كانت موجودة في الهو أصلاً، والثانية صارت له من الأنا، والنوعان يطابقان تقريباً التمييز بين ما هو موجود أصلاً وبين ما هو مكتسب.

واللاشعور هو الكيفية الوحيدة التي تسود الهو. والعمليات في الهو أو اللاشعور تتبع قوانين مخالفة للقوانين الموجودة في الأنا، وتوصف بأنها أوّلية، بينما توصف عمليات الأنا بأنها ثانوية، وقوانين المنطق لا نفوذ لها في الهو الذي يسمّى بمملكة الأمور غير المنطقية. ولا يستطيع الهو أن يقبل أو يشعر بأي تغييرات خارجية إلا عن طريق الأنا. وتتحوّل الخبرات التي تتكرر كثيراً جداً وبشدة كافية بين أفراد الأجيال المتعاقبة إلى خبرات موجودة في الهو، ويحفظ الهو أثرها بالوراثة، ويمثل بما فيه من إتجاهات موروثة الحالة العضوية السابقة، بينما يمثّل الأنا الحاضر، كما يمثل الأنا الأعلى الحاضرة السابقة، فكأن الهو والأنا الأعلى يشتركان في شيء واحد بالرغم من الفوارق بينهما، والإثنان يمثلان سلطة الماضي، فالهو يمثل سلطة الوراثة، والأنا الأعلى يمثل السلطة التي خلّفها الناس في الفرد. ويظل الهو والأنا الأعلي في صراع مع الأنا، وقد ينجحان في الإخلال بمنظمته، وذلك ما يظهر واضحاً في الأحلام وفي المرض النفسي حينما ينفصل الأنا عن الواقع الخارجي ويعاني الذهان تحت تأثير العالم الداخلي. وتعطينا دراسة عمل الحلم مثلاً رائعاً للطريقة التي بها تندفع المادة اللاشعورية من الهو نحو الأنا فتصبح قبل شعورية، ثم تحدث فيها بفعل الأنا تعديلات تقابل التحريف في الأحلام. ومن خصائص الأمراض العصابية وجود إتجاهين في حياة الشخص النفسية

بالنسبة لنوع معيّن من السلوك يكون كل منهما معارضاً للآخر ومستقلاً عنه، أحدهما يتبع الأنا والآخر يتبع الهو. وفي العلاج بالتحليل النفسي يحثّ المحلّل أنا المريض على المقاومة كلما ظهرت رغبة من رغبات الهو.

والهو يصدر عنه حب الموضوع الذي يُشعر الفرد بما فيه من نزعات للحب كأنها حاجات. وفي البداية كان كل اللبيدو متجمعاً في الهو، حيث كان الأنا ما يزال في مرحلة التكوين، أو ما يزال ضعيفاً، ثم أخذ الهو يُرسل جزءاً من هذا اللبيدو إلى الشحنات النفسية المتجهة نحو الموضوع. ويسترشد الهو ضدّ التوتّرات بمبدأ اللذة، أي بإدراك الألم، بالموافقة على مطالب اللبيدو الجنسي وإشباع النزعات الجنسية المباشرة.

وكان تقديم فرويد لمصطلح الهو في كتابه «الأنا والهو» سنة ١٩٢٣، واستعار الإسم من جورج جروديك، نقلاً عن نيتشه الذي يصف الهو بأنه ما ليس شخصياً في كياننا، وبالتالي فهو ما هو ضروري بالطبيعة لكياننا. والهو بهذا التعريف هو القوى المجهولة التي تعيش فينا وليس لنا السيطرة عليها، بما يعني ما يذهب إليه المرضى عندما يقولون بعفوية «كان شيئاً أقوى مني»، أو «إعتراني شيء أقوى مني فجأة» إلخ...

ولفرويد نظريتان في الجهاز النفسي، وفي الأولى كان تقسيمه هذا الجهاز إلى شعور وما قبل الشعور واللاشعور، وفي الثانية قسّمه إلى الهو والأنا، وجعل الهو لاشعورياً، ثم جعل جزءاً من الأنا لاشعورياً كذلك، وجزءاً من الأنا الأعلى. وكان الصراع في النظرية القديمة بين غرائز الأنا وغرائز الجنس، وهو في النظرية الجديدة بين غرائز الحياة وغرائز الموت، وبذلك لم يعد الدفاع قاصراً ضد الجزء اللاشعوري من الشخصية، بل أصبح يتوجه ضد الجزء الغريزي منها. والفاصل بين الأنا والهو أقل وضوحاً في النظرية الجديدة من الفاصل بين الشعور وما قبل الشعور واللاشعور في النظرية القديمة. ولم يعد المكبوت يتطابق مع اللاشعور كما في النظرية القديمة، وإنما المكبوت في النظرية الجديدة يمتزج بالهو ولا ينفصل عن الأنا إلا من خلال مقاومات الكبت،

ويمنع التواصل مع الأنا من خلال الهو، وكذلك لا يستقل الأنا الأعلى بنفسه وإنما يغوض هو الآخر في الهو لأنه لاشعوري في القسم الأكبر مه كما سبق.

مراجع

- Freud: the Ego and the Id. (1923)

❖ ❖ ❖

– هورني، كارين...

- Horney, Karen

(١٨٨٥ - ١٩٥٢) يُطلق على مدرسة هورني وفروم وسوليڤان وأندرسون إسم المدرسة الثقافية الدينامية، ويُنظَر إلى هورني وفروم وأدلر كاشتراكيين يمارسون التحليل النفسي. وكان أدلر كما يقول النقّاد يريد أن يجعل نظريته في التحليل النفسي هي النظرية الرسمية للإشتركيين أو الشيوعيين.. وتكشف هورني عن ميول إشتراكية واضحة وخاصة بعد هجرتها من ألمانيا إلى الولايات المتحدة سنة ١٩٣٢، فقد عَدَتها الحرية اللليبرالية في أميركا كي تكون على حريتها في أفكارها، وأن تعلن بصراحة عدم موافقتها على الكثير من أفكار فرويد الأساسية. وتأثرت هورني ببعض أفكار يونج، إلا أن أكبر الأثر يأتي من أدلر، واتُّهمت بأنها «سرقت» أفكار أدلر، إلا أن أدلر كان كما يقول النقاد «غوغائياً» ينشد جمهوراً أغلبه من المثقفين من غير المشتغلين بالطب النفسي، ومن الممرضين والمدرّسين، وأكثر هؤلاء يعلمون عن الاشتراكية أكثر من علمهم بالتحليل النفسي أو حتى علم النفس، أما هورني فمؤلفاتها علمية أكثر. ورغم أن فيرينزي يُعتبر المؤسّس الحقيقي للنظرية التفاعلية في التحليل النفسي، إلا أن هورني وفروم ورايخ يُعتبرون أصحاب الدعوة الحديثة لهذه النظرية، أو أنهم واضعو نسختها الجديدة المتوائمة مع زمانهم ومع وجودهم في أميركا، وهؤلاء الثلاثة كانوا في ألمانيا، ومارسوا التحليل النفسي هناك، ونظرياتهم في التحليل النفسي إختلفت فيه عنها في أميركا، بحيث نستطيع أن

نجزم بأن الثلاثة كان لكل مهم نظريته قبل وبعد أميركا. وكانت هورني فرويدية مدة خمس عشرة سنة في ألمانيا، وظلّت تدرس نظريات فرويد بمعهد التحليل النفسي ببرلين طوال هذه المدة، ولما هاجرت عيّنته مديراً مساعداً لمعهد شيكاغو، ومحاضراً في المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي، ولم يبدأ إنشقاقها عن فرويد صراحة إلا بمعهد التحليل النفسي في نيويورك، حيث دأبت على انتقاد الاتجاه الحتمي البيولوجي عند فرويد، وبالتأكيد على العوامل الاجتماعية المؤثرة في الإصابة بالعصاب، ثم انصرفت بالكلية إلى تكوين مدرستها وطريقتها العلاجية الخاصة، إلى أن أصبحت عميدة المعهد الأميركي الحديث للتحليل النفسي، وحتى وفاتها سنة ١٩٥٢. وخلال ذلك عانت الكثير من الانتقاد، ودخلت في الكثير من الجدل بسبب إصرارها على أن فرويد قال بما قال به من نظريات في الجنسية، وفي الغريزة، وفي تطوّر اللبيدو، نتيجة المناخ الفكري العام في أوروبا في زمنه، وكان هذا المناخ فلسفياً، فاتجه فرويد إلى فلسفة نظرية بما ذهب إليه من مقولات. ونبّهت هورني إلى أن الوضع في زمنها وفي أميركا بالذات يختلف تماماً عنه في أوروبا. وتعكس مؤلفاتها التي أصدرتها في أميركا عن البيئة الصناعية الأميركية والمجتمع التنافسي فيها، من أمثال «الشخصية العصابية في زماننا»، و«صراعاتنا الداخلية» و«العصاب والنمو عند الإنسان» و«طرق جديدة للتحليل النفسي» و«التحليل الذاتي» - تعكس اهتماماتها الأميركية أكثر من أية اهتمامات أخرى، ولذلك كانت نظرية هورني محلية أكثر منها عالمية، وكان قراؤه والآخذون عنها أميركيين في المحل الأول. والواقع أن هورني ما كانت في الحقيقة تهوى فرويد من أول الأمر، ولم يعجبها رأيه في المرأة منذ قرأت مؤلفاته، وكانت تعتبره معادياً للمرأة عموماً، والواقع أن فرويد كان كذلك، ويروي إرنست جونز عنه أنه كان مستبداً في تعامله مع أخواته وبناته، وكان يحظر عليهن الخروج، وكان رجعياً شديد الرجعية فيما يخصّ قراءاتهنّ، وحرّم عليهن مثلاً قراءة ديماس وبلزاك، وكان

كما يقول إرنست جونز يهودياً متزمتاً حتى النخاع. وكتبت هورني في صدر شبابها سلسلة مقالات تعارض بها فرويد ونشرتها في المجلة الدولية للتحليل النفسي إبتداءً من سنة ١٩٢٤ حتى سنة ١٩٣٣، منها «أصل عقدة الخصاء عند النساء» و«الهروب من الأنوثة»، و«الخوف النسائي»، و«التنكّر للبكارة»، وكلها مقالات تكشف عن إهتمام بالعامل الاجتماعي أكثرمن العامل البيولوجي. ولا شك أن هورني كانت منذ شبابها الباكر شيوعية وظلت كذلك، وكان من زملائها في ذلك الحين فروم ورايخ، وكان هدف هؤلاء بزعامة رئيسهم غير المتوّج أدلر أن يمزجوا نظرية التحليل النفسي بالنظرية الاشتراكية. ووجدت في أميركا التربة الصالحة، فالثقافة الجديدة هناك كان لا بدّ أن تتواءم معها طرق جديدة في التحليل النفسي.

ويقوم نقد هورني لنظرية فرويد على دعوى أن مقولاته قديمة وعفا عليها الزمن، من مثل مزاعمه في الوراثة، واعتباراته التشريحية التي يفرّق بها بين الجنسين - الذكر والأنثى، وقوله بأن الأطوار النفسية الجنسية التي نمر بها من الطفولة وحتى الشيخوخة هي أطوار قسرية وحتمية لا دخل فيها للتأثيرات الاجتماعية والبيئية والثقافية، وتفسيره لسيكولوجية المرأة بأنها عن رغبة لاشعورية فيها لأن تصبح رجلاً ويكون لها قضيب كالذكور، واعتقاده بأن سيكولوجية الرجل أساسها عقدة الخصاء أو خوفه من الإخصاء.

على أن أكثر ما تأخذه هورني على فرويد هو ثقافته الضحلة في فرعي الأنثروبولوجيا والاجتماع، وتزعم هورني أن معلومات فرويد فيهما لا تمت بصلة للقرن العشرين، وأن الأنثربولوجيا موضوع حديث تماماً لم يعرفه فرويد. ففي الوقت الذي أخذ العلم الحديث فيه بمفهوم «الثقافة» بما يعني أن كل مجتمع قد يختلف ثقافياً عن الآخر إختلافاً جذرياً، كان فرويد يذهب كأهل العلم في القرن التاسع عشر إلى أن كل المجتمعات ذات طبيعة واحدة، وأن مردها جميعاً إلى طبيعة الإنسان نفسه التي لا تختلف من مكان لآخر، وأن أصل الاجتماع هو الطبيعة البيولوجية والغريزية في الإنسان.

وتنبّه هورني إلى أن فرويد يميل إلى التفكير في شكل ثنائيات ويرد الظواهر النفسية إلى أمثال الهو والأنا، وغرائز الحياة وغرائز الموت، والذكورة والأنوثة وهي ليست مجرد ثنائيات فقط ولكنها متقابلات، بمعنى أن إحداها يعارض الأخرى. ونظرياته ميكانيكية، وبناؤه الفكري يقيمه مماثلاً للنسق الجسمي، فمثلاً هو يعتقد أن الجهاز النفسي تسيّره قوانين أجهزة الجسم نفسها، فالطاقة التي يستنفدها أحد هذه الأجهزة الجسمية بزيادة عما يقتضي له تنصرف إليه من الطاقة المفروضة لجهاز آخر، وعلى ذلك فإن بذل الحب للناس يمكن أن يقلّل من طاقة الحب التي كان من الممكن أن يخص الإنسان بها ذاته. وتصف هورني نظرة فرويد الميكانيكية بأنها تطوّرية، فطبقاً لنظرية داروين فإن الشواهد الحالية هي بنت التطوّرات الماضية، بل إنها ليست إلا نتيجة لأحداث ماضية ولا شيء سوى ذلك، والنظرة الميكانيكية عندما تتعامل مع ظاهرة البخار مثلاً لا ترى في البخار إلا أنه شكل جديد للماء إستحدثه التسخين، في حين أن النظرة غير الميكانيكية سترى في البخار ظاهرة جديدة، لها كيفيّات جديدة وقوانين جديدة تحكمها. وتتمثّل النظرة الميكانيكية عند فرويد في قوله مثلاً إن إتجاهات الراشد الحالية ليست سوى تكرار لاتجاهاته نفسها في طفولته، وأن حياتنا النفسية تتحدد في الخمس سنوات الأولى من عمر الطفل، وأنه بعد هذه السنوات الخمس لاشيء جديد يميّزها سوى أننا نعيد تمثيل الماضي ونجتر أحداثه. ومن ذلك أيضاً قوله بأن القلق الذي يتحصل للطفل كنتيجة لصدمة الميلاد هو الأساس لكل قلق لاحق، لا أكثر ولا أقل. والقلق اللاحق، كمّاً وكيفاً، هو تكرار لخبرة الماضي في القلق - قلق الميلاد.

وكل هذه النظرات التي يقول بها فرويد تنتسب إلى القرن التاسع عشر وليس القرن العشرين، واعتقاد فرويد بها هو الذي طبع نظرته العامة للوجود فجعلها نظرة تشاؤمية. تقول كارين هورني إنه طبقاً لنظرية فرويد في اللبيدو فإن كل سلوك لا يمكن تفسيره إلا بأنه تعبير عن رغبات لبيدية مكفوفة الهدف، فطلب

القوة مثلاً، وكل سلوك يتوخى إلى تأكيد الذات، هو في الأصل سلوك عدواني أو سادي أُحكم توجيهه إلى أهداف أخرى خلاف العدوان الصريح. وأي اتجاهات إستسلامية هي تعبير عن لواطة كامنة بانت بشكل مختلف، ومحبة الطفل لأمه إنما لأنها المخلوق الذي يشبع فيه حاجاته اللبيدية، والميل إلى تدمير الآخرين إنما مبعثه في الحقيقة ميولنا إلى تدمير نفسنا. وهذا الذي يذهب إليه فرويد لا يتمشى مع المنطق لأنه يتعارض مع فكرة البقاء التي تقوم عليها التطوّرية التي يقول بها، والتي تتناقض مع القول بالفنائية والتدميرية والعدونية، ثم إن الإنسان لو كان عدوانياً ومحباً لنفسه لما كان قيام كل هذه المجتمعات الإنسانية المترابطة بالمحبة والتي تعمل متعاونة ومتآزرة في سلام. ومن الصعب أن نوافق فرويد على أن العدوان هو الأصل في الإنسان بينما السماحة والمحبة هما الفرع، وكذلك من الصعب أن نوافقه على أن هذه السماحة هي نتاج الجنسية المزاحة عن هدفها الأصلي إلى هدف آخر فرعي، أو على أن هذه السماحة هي من قبيل ما يسميه تكوين رد الفعل للميول السادية. وفي رأي هورني إن مقالة فرويد السابقة قد تكون صحيحة في حالات، ولكن وجود هذه الحالات لا ينفي أن هناك سماحة أصلية وطيب خُلُق في الإنسان يأتيهما كسلوك تلقائي ليست له هذه الدوافع المرضية.

وتأخذ هورني على نظرية فرويد في اللبيدو أنها نظرية غريزية، وأنه يقصر تفسير الشخصي عليها، فعنده أن اللبيدو هو أصل كل الميول، وأن السلوك يقتضي ردّه إلى الدوافع في الطفولة، وإلى المجاهدات والمشاعر المخاوف التي نعانيها أطفالاً، ومثل هذه النظرية تشويه للعلاقات الإنسانية ولطبيعة الصراعات العصابية، لدور الثقافة في تكوين الأفراد وتكوين توجهاتهم، ولفهم المعالج النفسي للحالات المرضية، فلا يرى منها إلا جانب محددّ من منظورها الكلي قادر على الوفاء بمستلزمات العلاج الحقيقية.

ولا تعتقد هورني أن عقدة أوديب هي عقدة يعاني منها الناس في كل المجتمعات، أي لا تعتقد أنها عقدة عالمية، وأنها مفطورة في طبيعة الإنسان،

وتذهب إلى أنها مشروطة بظروف خاصة في المجتمع وفي العائلات التي ينشأ فيه الطفل، ومن ذلك سوء معاملة الطفل ومحاولته التعويض عن سوء المعاملة التي يلقاها من أحد الأبوين، والغواية التي قد يتعرض من أحدهما لها سوء المعملة - يجده في الالتصاق بأحد الوالدين والتعين به، وأن يغار من الأب الآخر أو من أي شخص يمكن أن يهدد علاقته بهذا الأب. وتشبه هورني في أفكارها حول عقدة أوديب أفكار أدلر وسوتي، ولا ترد الخنوع أو العدوان للطبيعة الماسوشية أو السادية وإنما للظروف الإجتماعية، فلربما يكون الماسوشي مضطراً للإدمان لأنه من الأقلية، أو لأنه من طبقة أقل شأناً. ولا ترى هورني كفرويد أن العدوان مهما كان ليس دليلاً على طبيعة سادية أو أنه غريزي في الإنسان، لأنه لو كان مفطوراً في الإنسان فلماذا تنتهي هذه العدوانية تماماً بعد التنفيس عن القلق في جلسة التحليل النفسي، ويصبح المريض متفهماً للمعالج ولظروف الآخرين، وميّالاً لأن يتسامح مع الناس؟ وتقول هورني إنه لا وجود لما يُسمّى السيكولوجية اللاسوية، لأن ما تعتبره ثقافة من الثقافات سلوكاً عصابياً قد يكون سلوكاً سوياً في ثقافة أخرى، وإذن ينبغي ونحن نحكم على سلوك ما أن يكون تقديرنا له داخل السياق الثقافي للمجتمع وفي إطار قيم هذا المجتمع. ولا تميز هورني بين العصابي والسوي إلا بخصلتين، الأولى أن العصابي جامد في ردود أفعاله، وأنه لا يتوهم إمكانيات التقويم الصحيح، وقد يتصدى لمهام تقصر عنها حقيقة أمنياته بينما السوي واقعي ويجيد تقدير الظروف ولا تتوه عنه حقيقة نفسه، ولا يغصب أفكاره على الظروف بل يطوّعها لها، ويتعامل مع الناس موضوعياً، ولا يرتعب فيهم مقدماً، على عكس العصابي الذي يسحب معه إلى كل موقف جديد أفكاره الجاهزة وشكوكه وجموده. ولا يتأتى فشل السوي إلا بالظروف الخارجة على إرادته وفهمه، ويتأتى فشل العصابي من داخله بتأثير ميوله المتضاربة والمتصارعة فيه. وتصف هورني العصاب بأنه مخاوف، ودفاعات ضد هذه المخاوف، ومحاولات للتوفيق بين الميول المتضاربة، وتفسيره بالقلق الأساسي، في

حين يرى فرويد أن عقدة أوديب هي السبب في الإصابة بأي نوع من أنواع الأعصبة. وتقول هورني إن الشخص العادي يمكن أن يُصاب بما تسميه عصاب المواقف Situation neurosis عندما يواجهه موقف مليء بالصراعات، وكذلك قد يصاب السوي الذي تجبره الجماعة على الانخراط في الجندية والاشتراك في حرب دفاعاً عنها من أجل مبادىء يُعاديها هو نفسه أو يرى أنه دونه أو أنها لا تهمه في شيء - قد يصاب مثل هذا الشخص بعصاب الحرب War neurosis، أو عصاب المعارك Battle neurosis، وهو عصاب موقفي كما ترى. ولا ترى هورني فائدة من علاج العصاب بالتنويم أو بالإيحاء لأن نتائجهما عارضة، ولأن الإصابة بالعصاب لا تتأتى من فراغ، وإنما يعد لها من الطفولة بما يجري للطفل من أحداث يضطرب لها خُلُقه، وبما يتحصل للبالغ من وقائع حياته الحاضرة في مجتمع تضطرب فيه أموره وتتصارع أطرافه، على عكس فرويد الذي يرد العصاب لأسباب بيولوجية. وضرب هورني المثل بإنسان المجتمع الصناعي، فمع أن الميل للإصابة بالعصاب يصنعه القلق الأساسي في الطفولة، إلا أن أعراض العصاب لا تظهر إلا بتأثير العوامل الكامنة والمتصارعة في المجتمع والثقافة. وتصف هورني هذا «القلق الأساسي» بأنه شعور بالتفاهة والغثاثة والضآلة والعجز في عالم ليس فيه إلا الغش والخداع والحسد والخيانة والإساءة، ويحفل بالمخاطر والتهديدات. وتبدأ هذه المشاعر مع الطفل المحروم من حنان الأبوين، وغالباً ما يكون ذلك لأنهما مصابان أيضاً بالعصاب. وتؤكد هورني على أن الحب غير المشروط ضرورة لازمة لتنشئة الطفل السليم، فإذا لم يتوفر ذلك للطفل فإنه ينشأ على الخوف من المجتمع والناس، ويستشعر الظلم، ويتوهم المخاطر، ويرتاب في كل المحيطين به والمتعاملين معه، ويتمنى في الوقت نفسه أن يجد الأمان والمحبة، وأن يثق في الناس، وقد يضطر إلى الانسحاب على نفسه زهداً، وقد ينقلب إلى عدواني يسعى لتحصيل القوة، وقد يجد خلاصه في الاستسلام بأن يكون تقليدياً أو بالانتماء لحزب سياسي أو

جماعة، أو بالالتحاق بخدمة الكبار وأصحاب النفوذ يحتمي بهم. وتلخص هورني الميول العصابية في عصرنا في ثلاثة ميول رئيسية، إما الاتجاه نحو الناس، وإما الاتجاه ضد الناس، وإما الاتجاه بعيداً عن الناس، بمعنى أن دوافع العصابي هي إما «الحب» أو «السلطة» أو «العزلة» وبها طلب الأمان وأن يتحرر من القلق الأساسي فيه.

مراجع

- Horney: On the Genesis of the Castration Complex in Women. (1924)

: Discussion on Lay Analysis. (1927)

: The Dread of Women. (1932)

: New Ways in Psychoanalysis. (1939)

: Inhibitions in Work. (1947)

: The Neurotic Personality of Our time. (1937)

: Our Inner Coflicts.

: Self - analysis.

: Neurosis and Human Growth. (1950)

❖ ❖ ❖

– هيستيريا...

- Hysteria (E.);...

- Hystérie (F.);...

- Hysterie (D.)...

يرجع إهتمام فرويد بدراسة الهيستيريا لأيام تلمذته على شاركو وترجمته محاضراته المعنونة «محاضرات جديدة عن أمراض الجهاز العصبي وخاصة الهيستيريا» (١٨٩٣ - ١٨٩٥). وكان المظنون قديماً أن الهيستيريا لا تحدث إلا بين النساء بسبب تنقّل الرحم، وإسم الهيستيريا نفسه من اللفظة اليونانية Hysteron بعنى الرحم، وكثيراً ما كانت نوبات الهيستيريا يصطنعها البعض، وكان من الصعب التمييز بين أعراض الهيستيريا الحقيقية وتلك المصطنعة Artificial h.، وكانت تعالج عند النساء في كثير من الأحوال بقطع البظر وإعادة الرحم إلى وضعه باستخدام الناردين، وهو عقار قوي الرائحة له تأثير إرتدادي على الرحم، ولكن شاركو نبّه إلى أن الهيستيريا مرض

عصبي. ويذكر فرويد أن شاركو هو الوحيد الذي ذهب إلى هذا الرأي، ويقول عن ذلك إنه ثورة في علم الطب العصبي. وشاركو هو الذي درس الظواهر البدنية والنفسية للهيستيريا، وحدّد تشخيص المرض، وهو الذي أكد أنه لا يقتصر على النساء، وأنه من الممكن إزالة الأعراض بالإيحاء للمريض بالشفاء منها، ومن ذلك أعراض الشلل والخدار والرجفة الهيستيرية، إلخ، مما يعني أن المرض له أصل نفسي وأنه ليس مرضاً عضوياً، وكان ذلك دافعاً إلى البحث في سيكولوجية المرضى به. ووعى فرويد كل ذلك وعاد إلى ڤيينا سنة ١٨٨٦ ليحاضر زملاءه في الهيستيريا وفي التنويم المغنطيسي، وليواجه عاصفة من النقد. وتعرّف إلى يوسف بروير في تلك الفترة. وكان بروير يعالج مريضة بالهيستيريا أطلق عليها تجاوزاً إسم Anna O.، في المدة من ١٨٨٠ حتى ١٨٨٢، وكانت قد أصيبت بشلل هيستيري إثر وفاة أبيها، كما كانت تشكو عدة شكاوى أخرى في البصر والسمع والتذوّق والحس، وجميعها أعراض هيستيرية، وأكثر من ذلك أنها كانت تعاني من تصدع في الشعور، وكانت لها شخصيتان، إحداهما عادية والأخرى مشاغبة. واكتشف بروير أنها عندما تحدثها في مشاكلها اليومية ترتاح وتزول عنها الأمراض، وأطلقت المريضة نفسها على هذه الطريقة إسم «العلاج بالكلام The Talking cure»، أو العلاج بطريقة الكنس Sweeping لكل أحزانها، وهذه الطريقة نفسها هي التي اطّلع عليها فرويد وأسماها طريقة التنفيس Cathartic method، وأحلها محل طريقة التنويم عند شاركو. ولقد اهتم فرويد كثيراً بقصة «أنّا أُو» وكان يناقش بروير فيها باستمرار، وفي هذه الأثناء كان يعالج مرضاه بالهيستيريا بالإيحاء من خلال التنويم، وكتب إلى المجلات العلمية يلخص المؤلفات في التنويم، مثل كتاب ميتشل في علاج النوراستينيا والهيستيريا بالتنويم، وكتاب أوبر ستاينر (١٨٨٧)، وكتبَ في سيرته الذاتية يصف ردود الفعل على محاضرته في «هستيريا الذكور» (١٨٨٦)، وترجم لبيرنهايم «التنويم والإيحاء» و«العلاج النفسي»، وقدّم للكتاب بدراسة مستفيضة. ولما

نشر هو وبروير كتابهما «دراسات في الهيستيريا» ذكر أن أول حالة يعالجها بطريقة التنفيس التي ابتدعها بروير أو بالأحرى مريضته «أنّا أُو» كانت الحالة التي يسميها حالة السيدة إيمي، وكان ذلك في أول مايو سة ١٨٨٩، ثم اتبعها بحالة ثانية هي حالة الآنسة لوسي (١٨٩٢)، ثم حالة ثالثة هي حالة الآنسة كاترين، وهذه هي الحالات الثلاثة التي شارك في مناقشتها في كتاب «دراسات في الهيستيريا» بالإضافة إلى الحالة التي قدمها بروير المعروفة باسم حالة «أنّا أُو». وقد أعجب الكتاب البعض وأثار البعض، ومن ذلك قول النقّاد عن طريقة التنفيس إنها طريقة كاشفة لأعماق النفس، وقال أحدهم إنها الطريقة نفسها التي يتبعها الشعراء في تصوير شخصياتهم، وخاصة شكسبير (الناقد ألفريد فون بيرنجر)، وقال معلّقاً خإنه الان يعرف على الأقل مرض اللاتدي منكبث وهو «عصاب الدفاع». وقد قيل إن بروير توقف عن التعاون مع فرويد بعد هذا الكتاب لتأكيد فرويد على العنصر الجنسي كدافع للتهافت بالمرض الفسي – الهيستيريا. ويكتب فرويد أنه أثناء هذه الفترة نفسها كانت بداية إطلاقه إسم التداعي الحر على طريقة التنفيس في علاج الهيستيريا، وكتب عدداً من البحوث، منها «الميكانيزم النفسي للظواهر الهيستيرية» (محاضرة ١٨٩٣)، و«إيتولوجيا الهيستيريا» (١٨٩٦)، وقد خلص إلى تصنيفها باعتبارها إنعصاباً ينشأ عن الصراع والكبت، وميّز منها شكلين من أشكال الهيستيريا هما الهيستيريا التحوّلية Conversion h. والهيستيريا الحصرية Anxiety h.، والأولى تحدث غالباً للأشخاص ذوي الميول الاستعراضية، غير الناضجين، ويظهر من تاريخهم المرضي أنهم دائماً كانوا ينشدون الهروب من الصراع الانفعالي إلى الأمراض الجسمية، فيرمز العَرَض الجسمي إلى الصراع النفسي، أو يأخذ الصراع النفسي شكل نوبة إنفعالية مصحوبة بشيء ممن المسرحة والعَرَض الجسمي أكثر دواماً عن النوبة الانفعالية، كحالات الخدر والشلل الهيستيري، إلخ. وأما الهيستيريا الحصرية أو هيستيريا القلق فأعراضها

التوتر وعدم الارتياح، والانشغال بالكوارث المستقبلية وأخطاء الماضي، وهي استجابة مرضية لتهديد يعيشه الفرد لاشعورياً، وقصور نضج ملازم للفرد طوال حياته، ويظهر هذاالقلق في شكل نوبات مصحوبة بخفقان في القلب، ورعشة، وصعوبة في التنفّس، وعرق مفرط، ويكون المريض في حاجة إلى تطمينه باستمرار وتسكين مخاوفه، وهي عادة غامضة لا ترتبط بشيء معيّن، وترتبط بكل شيء.

مراجع

- Freud & Breuer: Studies on Hysteria. (1895)
- Freud: On the Psychical Mechanism of hysterical Phenomena. (1898)
:The Aetiology of Hysteria. (1896)

❖ ❖ ❖

– الهيستيريا التحولية...

- Conversion Hysteria (E.);...
- Hystérie de conversion (F.);...
- Konversionshysterie (D.)...

هذا النمط من الهيستيريا ليست فيه شواهد قلق، والانفعالات والأفكار المكبوتة تتحوّل أو تنقلب فيه فتصبح أعراضاً بدنية رمزية، أي أن تعلّقها بأعضاء معيّنة يرمز لنوع الانفعالات والأفكار المكبوتة، فمثلاً قد تعبر الرغبة المكبوتة عند المريض بالهيستيريا في الحمل، كنتيجة لممارسة مص القضيب، والإستجابة الدفاعية ضد هذه الرغبة، قد تعبّر عن نفسها من خلال التحويل في القيء. ويقول فرويد إن هذا التحوّل من عملية نفسية إلى ظاهرة جسمية لم يتيسر لنا فهمه والإحاطة بعملياته، ومن ذلك الشلل الهيستيري وهو عَرَض تحولي من النوع الوظيفي، أي الذي يُلحق الضرر بالوظيفة دون العضو نفسه، وإن كان العضو ينطبع بالضرر الوظيفي بعد ذلك، ويمثل هذا الشلل تكويناً توفيقياً بين

الرغبة الغريزية الممنوعة التي تحاول التصريف والتعبير عن نفسها، والقوى الدفاعية للأنا. وتشحن الأفكار المكبوتة الصورة الذهنية للعضو المعنّى وتستخدمه لاشعورياً كبديل، فمثلاً كانت للبنت مصابة بالشلل رغبة لاشعورية أن يكون لديها قضيب كالأولاد، واتجه ذهنها إلى الساق للمشابهة بينها وبين القضيب، وشحنت هذا التصوّر للساق شحناً نفسياً وفّقت فيه بين رغبتها هذه وبين أوهامها عن الخصاء، وجاء الشلل بالساق ليعبّر عن قبولها للفكرتين: إمتلاك القضيب والإخصاء الذي قد يتهدده ويجعل منه عضواً معطلاً مع ذلك، إذ أنها قبل كل شيء بنت ولا يمكن أن تكون ذكراً على الحقيقة.

مراجع

- Freud: Hysterical Phantasies and their Relation to Bisexuality (1909)

❖ ❖ ❖

– الهيستيريا التنويمية...

- **Hypnoid Hysteria (E.);...**
- **Hystérie Hypnoide (F.);...**
- **Hypnoidhysterie (D.)...**

نوع الهستيريا التي جرّبها شاركو والتي يمكن إصطناعها ببعض الأسوياء ممن يمكن أن يستجيب للتنويم المغنطيسي، وأن يوحي إليهم أثناء جلسة التنويم ببعض الأعراض الجسدية الهيستيرية يأتونها تماماً كالمصابين بالهيستيريا، ويمكن أن يأتوها كذلك بعد الجلسة طالما هم واقعون تحت الإيحاء. واستخدم فرويد هذا المصطلح نفسها للدلالة نفسها التي استخدمها به شاركو، إلا أنه ذكر أنه لم يصادف في حياته حالة هيستيريا تنويمية.

مراجع

-Freud: the Neuro - psychoses of Defence . (1894)

❖ ❖ ❖

- الهستيريا الحَصَرية...

- **Anxiety Hysteria (E.);...**
- **Hystère d'Angoisse (F.);...**
- **Angsthysterie (D.)...**

هي هيستيريا القلق أيضاً، حيث الحَصَر هو القلق الشديد أو المرضي، ويظهر هذا الحصر في صحبة الأعراض الهيستيرية أو في ظروف التهيّج والاستثارة التي يتوقع فيه الحالات الوجدانية العنيفة. وقد يبدو الحصر في الهيستيريا دون أن تكون له أية صلة بأية ظروف، وكأنه نوبة قلق تأتي تلقائية ومستقلّة لم تستثرها أية أخطار أو ظروف عصيبة. والنوبة في جملتها يمكن أن تنفك وتتحلّ إلى عناصر وأجزاء ويستبدل بها عَرَض واحد على قدر من الشدة كالارتعاد أو الإغماء أو خفقان القلب وتعذّر التنفّس، ويطلق فرويد على هذه الحالات إسم مكافآت الحصر، وهي مساوية له كلينيكياً وسببياً. ويعتبر المخاوف المرضية كأعراض لهيستيريا تحوّلية، ويدرج المخاوف عموماً ضمن الهيستيريا الحصرية، إلا أنه مع ذلك يفرّق بينهما حيث القلق المتولد في الخوافات ليس قلقاً هائماً ولكنه يرتبط بموضوعات محدّدة، بينما هو في الهيستيريا الحصرية غير مرتبط بوضع، إلا أنه على المدى الطويل يتطوّر بشكل متزايد في اتجاه الخوافات.

(أنظر الفوبيا)

مراجع

- Freud: Obsessions and Phobias: their Psychical Mechanism and their Aetiology . (1895)

❖ ❖ ❖

- و -

حرف الواو

- الواقع النفسي...

- Psychic Reality (E.); ...
- Realité Psychique (F.);...
- Psychische Realität (D.)...

يُميِّز فرويد بن الواقع الداخلي والواقع الخارجي، فالواقع الداخلي هو ما تمثله التخيلات والرغبات والمخاوف والأنشطة الذهنية الأخرى، والواقع الخارجي هو العالم الخارجي بحقائقه. والواقع الداخلي Inner reality يُطلق عليه فرويد إسم الواقع النفسي، لأنه يمثل جانباً من نفسية الشخص، له لديه قيمة كقيمة الواقع الفيزيائي أو المدى الخارجي، وكان فرويد يقول بأن ما يحكي عنه المرضى من وقائع غواية تعرّضوا لها في طفولتهم هي أحداث حقيقية (١٨٩٥)، ثم عاد يؤكد أن قصصهم عن هذه الوقائع هي محض تخيلات ولا أساس لها من الصحة إلا أن تكون أماني جاشت بها نفوسهم (١٨٩٦). وكان اكتشافه لهذه الحقيقة مبلبلاً لأفكاره لفترة، إلا أنه خلص إلى أن في عالم الأطفال الفكرة والأمنية قد يتصورهما الطفل حقيقة، وقد يحكي عنهما من بعد وكأنه خبرهما في الواقع، وأطلق فرويد على هذه الظاهرة إسم الواقع النفسي، وهو واقع يلعب في الحياة النفسية للأفراد دوراً أكبر مما يلعبه الواقع المادي أو الخارجي. ثم إن فرويد أعطى هذا الواقع دوراً أكبر من الدور الذي تلعبه الصدمات النفسية في حياة الطفل، فالصدمة أو الخبرة الصدمة ليست مهمة في حد ذاتها، وإنما في ردود الفعل والإستجابات التي تستحدثها، وما يتعرض من انطباعاتها للقمع الشديد أو الكبت ويصبح ضمن اللاشعور. وللاشعور واقع له تماسكه وصلابته تماماً كالواقع المادي، وواقعه واقع نفسي محض. ويتضمن الواقع النفسي العمليات النفسية اللاشعورية، وليست الرغبات اللاشعورية التي يتضمنها المحتوى الحلمي إلا صادرة عن هذا الواقع النفسي، وتأويلها يحيلها من واقع نفسي إلى واقع مادي.

والواقع النفسي هو الذي يلعب الدور الأكبر في الأعصب، ويقوم التحليل النفسي على افتراض وجود واقع نفسي

أهم من الواقع المادي، والعصابي في استناده إلى هذا الواقع النفسي يُعتبر على حق بشكل من الأشكال، والأفكار التي يبديها، والعواطف التي يُصاب بها، ومشاعر الذنب التي يصدر عنها سلوكه الغريب، كلها تستند إلى واقع نفسي وليست من فراغ، ومن شأن الأعصبة والأذهنة أن الواقع النفسي فيها يطغى على الواقع المادي عند المريض.

مراجع

- Freud: Sexuality in the Neuroses. (1906)

:The Unconscious. (1915)

: Introductoury Lectures on Psychoanalysis. (1917)

❖ ❖ ❖

– الوجدان او الانفعال...

- **Affect (E.; F.);...**
- **Affekt (D.)...**

قال عنه فرويد أولاً إن الانفعال لا يمكن أن يكون لاشعورياً، وإنما الأفكار فقط، أي المفاهيم المجرّدة للرغبات الغريزية هي التي يمكن أن تصبح لاشعورية. واعترض خصوم فرويد على أن الأفكار لا يمكن أن تكون لاشعورية، لأن الفكرة بحكم أنها فكرة، شعورية، وإذا كانت لاشعورية فهي ليست فكرة، وقدّموا الاعتراض نفسه على الانفعال، فالانفعال لا يمكن أن يكون لاشعورياً، وهو انفعال فقط لأنه شعوري، غير أن فرويد قد بيّن بعد ذلك أن الانفعالات مشتقات نفسية من الغرائز، وهي تمثّلات نفسية لمختلف التغيّرات الجسمية التي تكشف الغرائز عن نفسها من خلالها. وترتبط الانفعالات بالأفكار وغيرها من التشكلات النفسية التي لا تتبعها أصلاً، ولذلك فإن أصلها ومعناها يظلان مستترين عن الشعور، وقد يصبح الانفعال شعورياً مع أنه أزيح إلى فكرة لم يكن يتبعها بعد أن تكون الفكرة الأصلية التي كان يتبعها قد صارت لاشعورية. وإذا حدث قمع كامل للانفعال فد يظهر كتغيرات بدنية وانعصابات من مثل العَرَق وفساد اللمس وخفقان القلب، إلخ. وفي

حالات الهوس والكتاتونيا قد تظهر الانفعالات صريحة.

مراجع

- Glover, E.: the Psycoanalysis of Affects. (1939)

- Rapaport, D.: On the Psychoanalytic theory of Affects. (1953)

❖ ❖ ❖

–وكالة المطبوعات الدولية للتحليل النفسي...

-The Internationl Psycho-analytical Press...

وكالة طباعة ونشر وتوزيع دولية، مقرها لندن، أنشأتها الرابطة الدولية للتحليل النفسي سنة ١٩١٩، بهدف ترجمة مطبوعات التحليل النفسي الألمانية، وخاصة مؤلفات فرويد، إذ كانت جميع المطبوعات حتى ذلك الحين توضع بالألمانية، حتى ماكان منها أصلاً من مؤلفين إنجليز، وكانت البحوث تُقرأ في مؤتمرات التحليل النفسي الدولية بالألمانية. وكان من الضروري بعد الحرب العالمية الأولى وبداية إضطهاد حركة التحليل النفسي بدعوى أنها حركة سامية، أن يكون هاك مقر آخر خارج البلاد التي تتحدث الألمانية، واختيرت إنجلترا، ولندن وبالذات، كمقر بديل، على أن يكون الترخيص للوكالة باسم إرنست جونز، زميل فرويد ومؤرخه وأحد أعضاء اللجنة المنوط بها الحفاظ على التراث الفرويدي، وجونز إنجليزي، ولم يكن مسموحاً للمؤسّسات الدول التي كانت في حرب مع بريطانيا أن تكون لها فروع فيها، ولا أن تصدر تراخيص لدور نشر باسم رعايا هذه الدول، فكانت الدار لجونز إسماً. وافتتحت الوكالة مكتبة للتوزيع بشارع وايماوث، كانت عبارة عن دكان صغير يديره إيريك هيللر، ولم تستمر إلا مدة سنة واحدة وأغلقت، وبيعت المطبوعات بها جملة بمائة جنيه إنجليزي فقط، وكانت أغلبها إصدارات بالألمانية لم تكن متوفرة في

أية مكتبة أخرى بلندن، إلا أن دار المطبوعات نفسها إستمرت في العمل حتى سنة ١٩٢٤، وأشرف جونز بنفسه على إصداراتها باسم السلسلة الدولية لمكتبة التحليل النفسي، التي بلغت خمسين إصداراً، ثم عُهِد بالإشراف على السلسلة إلى معهد لندن للتحليل النفسي بالاتفاق مع دار هوجارث للنشر وتحت مسؤوليتها.

مراجع

- Jones, E.: The Life and Work of Sigmund Freud. (1953)

❖ ❖ ❖

- ي -

حرف الياء

- يونج، كارل جوستاف...

- Jung, Carl Gustav...

(١٨٧٥ - ١٩٦١) ترجع صلة يونج بفرويد لسنة ١٩٠٦ عندما قرأ كتابه «تفسير الأحلام» وبدأ يراسله من زيورخ. وكانت أول زيارة له في بيته في ٢٧ فبراير سنة ١٩٠٧، وتوطدت العلاقة بينهما مدة خمس سنوات، تطلق عليها جماعة التحليل النفسي إسم السنوات الذهبية، وكان فرويد يعتبر يونج خليفته على مدرسة التحليل النفسي. ورشحه كذلك رئيساً للرابطة الدولية للتحليل النفسي سنة ١٩١٠، ورئيساً للرابطة الدولية للتحيل النفسي سنة ١٩١٠، ورئيساً للمؤتمر السنوي، والمسؤول عن المطبوعات الدولية للرابطة، وكان يقص عليه أحلامه ويستمع لتحليله لها، ويستحثه على الكتابة في الدوريات السويسرية لشرح التحليل النفسي والدعاية له. إلا أن علاقاتهما بدأت في التوتر منذ سنة ١٩١٢، واستقال يونج سنة ١٩١٣ لاستحالة التعاون مع فرويد وأتباعه من مدرسة ڤيينا، فقد وضح أن الخلاف بين المدرستين السويسرية والنمسوية آرية التفكير ومعادية للسامية، وترى في التحليل النفسي أنه يهودي الطابع والمنشأ، غير أن ذلك لم يكن يفسر الخلاف بين فرويد وأدلر، وكان أدلر قد سبق يونج إلى الاستقالة، وأدلر يهودي، وجماعته الذين استقالوا معه كانوا جميعاً من اليهود، وأما يونج فكان مسيحياً أصولياً وإن كانت زوجته يهودية، ولذلك كانت تفسير الجماعة، وتفسير فرويد نفسه معتسفاً. وباستقالة يونج صارت هناك ثلاث مدارس للتحليل النفسي: مدرسة فرويد، ومدرسة أدلر، ومدرسة يونج، وكان يونج أشهر شخصية وقتذاك في حركة التحليل النفسي، لرئاسته لمؤسساته الكبرى، وكان الواجهة المشرفة للحركة، وبدا أن التحليل النفسي يُنسَب إليه، الأمر الذي اضطر فرويد أن يصدر كتيبه «تاريخ حركة التحليل النفسي» سنة ١٩١٤ ليثبت انتساب الحركة إليه دون يونج وأدلر.

والخلاف بين يونج وفرويد، رغم أنه خلاف عرقي ظاهراً وباطناً، إلا أنه في الأساس خلاف حول رؤيتين ومنظورين ومنهجين، لكل منهما أصالته. ويطلق

يونج على مذهبه اسم علم النفس التحليلي، إلا أن المذهبين - مذهب فرويد ومذهب يونج - كلاهما يُدرج ضمن ما يسميه فرويد ما وراء علم النفس أو الميتاسيكولوجيا، لأن مقولاتهما فيهما ليست مما يمكن التجريب عليه والتحقق منه معملياً وإن كانت لها شواهد كلينيكية.. والخلاف الأساسي بينهما كان حول هذه المفاهيم والمصطلحات الأساسية في التحليل النفسي: اللاشعور، والليبيدو، والجنسية، وعقدة أوديب، وكلها كما نرى مفاهيم ومصطلحات ميتاسيكولوجيا، أي أنها ليست من مجال علم النفس ولا الطب النفسي. وقد قيل عن يونج إنه غير علمي، وميتافيزيقي، ودافع يونج عن نفسه بقوله إنه يستقي أصلاً من حقائق إمبيريقية يمكن أن يتحقق أي إنسان من صدقها، لأنها - كما يقول - حقائق سيكولوجية يحدسها الباحث بتأثير التجريد الشديد الذي تتميز به ومعقولية بنائها، والفرق بين الحقيقة السيكولوجية والرؤية المتيافيزيقة أن الأخيرة تفتقد المعقولية وليست لها مصادر قديمة في التفكير الإنساني.

وينتقد يونج على فرويد تأكيده على الجنسية، وكان شديد التحرج من نظريات فرويد الجنسية، ولا يرى أن الإيغال في التحدّث في الجنسية كما يفعل فرويد يخدم التحليل النفسي، وأن نظريات فرويد لا تستقيم مع ما بلغته الإنسانية من حضارة، ولا تتمشى مع مبدأ التسامي، وأنها تتصادم مع الأخلاق العامة. وكان المظنون أن يونج لا يؤمن بالله وتبين أنه مسيحي حتى النخاع، ولم يكن يتجه في تفسيره للأحلام وجهة فرويد الجنسية، ولم يكن يؤكد على الماضي، وكان غائياً في نظرته للأمور على عكس فرويد الذي كان يهمه البحث في السببية. والليبيدو عند يونج هو طاقة حياة، وفي بدايته كان جنسياً ثم استُلبت منه الجنسية مع التطور والارتقاء، ولا يمكن أن يرجع القهقري ليكون جنسياً. ورفض يونج أن يرى في عملية الرضاعة ومص الثدي مشابهة جنسية من أي نوع. ووافق يونج على مراحل التطور التي قال بها فرويد - الفموية والشرجية والقضيبية والتناسلية، ولكنه لم يشحنها جنسياً، وقال إن الليبيدو ينطبع في كل مرحلة بطابع المنطقة الخاصة به، فهو

في المرحلة الفموية فموياً، وفي المرحلة الشرجية شرجياً، إلخ. ويؤكد يونج على أن الأم تشبع في الطفل جوعه، وحبه لها يستقي من حاجته إليها، وليس صحيحاً أنه يشحنها جنسياً، وأن حبه فيه رائحة الشهوة الجنسية، أو معنى الاشتهاء الجنسي، وإنما التجاذب بينهما هو تجاذب المكاملة. وكما توجد عقدة أوديب تجمع بين الأم والطفل الذكر، فكذلك توجد عقدة إليكترا تجمع بين الأب والطفلة الأنثى. وبينما يؤكد فرويد على اللاشعور الشخصي فإن يونج يؤكد على اللاشعور الجمعي، فهناك ذكريات مشتركة، ولغة رمزية مشتركة تجمع بين كل الناس وتتمثل في لغة الأحلام والرسوم عند البدائيين وعند الأطفال، ويسمي يونج ذلك أنماطاً أولية، ومن ذلك الأنيموس الذكوري والأنيما الأنثوية، فلولا الأنيما أو العنصر الأنثوي في الذكور لما كان سلوك الرحمة والود والتعاطف عندهم، ولولا الأنيموس أو العنصر الذكوري في الإناث لما كان اضطلاعهن بالأعباء، وتكون في الذكور والإناث الأنيموس والأنيما معاً، وقد تطغى الأنيموس على الأنيما في الأنثى فتظهر بمظهر ذكوري، كما قد تطغى الأنيما في الذكر فيظهر بمظهر أنثوي. وتصوراتنا للأنماط المختلفة في الحياة تغذيها الأنماط الأولية لهذه التصورات، فهناك تصوّر أولي للأم، وللأب، وللزوجة، وهذا التصور الأولي يحدد فهمنا لمعاني الأمومة والأبوة والزوجية.

والأنا عند يونج قوام الشخصية، على عكس فرويد الذي يرى أنه بمثابة العقل الشعوري، وأما اللاشعور الشخصي فيشبه ما قبل اللاشعور عند فرويد، والجدير فيه أنه يلحق به عدداً من العُقَد كعقدة الأم مثلاً، ومعناها عند يونج إيجابي وليس سلبياً كما عند فرويد. والعقدة عنده عدد من الخبرات والإدراكات والوجدانات التي تتحلق كالنواة وتشد إليها الخبرات المشابهة. فعقدة الأم خبرة عامة عند الإنسان بما عليه الأم وكأنها صورة مشتركة أو مثالية لمقتضى الأم، وتضاف إليها الخبرات الخاصة فتكبر العقدة، فإذا قلنا إن أحد الناس يعاني من عقدة الأم فإننا نعنى بذلك أن لأمه دوراً بارزاً في حياته، وأن صورتها عنده تشغل مكاناً من نفسه أكبر من صورة الأم عند إنسان آخر لا يعاني

هذه العقدة، وأن أمه لذلك عنصر مؤثر في حياته وتفكيره وسلوكه. والجديد في اللاشعور الجمعي عند يونج أنه مخزن حكمة الأجيال وخبرات الإنسانية، فعندما نخاف من الظلام ويشترك في هذا الخوف الصغير والكبير، فإن ذلك ليس نتيجة خبرات شخصية ولكنه لاستعداد كامن فينا، لأن الإنسان عبر العصور كان يخاف ما يخبئه له الليل من مخاطر وأعداء. ومن الاستعدادات الكامنة أيضاً أن يكون لنا دائماً دور اجتماعي يُطلق عليه يونج إسم القناع، وكان لنا هذا الدور عبر الأجيال، وكل إنسان يحاول أن يوفق بين الأنا ومقتضيات الدور، وإذا لم يستطع فإن الشخص قد ينسى نفسه في الدور، أو قد ينسى الدور ويعيش لأناه فقط وينشأ الاضطراب النفسي نتيجة اللاتوافق بين الاثنين.

ومن الأنماط الأولية ما يسميه يونج الظل، وهي الحاجات الغريزية فينا التي تلح علينا وتطالبنا بالإشباع، ومعنى أن الغرائز ظل أنها تلاحقنا كالظل. وتسمية يونج لها بالظل لأنها ليست حقيقة الإنسان، وهذا اختلاف آخر بين يونج وفرويد، والظل - أي الغرائز - مسؤول عن كافة الرغبات والمشاعر غير المقبولة، ومهمة القناع أن يتستر عليها، والأنا الشخصي يكبت هذه الرغبات، وبعضها يفلح في التسلل إلى الأنا والتأثير في السلوك، وإذا سلك الإنسان كمقتضيات الظل فإنه يجنح.

وليونج فضل مصطلحات ذاعت في التحليل النفسي، ومن ذلك الانطواء والانبساط، وهما اتجاهان قد يغلب أحدهما فيكون الشخص إنطوائياً أو منبسطاً، إلا أن المنبسط ظاهرياً يكون منطوياً باطنياً، والعكس صحيح، والاتجاهان إذن يوجدان عند كلّ فرد. وليونج فضل نظرية الأنماط في الشخصية، وكل نمط بحسب الوظائف النفسية الرئيسية، وهي التفكير والوجدان والإحساس والحدس، وبحسب سيطرة إحدى هذه الوظائف يكون الفرد وجدانياً، أو حسياً، أو حدسياً، أو مفكراً، ومع ذلك فكل الوظائف تتكامل وتعوض بعضها بعضاً. وحتى في التعارض الذي يمكن أن نعيشه فإن هناك وحدة أضداد تخلق توازناً ضرورياً في الشخصية، وإلا كان التداعي بالمرض النفسي.

ومن كل ما سبق ندرك أن البناء

السيكولوجي عند يونج ليس بناءً عادياً، وليس يونج من علماء التحليل النفسي الذين يمكن الاستهانة بهم ممن تخارجوا عن فرويد وهم كثيرون. وكان فرويد يفاخر به كرئيس للدولية، ولما استقال أصابته من ذلك صدمة، وكان يتحسب لاستقالته، وفي كل خلاف بينهما لا يقوى نفسياً على الصمود ويغشى عليه، وحدث ذلك ثلاث مرات. وهذا التوسع والتعقيد الذي عليه مذهب يونج هو الذي - فيما يبدو ويؤكّده أغلب النقاد من غير المدرسة الفرويدية - أوغر صدر جماعة التحليل النفسي بڤيينا، وهم خاصة فرويد وحلقته، وكثيراً ما كان فرويد نفسه يطلب منه عدم التوسع، وأن تكون بحوثه في مجال العصاب فقط، وذلك تضييق لا شكّ فيه لمجال التحليل النفسي ليس له من سبب عند فرويد سوى ما يؤكّده النقاد بأنه الحسد، وهو نفسه ما وصفه أبراهام بأنه شطحات جماعة زيورخ. وجماعة زيورخ أو مدرسة يونج بزيورخ تميزت بالاتساع في بحوث التحليل النفسي، واتسمت بالاعتدال، ولا ينسب التطرف إلا لفرويد حتى أنهم قالوا فيه انه «داعية جنسي مسرف pious sexualist»، وكانت جماعة زيورخ من خاصة المحللين والعلماء، بينما جماعة ڤيينا كان منهم الهواة من غير الأطباء، وهم الذين اشتهروا باسم المحللين العلمانيين lay analysts، وعاب فيرينزي - وهو من أتباع فرويد - على فرويد قبوله لهذه الفئة، وأبدى إعجابه بالمستوى العلمي الراقي لجماعة زيورخ، وأرجع ذلك لرئاسة يونج.

مراجع

Jung: The Theory of Psychoanalysis. (1913).

: The Stucture and Dynamics of the Psyche. (1916).

: The Psychology of the Unconscious. (1916).

: Psychological Types. (1912).

: The Relations between the Ego and the Unconscious. (1928)

: The Psychology of Transference. (1946).

❖ ❖ ❖